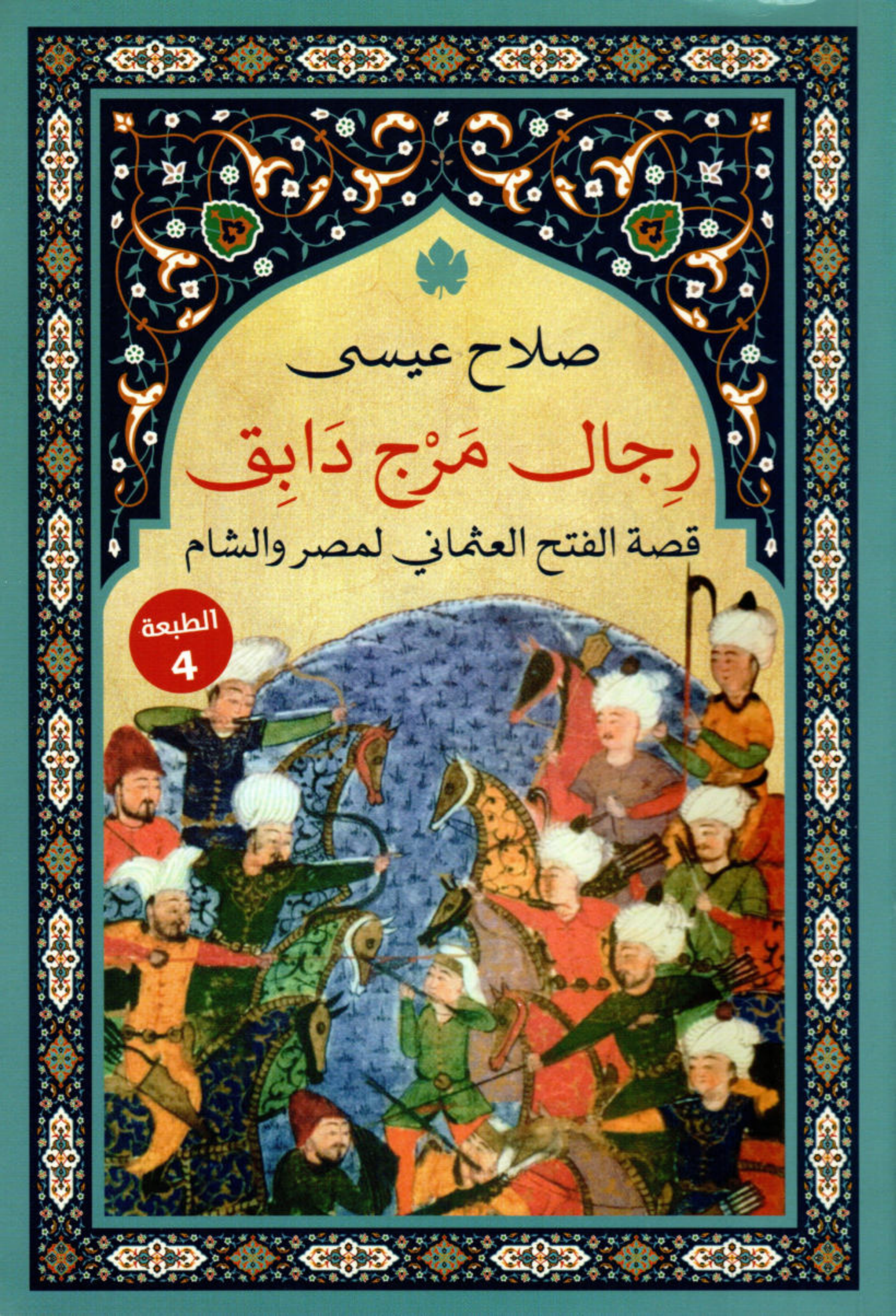

صلاح عيسى
رِجالُ مَرْجِ دَابِقٍ
قصة الفتح العثماني لمصر والشام
الطبعة
4



رِجالُ مَرْجِ دابِق

قصة الفتح العثماني لمصر والشام



صلاح عيسى

رِجال مَرْج دَابِق

قصة الفتح العثماني لمصر والشام





facebook.com/alkarmabooks
twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

طبعة دار الكرمة الأولى: ٢٠٢١

عيسى، صلاح.
رجال مرج دابق: قصة الفتح العثماني لمصر والشام / صلاح عيسى - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢١.
٢٤٨ ص؛ ٢٢ سم.
تدمك: 9789776743366
١- مصر - تاريخ.
أ - العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٠٠١١ / ٢٠٢١

٤٦٨١٠٩٧٥

تصميم الغلاف، والإخراج الداخلي: أحمد عاطف مجاهد

«فَسَدتْ أحوالُ الرَّعِيَّة، ويَدُكَ
يا مَولانا في الماء البارد»

ابن إياس

المحتويات

ماذا بقي منهم؟

لا تزال المدرسة الخيربكية قائمة حتى اليوم بعد خمسمائة سنة من إنشائها، تراها وأنت صاعد إلى قلعة صلاح الدين بالقاهرة، واقفة في شموخ وعظمة إلى يسار شارع التبانة، ولكنك إن صعدت إلى القلعة، ونظرت إليها فلا ترى فيها شموخًا أو عظمة!

وهي مدرسة ومسجد، شيَّدهما ملك الأمراء خاير بيك بن ملباي، ومنحهما اسمه، وبهما ضريح يثوي فيه جثمانه، وسبيل أنشأه خاير بيك ليرتوي منه كل صاعد إلى القلعة، وفوق السبيل مسكن كان مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم.

ويوم أنشأ ملك الأمراء خاير بيك هذه المدرسة، كان حاجبًا لحجاب السَّلطنة العربية المملوكية، وواحدًا من كبار أمراء المماليك، فاختار أن يبني ضريحه في طريق القلعة، ليقصده كل من صعد ليلقى السلطان، يروي ظمأه من السبيل، ويقرأ الفاتحة على روح مُنشئه، وما أكثر الذين كانوا يصعدون إلى القلعة، يوم كانت مصدر السُّلطة والنفوذ، ومقر الحُكم والسلطان.

لكن الناس - حتى في تلك السنوات البعيدة - لم يرووا ظمأهم من السبيل، ولم يقرأوا الفاتحة على روح مُنشئه، ولم يطلبوا له الرحمة أو المغفرة، لأن ما فعله كان صعبًا أن يُنسى!

ذلك حدث أيضًا للسلطان قانصوه الغوري، الذي يحمل واحد من أشهر أحياء القاهرة اسمَه حتى اليوم، وهو حي الغورية، وبه وكالة الغوري وقبته ومسجده ومدرسته، وضريحه الذي بناه وزخرفه، وجعله في طريق الجامع الأزهر، ليقرأ له الفاتحة كل من يزور المسجد الشهير للصلاة، لكن الأقدار شاءت أن يموت قانصوه الغوري في صحراء مرج دابق، فتأكل الجوارح جثته، ويظل ضريحه خاليًا، يمر به السابلة في طريقهم إلى الأزهر، فلا يرتفع صوتٌ بدعاء، ولا يطلب قلبٌ مغفرة!

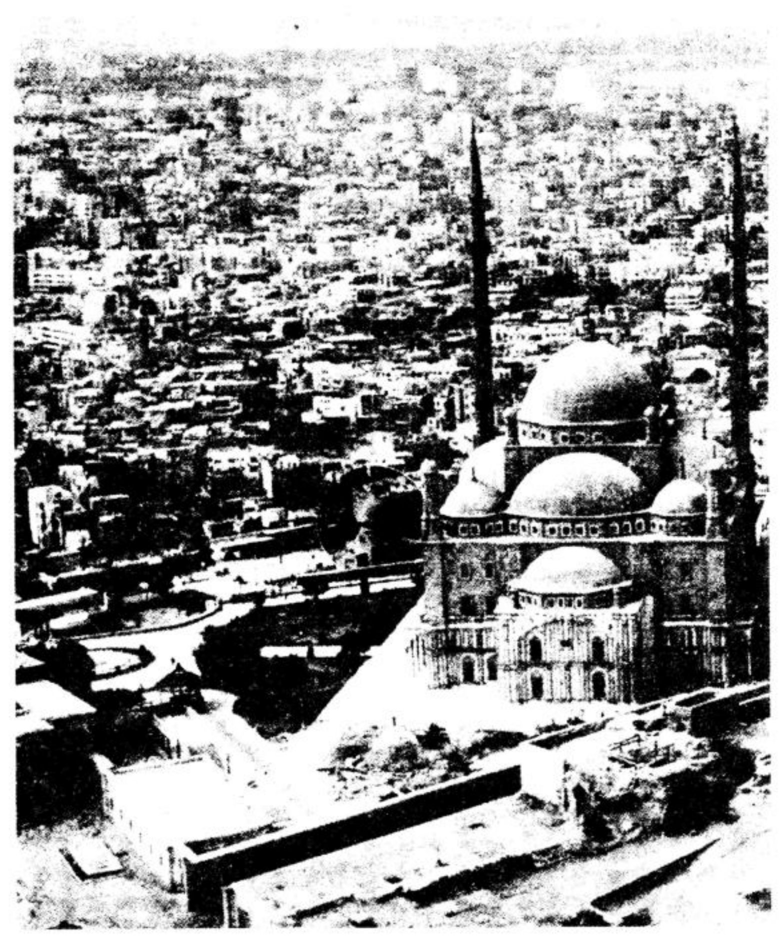
وهكذا غاب أبطال هذه القصة في جوف التاريخ، ولم يبقَ منهم سوى سطور في كتب قديمة، قاومت الفناء، وظلت أقلام النُّساخ تنسخها حتى أدركت عهد المطبعة، فأَمِنَتْ شر البِلَى؛ وحجارة صمدت أمام مطارق الزمن، وبقيت رغم المطر والقيظ والريح والسيل، تراها في القدس وغزة وعكا، وتراها في حلب وفي دمشق، وفي كل مدينة عربية عرفت حكم المماليك: أضرحة، وقباب، ومساجد، وأسبلة، وخوانق، ومآذن.

وبقي منهم، بعد كل هذا، وقبل كل هذا، ما صنعوه بنا نحن العرب، وما أورثوه إيانا.

أما دفء الخفقات، ورنين الضحكات، وطعم الأحزان، وعفن الأطماع... أما البطولة والنذالة والخيانة... فقد أصبحت حجارة باردة،

ونقوشًا ساكنة. ضاعت جميعًا، كما تبدَّد حلم خاير بيك في أن يدعو له الصاعدون إلى مقر الحكم والسلطان بالرحمة؛ كما ضاع في صحراء مرج دابق أمل الغوري في أن يطلب له زوَّار الجامع الأزهر، المغفرة!

وتلك بعض قسوة التاريخ!



قبر خاير بيك الذي بناه في طريق القلعة ليترحم عليه الناس، لكنهم لم يفعلوا

رجال مرج دابق

لم يكن واحد من الرجال الذين ملأوا فضاء مرج دابق في تلك الليلة الصيفية الحارَّة يعرف على وجه التحديد كيف ستنتهي الأمور. كل ما كانوا يعرفونه أن الحرب قد أصبحت أمرًا مقررًا، وأنها قد تنشب في أي لحظة، وأن إقامتهم في هذا المرج الواسع لن تطول.

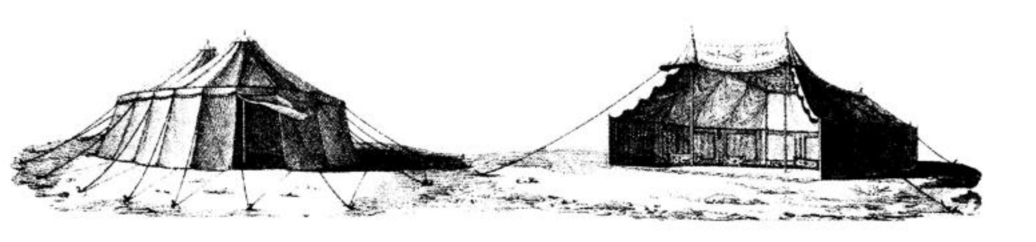
أما كيف تتوزع بينهم الحظوظ: مَن منهم سوف يُؤخذ أسيرًا؟ ومن منهم سوف يسقط شهيدًا في المعركة؟ وهل ينتصر الجيش الذي يقوده سلطانهم الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري، أم ينتصر جيش عدوهم السلطان المظفر سليم خان بن بايزيد العثماني؟ فذلك كله لم يكن واحد منهم يعرف شيئًا عنه.

قبل عشرة أيام وصل جيش السلطان الغوري إلى مرج دابق قادمًا من حلب، فأحال المرج إلى معسكر حرب ضخم، وبدلًا من القطعان التي كانت ترعى فيه، تناثرت في أرجائه خمس عشرة خيمة كبيرة، يقيم في كل واحدة منها أمير من كبار أمراء المماليك، وحوله مماليكه وجنوده، بالإضافة إلى قبائل العربان، وجموع الفلاحين الذين جاءوا من كل أنحاء السلطنة العربية المملوكية: من القاهرة ودمشق، ومن بيروت

وطرابلس، ومن غزة والقدس، فقد كان المماليك يحكمون أيامها دولة عربية متسعة الأرجاء، تضم مصر وسوريا ولبنان وفلسطين والحجاز، وتمتد من حدود ليبيا إلى الفرات، ومن شمالي حلب وشرقيها إلى جنوبي الجزيرة العربية.

كانت الأيام الأخيرة من شهر رجب سنة ٩٢٢هـ (أغسطس/ آب ١٥١٦م)، تمضي ببطء، والقمر في السماء يتضاءل ليلة بعد أخرى، فيبخل بضوئه على الرجال الذين كانوا يعانون حر شهر أغسطس/ آب، بينما تصاعد دخان المطابخ إلى السماء، فازداد الظلام حلكة، وأطبق الصمت على المكان، لا تخدشه سوى كحَّة هنا وسعلة هناك، وصهيل حصان ضايقه الدخان الذي تخلل الهواء الراكد، وصليل سيف انهمك صاحبه في سَن حدِّه، وهمسات الرجال يتبادلون تحية المساء.

وفي بعض الليالي كان كثيرون منهم يغادرون الخيام ليتجمعوا في حلقات صغيرة يتناقلون الأنباء، ويتناقشون في كافة الاحتمالات، وربما فكر بعضهم في أن يستأذن على أحد مقدمي الألوف ليسأله عن موعد نشوب الحرب، وهل تطول إقامتهم في هذا المرج أم تقصر، وسرعان ما يعدل عن ذلك، فاجتماعات السلطان بكبار الأمراء لا تنقطع، والسؤال يشغل ستين ألفًا غيره ازدحم بهم فضاء مرج دابق، وحتى السلطان نفسه يشغله السؤال، فلا يعرف إجابة محددة له.



وحين يتعب الرجال من الكلام، ويضنيهم القلق، يتفرقون واحدًا إثر الآخر، يبحث أكثرهم قلقًا عن حلقة أخرى يتذاكر مع أفرادها ما يعرفونه عن قسوة السلطان سليم العثماني، وعن جلافة جنوده، وما ارتكبوه من فظائع في حربهم ضد الشاه الفارسي إسماعيل الصفوي في السنة الماضية (١٥١٥م).

ويلتقط أحد المماليك القرانصة طرف الحديث، فيحكي عن الحروب التي دارت رحاها بين السلطان بايزيد - والد سليم - وبين سلطانهم الراحل قايتباي الكبير، وبعد لحظة ينسى ما بدأ به، وينتقل إلى شكوى الزمان، فها هو ذا وزملاؤه من مماليك السلاطين السابقين، قد امتُهنوا بعد تكريم، وذُلوا بعد عزة، ومستهم الحاجة بعد غنى طائل ورفاهية بلا حدود. وها هو ذا قانصوه الغوري منذ تولى العرش، يُكثر من جلب المماليك ليتقوى بهم على القرانصة، خشية أن يتآمروا عليه، ويستولوا على العرش، وهو قد منح جلبانه المرتبات والأرزاق والإقطاعات على حساب القرانصة، وميَّز الجلبان في كل شيء، حتى إنه حين خرج من مصر ليلقى السلطان سليم جعل أرزاق الحرب ضعفين للجلبان، ولم يمنح القرانصة إلا القليل من النفقة.

واصل المملوك الشيخ شكواه من الزمان والسلطان، وافترش

آخرون العشب، يسرحون بأبصارهم في سماء أوشك قمرها أن يدخل المحاق، والنجوم حزينة متباعدة صامتة، لا تقول كلمة تدعو للاطمئنان، ولا أحد يدري ماذا حدث في القاهرة بعد أن غادرها الجيش: هل هدأت أحوالها، فرخصت الأسعار، وكفَّ الوالي عن فرض الغرامات وجباية الضرائب والرسوم؟ وهل شدَّد المحتسب قبضته على الأسواق فكفَّ التجار عن إخفاء البضائع؟

كثيرون كانوا يقولون: «نعم، فالقاهرة يحكمها الآن الأمير طومان باي، نائبًا عن عمه السلطان الغوري».

والناس جميعًا يعرفون طومان باي ويحبونه، فهو لم يكن يومًا واسطة سوء بينهم وبين عمه السلطان، وما أكثر ما وقفوا في طريق موكبه، وهو يصعد من قصره على ضفاف بركة الفيل إلى القلعة، فهتفوا أمامه بشكاواهم، وتوسلوا له أن يشفع فيهم عند السلطان، ليخفف عنهم ضريبة أو يدفع عنهم مظلمة، فما بخل الرجل يومًا بشفاعته يبذلها لدى السلطان، ويلح عليها، وما رد له السلطان يومًا طلبًا، أو خيَّب له رجاء.

وكيف يرفض السلطان لطومان باي شفاعة، وهو ابن أخيه، وموطن سره، ونظام مملكته، تجمَّع في يده من المناصب ما لم يسبقه إليه أمير من أمراء المماليك، فهو دوادار السلطان والمتحدث على ديوان الوزارة والاستادارية وسائر الدواوين قاطبة، حتى شاع بين الناس أنه نظام المملكة، حين رأوا بأعينهم كيف اعتمد عليه السلطان في أخطر المهام، فهو مستشاره الأول، وهو الذي يقود الحملات والتجاريد لقمع الفتن الداخلية، يؤدِّب بها قبائل العربان حين تُخل بالأمن والنظام، وهو

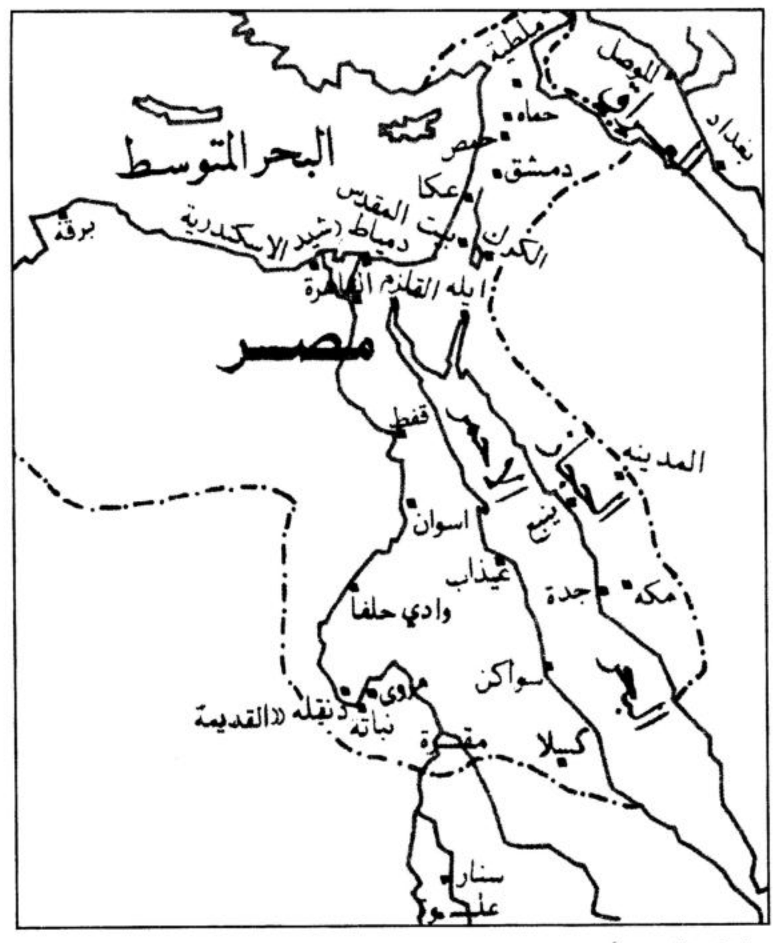
الذي يجمع الضرائب العينية المفروضة على أصحاب الإقطاعات من القمح والذرة والحبوب والأغنام والأبقار، وهو فوق هذا وذاك، همزة الوصل بين السلطان وبين العامة، فهم يحبونه، ويرفعون إليه شكاواهم فيتدخل ليخفف عنهم بعض ما يعانونه، فيهدأون بعد أن يكونوا على وشك التمرد والثورة!

ويثبت طومان باي بذلك أنه أذكى الأمراء، وأخلصهم لعرش عمه، لا يؤدب المتمردين من العربان فحسب، لكنه بذكائه وحسن تصرفه يحول بين العوام والحرافيش وبين الثورة أو التمرد.

حرص الغوري من ناحيته على أن يوقر طومان باي ويبالغ في إظهار حبه وتقديره له، فحين تزوج مشى في زفته سائر الأمراء وبأيديهم الشموع الموقدة، وشقوا أمامه شوارع القاهرة حتى ارتجت له. وحين مات طفله الصغير، أمر السلطان بدفنه في مدرسته التي بناها لتكون مسجدًا ومدرسة ومقبرة له ولأسرته. وحين اصطحب طومان باي - وهو أمير للحج - زوجته إلى الأرض المقدسة وعادا، زُينت لهما القاهرة، وأوقد الناس القناديل على البيوت، بل إن السلطان نزل يومًا من مقره بالقلعة إلى مقياس الروضة، لكي يكون في استقبال المراكب التي عاد عليها طومان من رحلة أدَّب خلالها عربان الصعيد، وهو تكريم لا يبذله السلطان إلا لملوك الدول الأجنبية.

ماذا يستطيع طومان أن يفعل إذا هاجم العربان القاهرة، أو إذا طاح حسن بن مرعي، شيخ عربان الغربية، وابن عمه شكر، شيخ عربان البحيرة، في القرى فنهبوا مخازن السلاح والغلال، وسرقوا الأبقار والدواب، وحرقوا القرية بعد هذا كله؟

هل يحفظ حسن بن مرعي، جميل صديقه طومان، الذي ضمنه لدى السلطان الغوري، فأفرج عنه بعد أن كتب على قيده: «لا يخرج من السجن إلا إلى القبر»، أم يتحالف مع ابن عمه شكر، فيثيران الفتن ويشعلان الحروب؟

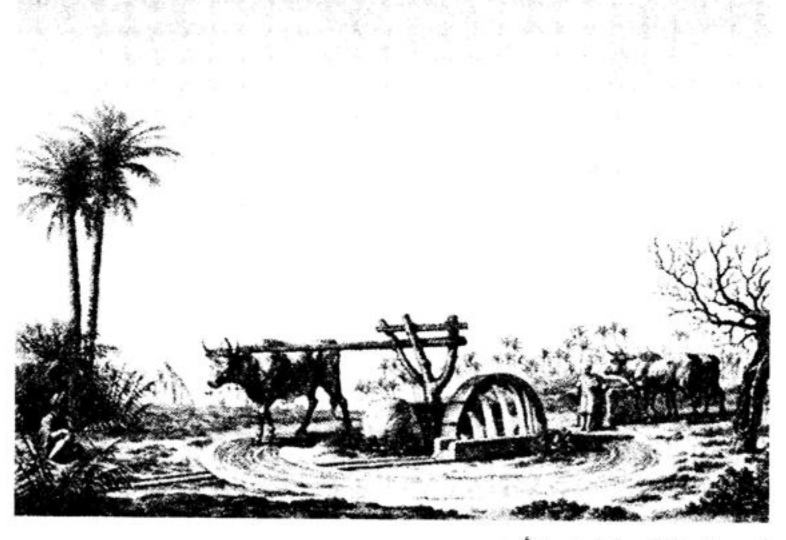


دولة المماليك في أقصى اتساعها

ذلك أمر كان يشغل الأمراء دون غيرهم من رجال مرج دابق، فهم وحدهم أصحاب الإقطاعات؛ منح السلطان كلًّا منهم، حسب رتبته ومكانته، قرية أو أكثر من قرى السلطنة، يستغل ما تنتج من حبوب وزروع وألبان، وما يربي فيها من طيور وحيوانات، ويتصرف في مصيرها كما يتصرف في مصير من يعملون على أرضها من فلاحين.

أليسوا هم أجناد الحلقة: قلب الجيش المملوكي، وقوته الضاربة، الجندية حرفتهم التي لا يعرفون غيرها، وهم يؤجرون عليها بإقطاعهم أرض مصر والشام وفلسطين بكل ما في أعماقها من خير، لا يطلب منهم أحد شيئًا إلا أن يدفعوا الخراج.

المتفائلون من الأمراء طمأنوا أنفسهم بأن العربان يعرفون طومان باي معرفة جيدة. وإذا كان العوام والحرافيش وأهل المدن يتحدثون عن



الري بالساقية في إقطاعات الأمراء

طيبة قلبه، فإن العربان قد عرفوا قسوته وأحيانًا بطشه، فطوال السنوات الخمس عشرة التي انقضت منذ صعد عمه إلى العرش، وهو في حملات مستمرة لتأديب المتمردين من العربان، سواء كانوا من بني سعد وبني وائل في البحيرة، أو من بني حرام في الشرقية، أو كانوا من عربان هوارة ولخم في الصعيد، حتى ألحق بهم هزائم متعددة، وشنق عددًا من كبار زعمائهم، ثم صادق عددًا منهم، حتى تحدث الناس بالمحبة التي جمعت بينه وبين صديقه حسن بن مرعي بعد حرب دامية بينهما استمرت شهورًا، وانتهت بولائم يقيمها طومان، وبنزهات في سنهور حيث كان قصر حسن الشامخ وبساتينه الغنَّاء.

المتشائمون منهم قالوا إن أحدًا لم يستطع تأديب العربان في مصر أو الشام، فما إن تخمد إحدى ثوراتهم حتى تنشب أخرى، ويستغيث كُشَّاف الأقاليم بالسلطان ليعزز ما لديهم من قوات، لكن العربان لا يهدأون، فهم يأنفون من الخضوع للمماليك، لأنهم عبيد أرقاء انتزعوا حكم البلاد من سادتهم العرب، ولن يهدأ العربان إلا إذا استردوا حكمها.

أما ونحن في شهور فيضان النيل، فذلك هو موسم غارات العربان، فالمياه تكسو الأرض وتقطع الطرق بين العاصمة وبقية أنحاء البلاد، فلا تستطيع حملات التأديب أن تصل إليهم. ساعتها يغيرون على القرى فيذبحون الفلاحين ذبح المواشي، ويستولون على كل ما تصل إليه أيديهم من غلات ومَواشٍ ودواب. وحتى لو لم يكن هناك فيضان، فالقاهرة الآن تكاد تخلو من الجنود، ومعظم الجيش يقبع في مرج دابق، يتأمل المحاق، وينتظر المجهول.



الزي التقليدي للبدو

ماذا يستطيع طومان باي أن يفعل، وقد تدهورت أحوال السلطنة من الغرامات والمصادرات والمظالم؟ وكيف تتحسن أحوالها وقد حمل عمه السلطان الغوري معه مائة قنطار ذهب ومائتي قنطار فضة إلى حلب، لكي يدفع منها مرتبات المماليك وتكاليف الحرب؟ فماذا بقي في خزائن السلطنة لكي يخفف به طومان باي ما يعانيه الناس من غلاء وجوع؟ وهل يُصلح العطار ما أفسد الدهر؟

يقول واحد من الرجال: «كان الله في عون طومان باي!».

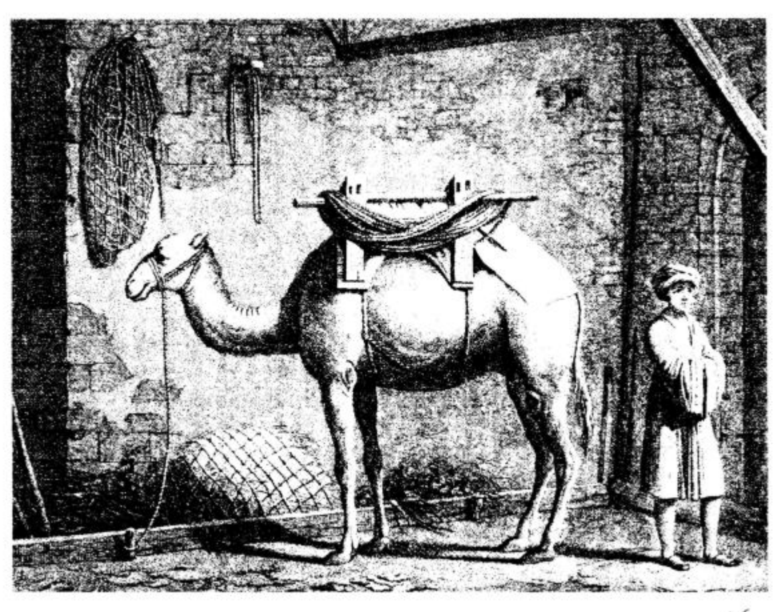


الطريقة اليدوية لري الأراضي المرتفعة عن مستوى النهر

يشرد آخرون فيذكرون زوجاتهم وأطفالهم، ويحلمون بجلسة على مقاهي القاهرة، أو نرجيلة على ضفاف الخليج، أو جلسة طرب يسمعون فيها أعذب الألحان، ويرتجفون حين يدور شبح الطاعون في رؤوسهم، فيذكرون أن مصر شهدت في عصر الغوري ثلاثة طواعين كبيرة، ذهبت بآلاف الفتيات اللواتي لم يرتدين طرحة الزفاف، والأطفال الذين لم تنبت أسنانهم أو تنطق ألسنتهم.

ساعتها، يرفع الرجال أكُفَّهم إلى السماء، ويدعون الله بصوت خائف: «يا رب! لا تجمع علينا الطاعون وابن عثمان في وقت واحد!».

حتى أكثر رجال مرج دابق سذاجة، لم يكن يستطيع أن يستهين بأمر عدوهم السلطان المظفر سليم الأول بن بايزيد العثماني، فقد كان شهيرًا



جمَّال



سقَّاء يبيع الماء في الطرقات

بعنفه وقسوته وطغيانه، حتى لفت طبعه ذاك نظر أبيه السلطان بايزيد، فسماه «سليم الجبار». وأثبت سليم فيما بعد أنه جدير بالاسم؛ إذ شق طريقه إلى العرش سابحًا في بحر من دماء آل عثمان، شأن كل جبار لا يحترم المودة، ولا يقدِّس صلة الدم. أجبر أباه - وهو شيخ ضعيف هدَّه الحزن على فَقْد خمسة من أبنائه - على التنازل عن العرش، بعد أن حاربه وهزمه، فعل ذلك وكأن الموتى ليسوا إخوته، وكأن الشيخ المحطَّم الحزين بايزيد ليس أباه.

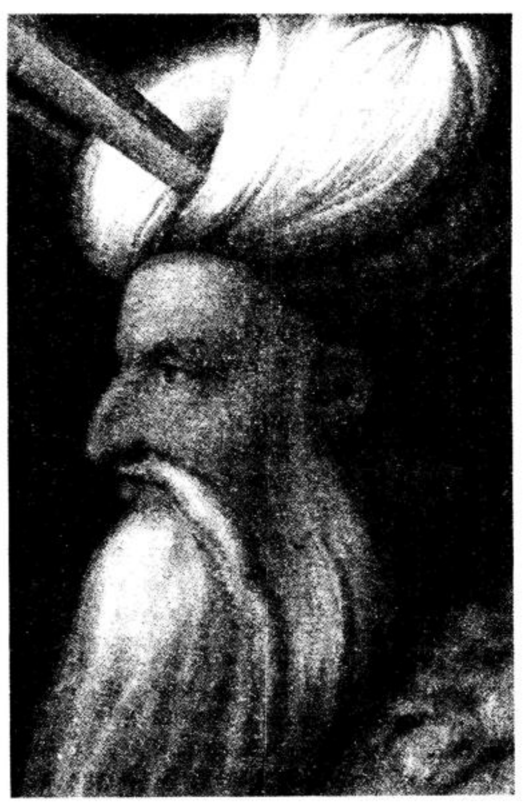
كيف يستهينون بسليم الجبار وهو يحكم سلطنة قوية متسعة الأرجاء في أوروبا، ويسيطر على القسم الأعظم من الأناضول في آسيا، وأحلامه ببناء إمبراطورية واسعة على حساب ما يجاوره من ممالك واضحة لكل ذي عينين؟ فبعد أن ثبَّت أركان حكمه للأناضول،

تقدَّم بجيوشه شمالًا، فضم لإمبراطوريته قسمًا من الدولة الصفوية التي تجاورها في فارس واستولى على عاصمتها تبريز، وهرب الشاه إسماعيل الصفوي إلى داخل بلاده. أوقف سليم فجأة مطاردته للشاه الهارب، واستدارت جيوشه لتزحف نحو السلطنة العربية المملوكية، فتحارب إمارة تركمانية صغيرة تفصل بين تركيا والحدود السورية، هي إمارة ذي القادر.

فهل أوقف الجبار انتصاراته في بلاد الشاه إسماعيل الصفوي، وعاد أدراجه إلى الجنوب، لكي يستولي على تلك الإمارة الصغيرة تافهة الشأن؟



كان الشاعر جزءًا من مقاهي القاهرة في العصر المملوكي، فينشد على الربابة قصصًا ويغني القصائد



السلطان قايتباي الكبير

هذا كلام لا يصدقه إلا الحمقى والمغفلون، وما عاد ابن عثمان أدراجه ليحارب بكل تلك الجيوش إمارة لا تضيف لإمبراطوريته أرضًا ذات بال، مضحيًا بما بقي من الدولة الصفوية، ومتنازلًا عن رقبة إسماعيل الصفوي، وقد أقسم ألا يعود دونها عقابًا له على سوء أدبه في حق بايزيد العظيم، حين ربَّى في قصره خنزيرًا أطلق عليه اسم بايزيد، محقِّرًا بذلك والد سليم.



السلطان بايزيد الثاني

إنه لم يتجه جنوبًا إلا ليحصل على نصر أهم، هو ضم السلطنة العربية المملوكية إلى إمبراطوريته التي يحلم بها.

فهل يستطيع الجيش المملوكي أن يواجه جيش ابن عثمان؟ وكم من الزمن تتطلب تلك المواجهة حتى تنتهي بانتصار أحد الجيشين على الآخر؟ هل تستمر سنوات كما حدث عندما نشبت الحروب بين السلطان بايزيد الثاني - والد سليم - وبين سلطانهم الراحل قايتباي،

والتي استمرت تسع سنوات طويلة شهدت ست حروب، وانتهت بمعاهدة صلح ظلت قائمة ربع قرن؟

فمتى تنشب الحرب؟

وكيف يكون المصير؟

ذلك كله لم يكن واحد من رجال مرج دابق يعرفه؛ لذلك كانوا قلِقين، حتى إنهم لينامون وإحدى أعينهم مغمضة، والأخرى ترصد الطريق في انتظار المجهول.

النجم الأخير

في وقت متأخر من ليلة الأحد ٢٥ رجب سنة ٩٢٢هـ (٢٣ أغسطس/آب سنة ١٥١٧م)، خرج السلطان قانصوه الغوري من الخيمة الكبيرة التي اتخذها مقرًّا لقيادته في مرج دابق، ومضى يتحرك في أنحاء المعسكر الواسع، وخلفه عدد قليل من حراسه، والمكان مزدحم بالخيول والدواب وأدوات الحرب، من مكاحل وسيوف وفؤوس ودروع، بينما قلعة حلب الضخمة شاهقة البناء على تلٍّ مرتفع عند الأفق. ووقف السلطان على أحد تلال مرج دابق المنخفضة، بقامته الطويلة، ووجهه الأبيض المستدير ذي اللحية السوداء التي لم يظهر بها سوى قليل من الشعرات البيضاء رغم أنه كان قد تجاوز الخامسة والسبعين من عمره.

لا أحد يدري فيمَ كان السلطان يفكر في موقفه ذاك على تلال مرج دابق!

هل كان يحاول أن يرى المستقبل بعينيه الواسعتين اللتين لا تحدهما أجفان، أم كان يبحث عن إجابة لمئات من علامات الاستفهام ملأت رأسه وزحمت عقله؟

هل تكون معركة الغد نهاية سلطنته التي استمرت خمسة عشر عامًا طويلة، رأى فيها ما لا عين رأت من العز والعظمة والمجد: يتنزه ويتمتع ويبني ويشيد، ويسمع الشعر والغناء، ويناقش العلماء في التاريخ والفقه، ويصيد الغزلان والطيور، ويمرح على سطح الخليج، وفي جزيرة بولاق، وفي قبة الأمير يشبك، يلعب مع الأمراء بالسيف والرمح والنشاب، وتمتد الموائد وعليها أشهى طعام وأحلى شراب، وحولها أجمل الوجوه، وأعذب الألحان، المغنون والمغنيات وضرب الطنبور وعزف العود، تأوُّد الخصر وهز الردف ونفخ الناي وحرارة الخمر، ومواكب العظمة تشق المدينة، وأمامه الأمراء وكبارهم يحملون المظلة على رأسه، وتُزيَّن له الطرقات والدكاكين، وينثر التجار على موكبه دراهم الذهب، وتطلق له النساء الزغاريد من النوافذ والمشربيات؟

هل تذهب سنوات العز وتغرب شمس دولة المماليك التي عاشت تحكم مصر والشام إلى تلك الليلة مائتين وسبعًا وستين سنة كاملة، فيكون هو سلطانها الثامن والأربعين والأخير؟

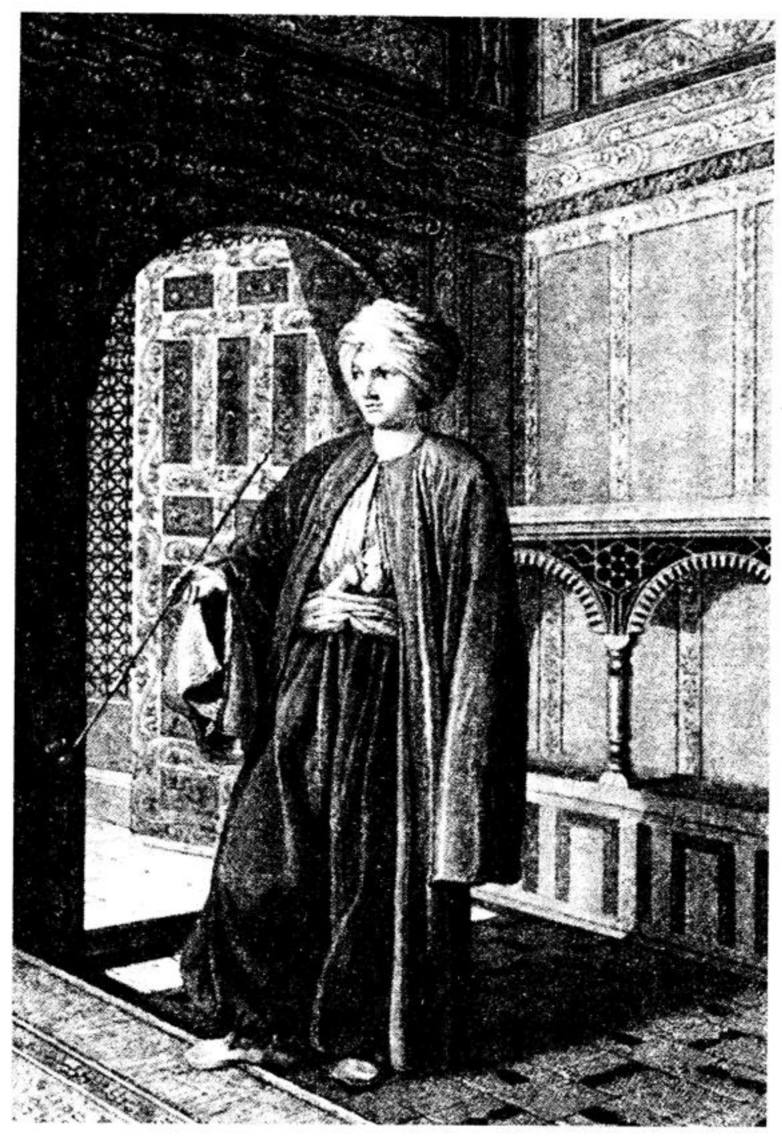
هل آنَ الأوان لينتهي هذا العصر الغريب، الذي بدأ حين ضعف سلاطين الدولة الأيوبية فأكثروا من شراء هؤلاء المماليك، يربونهم على الولاء لهم، ويعلمونهم فنون الحرب والقتال فيتقوون بهم في صراعهم للحفاظ على عروشهم، ويمنحونهم أرفع مناصب الدولة، فانتهى الأمر بأن انتزعوا العرش لأنفسهم، يتداولونه بينهم طبقًا لقانون الحق للأقوى. يأتون من أنحاء المعمورة: من آسيا وتركيا وبعض بلاد أوروبا، يخطفهم النخاسون من مضارب قبائلهم، أو يبيعهم أهلهم لتجار العبيد، فينقلونهم إلى أسواق الرقيق في أنحاء السلطنة العربية

المملوكية، في القاهرة أو في حلب، وفي جدة أو في صفد. يشتريهم السلاطين والأمراء بدنانير معدودة، فيُلحقون الذكور منهم بثكنات عسكرية يتدربون فيها ليكونوا جنودًا مقاتلين، ويُلحقون الفتيات بالقصور ليكنَّ جواري في حريم الأمراء والسلاطين؟

المملوك: ذلك الإنسان الذي لا يعرف لنفسه أمًّا أو أبًا، والنادر منهم من يعرف له وطنًا أو قبيلة، لذلك فأسماؤهم جميعًا مفردة، فإذا نُسب الواحد منهم لم يُنسب لأب، ككل الناس في كل المعمورة وكل التاريخ، ولكنه يُنسب للتاجر الذي باعه، أو للثمن الذي اشتراه به سيده، وقد يمنحه السيد اسمه ينتسب إليه، فإذا عزَّ عليه هذا وذاك انتسب لقرية من قرى مصر أو الشام منحه السلطان إقطاعها. فقلاوون الألفي ثمنه ألف دينار، وجان بردي الغزالي منح له السلطان قرية منية غزالة إقطاعًا، ويَلْبُغا السالمي باعه تاجر الرقيق سالم.

هؤلاء المماليك الذين فتحوا أعينهم على الدنيا وقد خانهم آباؤهم وأمهاتهم فتخلوا عنهم، وحرموهم دفء الأمومة ورعاية الأبوة وظل الوطن، شبوا لا يعرفون لأنفسهم وطنًا إلا أنفسهم، ولا يعرفون لأنفسهم أسرة إلا أنفسهم، ولا يدري أحدهم أين يُدفن إذا مات؛ لذلك عبدوا السيف والطِّبر والنشاب. بتلك الأسلحة، ينتزعون حقوقهم أحيانًا، ويجورون بها على حقوق الآخرين في أغلب الأحيان. لا يُخلصون لعهد، ولا يحافظون على وعد.

دولة المماليك العجيبة التي بدأت بالخيانة، حين ردوا جميل سادتهم من بني أيوب بالانقلاب عليهم والاستيلاء على عروشهم، فما إن مات الملك الصالح نجم الدين أيوب، آخر ملوك بني أيوب،



المملوك في زيه التقليدي يقوم على خدمة سيده

حتى تآمرت أرملته شجرة الدُّر مع كبير مماليكه عز الدين أيبك، فقتلا خليفته وابنه الملك المعظم توران شاه، وظلت جثته على شاطئ النيل تتناهبها جوارح الطيور، رمزًا على وفاء الجارية التي صنع منها نجم الدين ملكة، ودليلًا على إخلاص المملوك الذي وثق به وقربه وصنع منه أميرًا.

وهكذا لحق توران شاه بأبيه بعد أقل من ثلاثة أشهر، يشكو ما لقيه من غدر زوجة الأب وخيانة التابع، بينما صعدت الجهة الصالحية، ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدِّين، ذات الحجاب الجميل والستر الجليل، الملكة شجرة الدُّر، إلى عرش السلطنة العربية. لكن خليفة المسلمين في بغداد حرمها أن تتمتع بثمار خيانتها، حين أبى أن تتولى امرأة حكم مصر، فتنازلت عن العرش لشريكها في الخيانة عز الدين أيبك، وتزوجته!

وكان لا بد أن يهدم الغدر ما بنته الخيانة!

أصرت شجرة الدُّر على أن يُطلِّق أيبك زوجته الأولى وأم ولده، ففعل، لكنه كان يخطط خفية لكي يرث ابنه من مطلقته العرش بعده، وكانت شجرة الدُّر عقيمًا لا تلد. وحين نشب الخلاف بين الشريكين على شؤون الحكم، واجه أيبك المرأة التي كانت زوجة لسيده، فوجدها امرأة صعبة الخلق، قوية البأس، سكرانة من خمرة العُجب والتيه.

وعشش الخوف والحذر في قصر الزوجين اللذين تقاسما التآمر والعرش والمصير، فأصبح كلٌّ منهما يلقى الآخر وهو متوجس منه، فهو يعرفه كما يعرف نفسه، فعاشا معًا كما يعيش كل زوجين؛ يتبادلان الحديث والعواطف والأحلام وفي قلب كلٍّ منهما غدر ينتهز الفرصة وخيانة تخفيها ابتسامات مزيفة!

وقرر أيبك أن يبتعد عن شجرة الدُّر، وترك قصر السلطنة بالقلعة، ونزل إلى مناظر اللوق، يتنزه ويسري عن نفسه. وتحايلت شجرة الدُّر عليه، فبعثت تسترضيه وتطلب عفوه. وصعد الرجل إلى القلعة، فاحتفت به حفاوة بالغة، ولم يكد يدخل الحمَّام في الليل، حتى انقض عليه خمسة رجال أشداء من أتباعها فقتلوه.

زعمت شجرة الدُّر أن أيبك مات فجأة أثناء الليل، فلم يصدقها أحد، وانهالت قباقيب ضرتها - مطلَّقة أيبك وأم ابنه - على رأسها فحطمتها، وأمرت بإلقاء جثتها من القلعة لتسقط في خندق تحت سورها، مهشمة الرأس، شبه عارية.

وانتهى أمر ذات الحجاب الجميل والستر الجليل بجثة تطير حولها الجوارح، ويعبث اللصوص بحرمتها، فيسرقون بعض ما زيَّنت به ملابسها الداخلية من حُلي، ولم يبقَ منها سوى أشلاء ممزقة حملوها في قفة ودفنوها.

بالخيانة أسَّس المماليك دولة ندر أن يموت سلطان من سلاطينها على فراشه، أو أن يجد له مدفنًا! تأكل الجوارح جثثهم على شواطئ الترع، أو تصهر الشمس عظامهم في الصحراء، أو تلغ الكلاب في أحشائهم بعد أن يبقر الصخر بطونهم!

دولة عاشت - حتى ذلك التاريخ - ٢٦٧ سنة كاملة، قانونها الوحيد أن البقاء للأقوى، فكل شيء مباح ومستباح، دفاعًا عن النفس أو حماية للعرش أو حفاظًا على الثروة الحرام، لذلك زيَّن المماليك أسوار القاهرة برؤوس القتلى، وزخرفوا أبواب دمشق بأجساد المكبَّلين، ونثروا أشلاء المُوسَّطين أمام أسبلة حلب، وبعثروا بقايا المُخوزَقين في أسواق غزة.

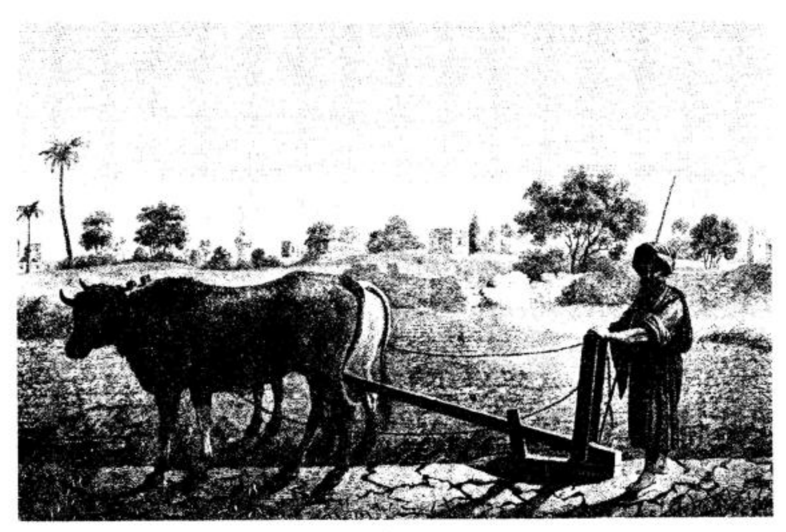
لا يستنكف المملوك الأب أن يقتل ابنه، ولا يخجل المملوك الأخ من الغدر بأخيه!

تتآمر الخوند المملوكية على زوجها، ويتوارثها السلاطين سلطانًا بعد سلطان، يقتل أحدهم زوجها فتتزوجه، ويقتل الزوجَ الجديدَ قاتلٌ جديد فتتزوجه، ويعبر في فراشها موكب من القتلة مخضبي اليد بالدماء، دون أن ترفض يومًا أن تصعد إلى القلعة، أو تبكي يومًا على واحد منهم، فتحفظ ذكراه، أو تتمنَّع على قاتله.

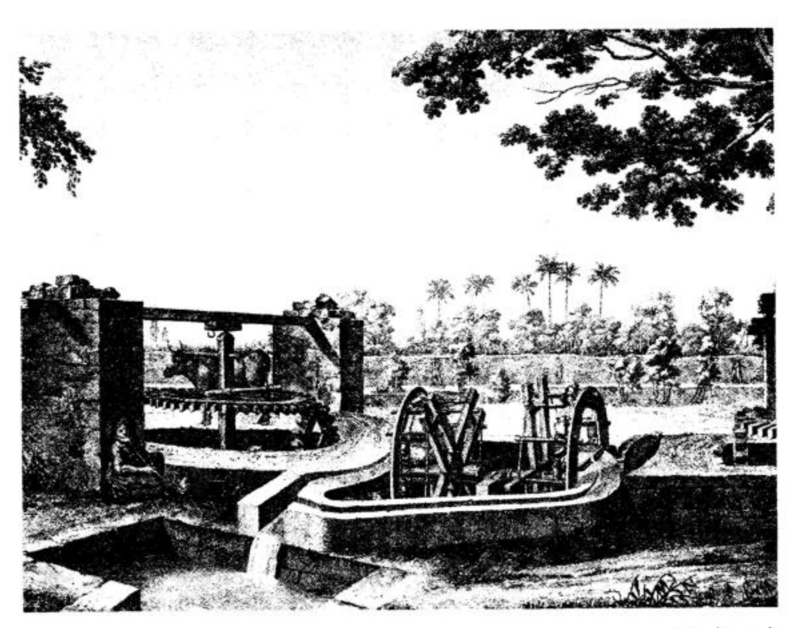
دولة المماليك التي أذاق سلاطينُها العربَ في مصر والشام وجزيرة العرب العذابَ كؤوسًا وأباريق، حين انتزعوا الحكم من أهل البلاد وأصحابها الشرعيين واحتكروه لأنفسهم، فالعرش للمماليك وشؤون الحكم في أيديهم وحدهم؛ ذلك الخليط العجيب من التتر والجركس والأرمن والفرنج، ومن كل فج بعيد.

يفلح العربُ الأرضَ، يروونها بالعرق في البرد القارس والحر اللافح، فتزهر الورود، ويتضوع الجو بشذا السنابل، وتأتي ليالي الحصاد فيخرج العربُ الفلاحون بالمناجل يحصدون ما رووه بعرقهم، يفرحون به، ويغنون له، وهم يعلمون أنهم لن يأكلوا منه، فالقرى توزع إقطاعات على أمراء المماليك، ويستولون على ناتجها،

الزي العسكري للمملوك أثناء الحرب



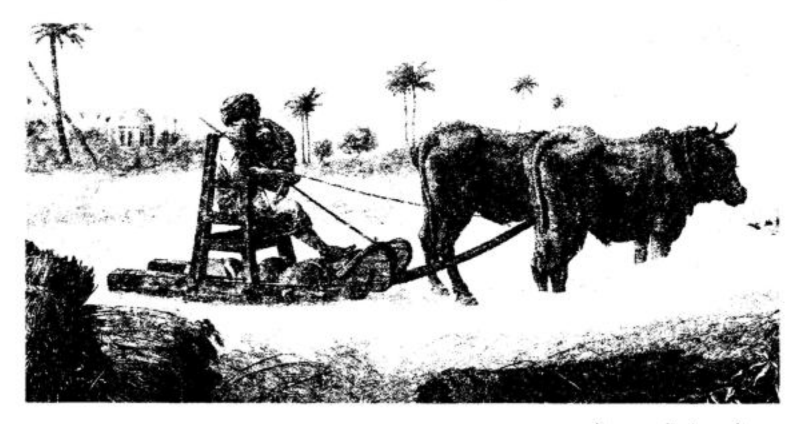
فلاح عربي في العصر المملوكي يستعد لحرث أرضه



الري بالساقية

فلا يتركون للعرب الذين تعبوا وشقوا إلا ما يسد رمقهم، ويخُصون أنفسهم بكل شيء، ينفقون منه على أتباعهم وعلى أنفسهم، ويبددونه على ملاذ نفوسهم بشراهة وسفاهة، فهم لم يتعبوا ولم يعرقوا. وحين يتبدد المال، ينتزعون من الفلاحين القليل الذي يسدون به رمقهم، ويتركونهم يأكلون حشائش الأرض أو جوارح الطير!

ذلك أيضًا كان يحدث في المدن: يتفنن عرب القاهرة، وعرب دمشق، وعرب القدس، في تحويل الحرير والقطن والصوف والكتان إلى منسوجات جميلة، ثابتة الألوان، متينة النسج، ويصنعون من النحاس الثُّريات والأواني المنزلية والأباريق والطشوت والصحون، أو يغطون بزخارفه أبواب المساجد والقصور، يلونون الزجاج والخزف، ويزخرفون الخشب، ويصنعون من الجلد سروجًا، ويحولون القصب إلى سكر، والمعادن إلى سلاح، لكنهم كانوا - شأنهم في ذلك شأن الفلاحين - يعملون كثيرًا ويأكلون قليلًا، فالضرائب والمغارم والمصادرات تريق عرقهم وتبدد ثماره.



بعد الحصاد الدرس بالنورج



السقَّاء يحمل مياه الشرب إلى المنازل في قِربة من جلد الماعز

على القمة كان المماليك يعيشون، طبقة مغلقة على نفسها، تحتقر أهل البلاد، وتتعالى عليهم، فلا تزوجهم منها ولا تتزوج منهم، ولا تتقن لغتهم، تحتكر لنفسها صناعة الحرب. فالمماليك هم الجنود، وهم وحدهم الذين يحملون السلاح، لذلك منحوا أنفسهم الإقطاعات، ثمنًا لتفرغهم لصنعة الحرب، ونزعوا سلاح أهل البلاد، وحرَّموا عليهم أن يكونوا جنودًا.



الغزل اليدوي

تخصَّص المماليك في أمر الحرب والضرب، وتركوا لأهل البلاد إحياء موات الأرض.

يحرث أهل البلاد ويبذرون ويحصدون، ويُخَرِّب المماليك ويدمرون ويسطون.

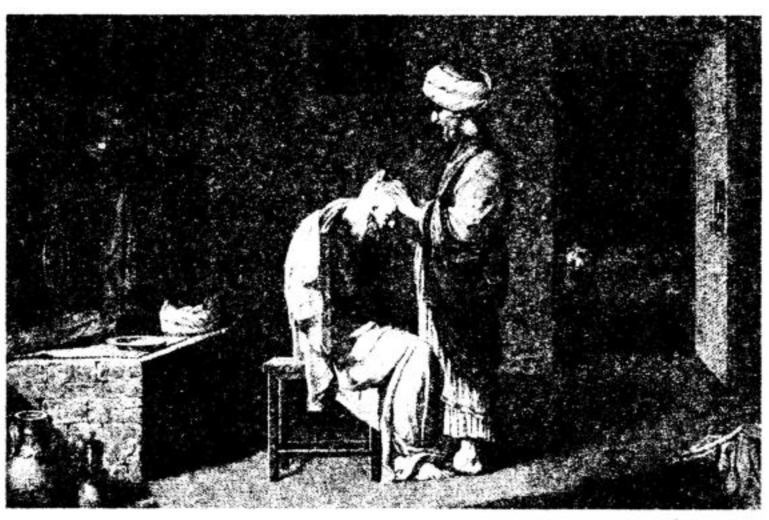
يبني أهل البلاد القصور والمعابد والمدارس والمساجد والخوانق والترب، ويغزو المماليك ويكرون ويدافعون.

يحترف أهل البلاد تكفيت النحاس وتذهيب الخشب ونقش القباب، ويتخصَّص المماليك في القتل والنهب والسلب.

قليل من العرب أهل البلاد مَن قرَّبهم سلاطين المماليك إليهم، فمنحوهم بعض المناصب، فضربوا بسيف من منحوهم مناصبهم، واشتركوا معهم في تعذيب أهل البلاد، ونهبوهم كما ينهبهم المماليك!

وحتى التجار الذين ازدهرت تجارتهم ونمت ثروتهم، أضاع السلاطين ما حققوه بالمصادرات والمغارم.

وفي السفح يعيش الباقون: سُوقة وسقاؤون ومكارون ومعدمون، عوام وحرافيش وزعر، لا مأوى لهم سوى الطرقات يهيمون فيها بأجسادهم شبه العارية يشحذون، فإذا ضاقت بهم الدنيا نهبوا وسرقوا وخربوا.



حانوت حلّاق في العصر المملوكي

فهل تكون معركة الغد هي النهاية؟

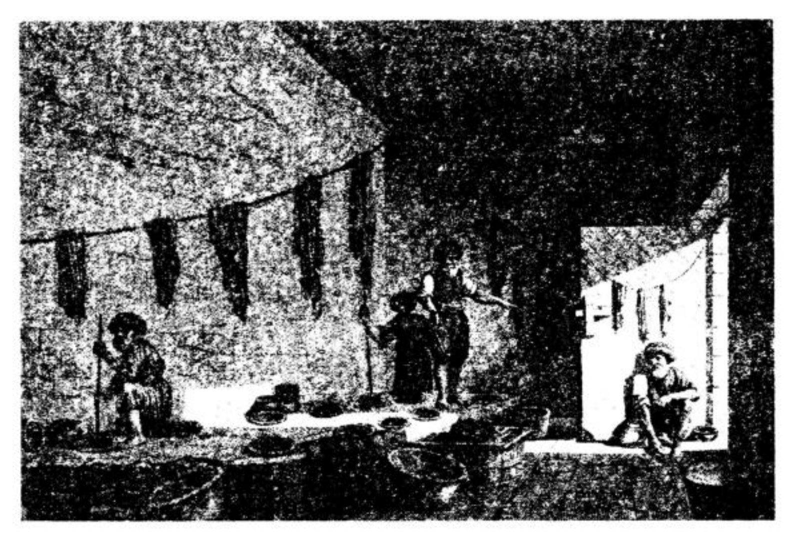
هل تأفل شمس دولة المماليك؟

هل يكون قانصوه الغوري آخر نجومها التي تهوي؟

هل تنتهي سنوات العز التي شهدها، وفصول المتاعب التي عاناها خمسة عشر عامًا مريرة؟



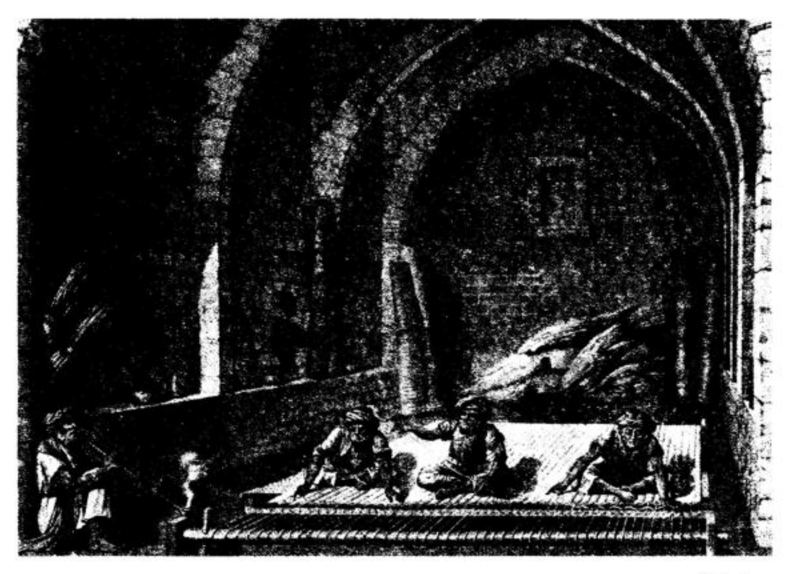
مكاري (حمَّار)



صباغة الملابس



صناعة القفف



صناعة الحصير



صناعة الفخار

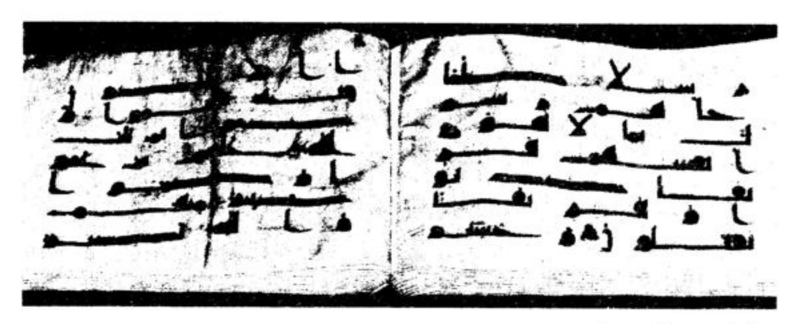


مبيض النحاس

قلبي خائف منك يا أمير!

خمسة عشر عامًا طويلة، وهو يعيش مفتوح العينين عن آخرهما، لا يغمض له جفن، ولا يهدأ له بال. وكيف يهدأ وهو يتوقع كل لحظة أن يثب عليه الأمراء، فينزعوه عن العرش، وترتفع سيوفهم لتمزق جسده وتريق دمه، دون أن يخفق قلب أحدهم بذكريات الصبا التي جمعتهم في ثكنات القلعة، يلعبون ويمرحون ويتعلمون فنون القتال؟

ولن يكون هؤلاء الذين عرفهم، في واحدة من الوظائف العديدة التي تولاها، أشد إخلاصًا له من زملائه الذين شبوا معه، فهو يعرف كم كادوا له، وتآمروا عليه، وطمعوا في مناصبه ومخصصاته.



صفحات من المصحف

رحلة عُمرٍ طويلة أكدت له أن الذين رأسهم لن يكونوا أخلص ممن زاملهم، ولن يتردد هؤلاء وأولئك لحظة واحدة في الغدر به إذا سنحت لهم فرصة دانية، فهل تكون حربه مع ابن عثمان هي تلك الفرصة؟

نعم، إنهم أقسموا له يوم صعد إلى العرش مُتمنعًا ألا يخونوه أو يغدروا به أو يتآمروا عليه، وأقسم هو الآخر - على نفس المصحف الذي جمعه الخليفة عثمان رضي الله عنه - على ألا يغدر بهم أو يتآمر عليهم، ورفع الجميع أكُفَّهم إلى السماء ودعوا الله أن يُخوِّن الخائن!

لكن، متى كان لمملوك قسم؟

ما أكثر ما أقسم المماليك فحنثوا، وما أكثر ما استؤمنوا فخانوا، ولولا حنثهم بالقسم وخيانتهم للأمانة ما تعاقب على عرش السلطنة بعد وفاة الأشرف قايتباي الكبير - الذي استقر على العرش نحو ثلاثين عامًا - ستة سلاطين في أقل من ست سنوات، حكم بعضهم شهورًا، ولم يتجاوز حكم الآخرين عامين، وانتهى أمرهم جميعًا بالقتل أو بالسجن أو بالفرار في زي النساء.

وهل نسي أحد كيف قُتل السلطان الناصر محمد ابن أستاذهم الملك الأشرف قايتباي، أو يجهل أحد من قتله؟!

كان ذلك في الخامس عشر من ربيع الأول سنة ٩٠٤هـ (١٤٩٨م)، وكان الناصر قد أمضى الأيام الثلاثة السابقة على هذا التاريخ يمرح ويلهو في الجيزة، حتى خرج عن الحد في اللهو والخلاعة، فانشرح ومد هناك أسمطة حافلة وحلوى وفاكهة وغير ذلك، وشاهد خيال الظل وسمع الغناء، ونثر النقود على أتباعه وحاشيته، كأنه كان يعلم أنها أيامه الأخيرة. وحين انتصف الشهر، ذكَّرته حاشيته بأن الموعد

المحدد لصرف مرتبات المماليك قد أزف، وأشاروا عليه بالعودة للقلعة حتى لا يثور المماليك كعادتهم حين يتأخر صرف مرتباتهم الشهرية التي تعرف بـ«الجامكيَّة»، فأذن لهم الناصر أن يعبروا النيل أمامه في طريقهم من الجيزة للقلعة، وتبعهم مع عدد قليل من خاصته. وكان الأمير طومان باي الأول يُعسكر في الطريق بين الجيزة والقاهرة، فخرج ليحيي موكب السلطان، وألح عليه أن يشرِّف المعسكر بالزيارة، ولكن الناصر اعتذر بضرورة العودة إلى القاهرة قبل المساء، ثم قَبِل - بعد إلحاح - أن يأكل قصعة لبن قدَّمها له طومان الأول الذي أمسك بلجام فرسه وهو يأكل، وفجأة خرج خمسون مملوكًا من خيمة قريبة، أحاطوا بالناصر وانهالوا عليه بسيوفهم.

أيكون الغوري أعز على الأمراء من ابن أستاذهم الذي لم يجسر أحد على معاقبة قاتله؟ فكل الناس في مصر والشام كانوا يعرفون أن قاتل الناصر الحقيقي هو خاله الأمير قانصوه. فلولا سكوته وتشجيعه الضمني، ما تجاسر طومان على قتل السلطان، لكن الخيانة أنهت حياة قايتباي الابن دون ضجة، وصعد الخال المتواطئ الملك الظاهر أبو سعيد قانصوه إلى العرش ويداه مخضبتان بدم ابن أخته، وكان أول ما فعله أن رقَّى شريكه طومان الأول إلى رتبة الدوادار الكبير.

عامان فقط قضاهما قانصوه الخال سلطانًا على مصر، لم يحكم خلالهما كملك، ولم يتسلطن كما كان يريد، إذ

زخارف على القيشاني الملون
تحمل اسم السلطان قايتباي

قبض الدوادار الكبير على الأمر بيد من حديد، ولم يترك للسلطان من أمور السلطنة شيئًا يؤديه، فضاق به، وأخذ يتآمر عليه، وملأت الشائعات المجالس بأن السلطان ينوي الغدر بالأمير الذي حمله إلى العرش.

قرر طومان باي الأول أن يتغدى بالسلطان قبل أن يتعشى به، فحرَّض بقية الأمراء وقادهم في حملة حاصرت القلعة، وبعد ثلاثة أيام من الحصار، هرب الملك الظاهر أبو سعيد قانصوه من القلعة بعد أن تنكر في زي النساء، وظل هاربًا أربعة وعشرين يومًا، إلى أن قُبض عليه فسُجن في برج الإسكندرية.

فأي مصير ينتظرك يا قانصوه الغوري؟ هل تُسجن ثم تُخنق في زنزانتك ذات ليلة مظلمة وأنت مقيد إلى الحائط بسلاسل غليظة كما حدث للملك الأشرف جان بلاط الذي خلف قانصوه الخال؟

كان جان بلاط - ككل أسلافه - غليظ القلب، عسوفًا ظالمًا، تولى العرش لأنه كان يتقدم على طومان في سلك الإمارة، وما كاد يستقر عليه حتى اعترف بجميل طومان عليه، فمنحه أرفع مناصب السلطنة، وجمع بين يديه ستة مناصب رفيعة الشأن.

وكان محتمًا أن تهدم الخيانة ما بناه الغدر!

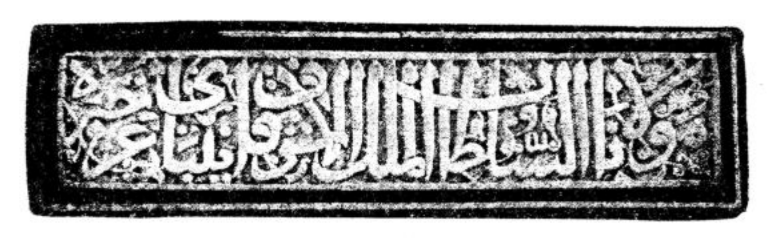
تنور (ثريا أو نجفة) من النحاس، يُضاء بقناديل من الزجاج تُملأ زيتًا، وتُعلق الثريا في وسط السقف بالقصر المملوكي أو المسجد، وهذه الثريا تحمل اسم السلطان قايتباي الكبير

بعد قليل من سلطنة جان بلاط، أعلن الأمير قاصروه نائب دمشق العصيان، ورفض أن يدخل في طاعة السلطان الجديد، ولم يُقبِّل الأرض لرسول السلطان.

هوَّن طومان باي من عصيان قاصروه، فتراخى السلطان في التصدي له، حتى اتسع نطاقه، فنصب قاصروه نفسه سلطانًا على الشام. واضطربت الأحوال في شتى أنحاء السلطنة، وامتنع ورود القماش والفاكهة وغير ذلك من السلع التي كانت الشام تصدرها لبقية بلاد السلطنة. وكانت تلك هي اللحظة التي ينتظرها طومان باي، فأسرع يقترح على السلطان أن يسمح له بقيادة حملة عسكرية لتأديب قاصروه.

خرج طومان باي من القاهرة على رأس جيش يضم ألفي مملوك وأحد عشر أميرًا، ومع أن جان بلاط بذل كل وسيلة لاسترضاء طومان باي والحفاظ على ولائه، حتى إنه نزل بنفسه لتوديع الحملة، إلا إن الحملة ما كادت تصل إلى الشام حتى حدثت الكارثة.

وصلت الحملة إلى قرية سَعْسَع القريبة من دمشق، فتقدم نائب الشام العاصي في عدد قليل من عسكره، وقال إن لديه كلامًا يريد أن يقوله لزملائه، ولهم بعد ذلك أن يقرروا ما يشاءون. وحين التقى الجمع



حفر على الخشب باسم «مولانا السلطان الأشرف قايتباي»

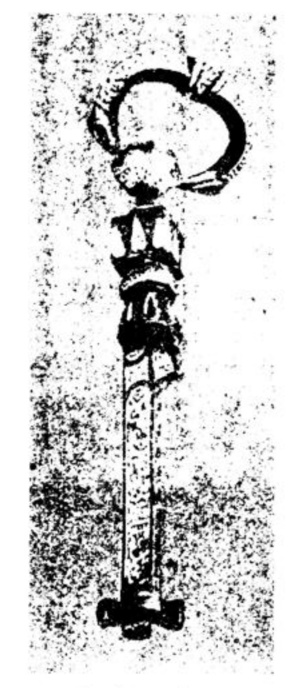
في قلعة دمشق، تحدث قاصروه عن مظالم جان بلاط وضعفه وفساد حكمه، وهوان الدولة على يديه، وأعلن أنه ليس عاصيًا، ولكنه يرى أن هناك من الأمراء من هو أحق بالعرش من جان بلاط، وأصلح له.

وتحدث طومان، فكشف عن وجهه، فإذا بالأمر كله قد تم بالاتفاق معه: تمرُّد قاصروه، وتهوين الدوادار الكبير من هذا التمرد حتى اتسع، ثم خروجه على رأس حملة عسكرية، لا ليؤدبه ولكن لينضم إليه، فيكون هو السلطان، ويكون قاصروه الدوادار، أما جان بلاط فقد ذهبت أيامه، ودالت دولته.

وقد كان.

أعلن الملك العادل أبو النصر طومان باي الأول نفسه سلطانًا على دمشق، وقَبَّل الأمراء الأرض بين قدميه وعلى رأسهم قاصروه، وسُجن من امتنع منهم عن البيعة في قلعة دمشق، ثم قاد الجميع وعاد إلى القاهرة، ليخلع جان بلاط.

تحولت القاهرة إلى ميدان قتال، وتحصن السلطان جان بلاط في القلعة، فنقل إليها أنصاره وأسلحته. وقاد الأمير قاصروه قوات طومان، وبذل جهده ونشاطه لمناصرة صديقه، فأمر بحفر خمسة خنادق في مناطق مختلفة من القاهرة، وبنى خلف كل خندق سورًا من الحجارة، ليتحصن خلفه الجنود



مفتاح من الحديد المحلى
بالذهب من العصر المملوكي

فيعوقوا الأعداء. وبلغ من حماس قاصروه أنه كان يحمل التراب المتخلف من الحفر على كتفه ليشجع الجنود على العمل.

لكن الأمر لم يتطلب وقتًا طويلًا، واستطاع قاصروه بعد ثلاثة أيام أن يستولي على جزء من القلعة، وبدأ أصدقاء جان بلاط يغافلونه ويهربون منه، فينضمون إلى السلطان الجديد. ثم انتهز أحد الأمراء من أنصاره فرصة دخل فيها إلى دور الحريم في القلعة، فحمل سيفه وترسه، ونزل من القلعة، وأعلن أن جان بلاط قد هرب، فوقع الاضطراب في قواته، واقتحم قاصروه القلعة، وقبض على سيده جان بلاط، فأرسله إلى سجن الإسكندرية، ثم انحنى يستقبل سيده الجديد: الملك العادل طومان باي.

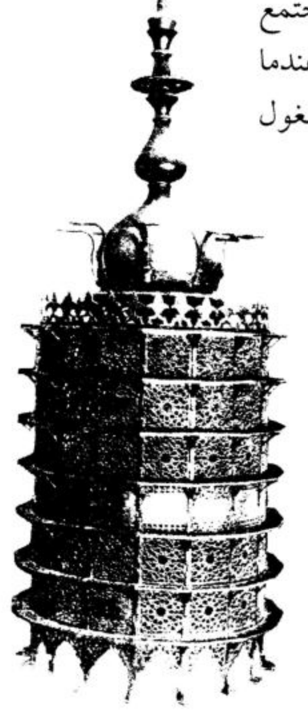
إناء من الزجاج صُنع بمصر أو سوريا في القرن الثالث عشر

وصعد مهندس المؤامرات وصانع العروش إلى القلعة بعد سنوات قضاها يعزل هذا وينصب ذاك، وتقدم أمير المؤمنين الخليفة المتوكل بالله، والقضاة الأربعة، فبايعوه، وقَبَّل الأمراء الأرض بين قدميه، وأقسموا على طاعته والولاء له، وأقسم لهم ألا يخونهم أو يتآمر عليهم، ورفع الجميع أكُفَّهم إلى السماء داعين على الخائن بأن يُخوِّنه الله.

وصدرت الأوامر للتجار في أسواق القاهرة ودمشق وحلب وكل مدن السلطنة بأن يعلِّقوا الزينات، ويوقدوا القناديل، ابتهاجًا بسلطنة الملك العادل، وكثرت حفلات التكريم ومآدب الابتهاج، لا يذهب إليها العادل إلا وفي صحبته صديقه الأثير الأمير قاصروه.

وتعوَّد الرجلان أن يغادرا حفلات التكريم إلى القلعة، فيتسامرا ويتحاورا فلا يفترقا إلا للنوم، فإذا أصبح النهار دبَّرا أمور السلطنة: يوزعان المناصب والأرزاق، ويقابلان السفراء والوزراء.

وفي الليلة السابعة أقام قاصروه أبهج حفلات التتويج وأكثرها بذخًا، جمعت كل الأمراء والأعيان، وأحياها الشعراء والندماء والظرفاء، وعبَّر السلطان خلالها عن شكره لقاصروه وتقديره لمعونته، وتبادل الاثنان الهدايا وكلمات المحبة.



تنور من النحاس من عصر السلطان الغوري

في الليلة الثامنة صعد قاصروه إلى القلعة فاجتمع بالسلطان، وتحدثا في كثير من أمور السلطنة، وعندما لاحظ قاصروه أن صديقه السلطان يبدو مشغول البال، قال له:

- ما الذي يشغلك يا مولانا؟

قال السلطان، بصوت غريب:

- قلبي خائف منك يا أمير!

فهم قاصروه ما يراد به، ومع ذلك قام فصلى العشاء خلف السلطان، وعندما انتهت قاده بعض رجال الحاشية إلى سجن الإسكندرية.

كان اللعب بالعروش هو هواية طومان باي، وقد خشي أن يلعب معه قاصروه اللعبة نفسها التي لعبها هو مع الناصر ومع قانصوه الخال وجان بلاط، لذلك لم يكتفِ بسجن قاصروه في السجن نفسه الذي سجن فيه جان بلاط،

بل أمر بعد أيام بخنق الاثنين ليضع حدًّا للعبة العرش، يستقر بعدها عليه دون منافس أو شريك.

لكن اللعبة استمرت برغمه، فقد ظل رأس قاصروه المخنوق يلوح للأمراء ويستثير مخاوفهم من السلطان الجديد، برغم المناصب التي وزعها عليهم، والقسم المغلظ الذي أقسمه لهم.

ويومًا بعد آخر، تراكمت الشكوك بين الطرفين، ونفى السلطان عددًا من كبار الأمراء إلى مكة والشام، ونفى بعض صغارهم إلى مدينة قوص بصعيد مصر، فهربوا في الطريق، وعادوا إلى القاهرة.

اضطرب السلطان عندما هرب الأمراء المنفيون أثناء الطريق، فأمر باقتحام أبواب الحارات والبيوت في ظلام الليل بحثًا عنهم. وضاق المماليك باقتحام بيوتهم وإقلاق حريمهم، وانتشرت الشائعات والشكوك، وتهاون بقية الأمراء في البحث عن زملائهم الهاربين، فاندفع السلطان يفتش ويقبض وينفي.

وفي ليلة القَدْر من عام ٩٠٦هـ (أبريل/ نيسان ١٥٠٠م) حدَّد القَدَر مصير طومان باي الأول. ليلتها أرسل السلطان إلى دواداره الكبير الأمير قانصوه الغوري، وإلى أمير السلاح قايت الرجبي، يدعوهما لحضور الاحتفال بـ«ختم صحيح البخاري» في القلعة، فرفض الاثنان واختفيا، وامتلأت القاهرة بشائعات تؤكد أن السلطان سينتهز فرصة صلاة عيد الفطر، فيقبض على عدد من الأمراء.

وفي ليلة العيد، ظهر الدوادار وأمير السلاح، وظهر معهما الأمير جان بردي الغزالي، وكان مختفيًا بعد هربه من منفاه في قوص، والأمير مصر باي، وانضم للأربعة أمراء آخرون، وحاصروا القلعة، وفرَّ من

كان مع السلطان في القلعة من الأمراء، فلما وجد العادل طومان باي نفسه وحيدًا، فرَّ تحت ظلام الليل، ونهب المتمردون القلعة.



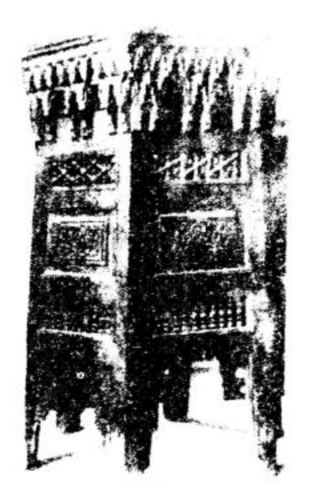
شمعدان من النحاس عليه اسم السلطان قايتباي

وجاء عيد الفطر - في صباح اليوم التالي - والسلطنة بلا سلطان. واجتمع الأمراء يتناقشون فيمن يختارونه سلطانًا، والكل يأبى ويرفض ويتهرب من العرش، ويحيله على الآخرين، فالطريق إليه مُلطَّخ بالدم، والصعود إلى القلعة أصبح صعودًا إلى القبر.

طالت المناقشة، فحسمها الأميران قايت الرجبي ومصر باي، وتزعما الدعوة لاختيار الغوري سلطانًا، وانقضا عليه فجأة حيث كان يجلس وقالا:

- ما نُسلطِن إلا هذا!

وسحب الاثنان الغوري إلى صدر المجلس وهو يبكي ويتمنع، لكنهما أصرا على توليته العرش، ووافقهما على ذلك بقية الأمراء، فقد كانوا يظنونه لين العريكة سهل الإزالة في أي وقت، فأرسلوا إلى الخليفة والقضاة الأربعة، فلما تكامل المجلس، كتبوا محضرًا بخلع العادل



كرسي من الخشب

طومان باي شهد فيه جماعة كثيرة من الناس بأنه ظالم وعسوف وسفَّاك للدماء، وبايعوا الغوري سلطانًا، وألبسوه شعار السلطنة، وهو الجبة والعمامة السوداء، وقدَّموا إليه حصانًا بسرج من الذهب، فركبه صاعدًا إلى القلعة، وقايت الرجبي يحمل القُبَّة على رأسه، حتى دخل من باب القصر الكبير وجلس على سرير المُلك، وقبَّل الأمراء الأرض بين يديه، وكان أولهم مصر باي، ثم تلاه قايت الرجبي والآخرون.

وقال لهم الغوري:

- لقد قبلت العرش بشرط ألا تقتلوني، بل إذا أردتم خلعي وافقتكم.

مشكاة من الزجاج محلاة باسم الملك الظاهر أبو سعيد قانصوه

وجاء مصحف الخليفة عثمان بن عفان، فأقسم الأمراء جميعًا ألا يخونوه أو يتآمروا عليه، وأقسم السلطان ألا يغدر بهم أو ينسى جميلهم عليه، ورفع الجميع أكُفَّهم إلى السماء، فدعوا على الخائن أن يُخوِّنه الله.

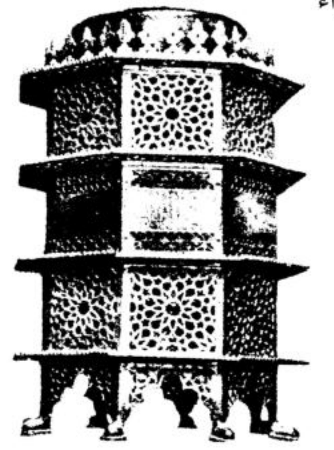
ظل العادل طومان باي مختفيًا عدة أسابيع، كان يكتب أثناءها خطابات للأمراء، ويحرض المماليك على العصيان، ويعدُهم بأن يمنح كلًّا منهم مائتي دينار نفقة البيعة إذا أعادوه إلى العرش.

وحين علم الأمير مصر باي أن السلطان الهارب يجتمع باثنين من الأمراء، أرسل لهما، ووعد كلًّا منهما بأن يُرقى إلى درجة مقدم ألف إذا سلَّماه رأس طومان باي.

استدرج الاثنان صديقهما طومان باي إلى منزل يقع خلف بيت الأمير مصر باي، وبينما كان يستمتع بالعشاء الفاخر، ويتباحث معهما في خطته للعودة إلى العرش، هجم عليه الأمير مصر باي وجنوده، فحاول الهرب، وتسلق حائطًا من حوائط الدار، لكنه وقع على فخذه، فانكسرت نصفين، فأدركه مماليك السلطان الراحل جان بلاط بسيوفهم، ومثَّلوا بجثته كما مثَّل بجثة أستاذهم.

دفع طومان باي ثمن قتله للناصر، وخيانته للظاهر، وغدره بجان بلاط وقاصروه، فقطع المماليك رأسه، وذهبوا به إلى دار الأمير مصر باي، فوضعه في طبق من النحاس، وأخرجه من بيته والمنادون يصيحون أمامه: «هذا جزاء من يسفك الدماء ويقتل الأمراء بغير حق».

بذلك اليوم بدأت هموم الغوري، تلك التي كان يتأملها فصلًا بعد آخر، وهو يتجول بين تلال مرج دابق، وفوقه المحاق!



تنور من النحاس محلى باسم السلطان الملك العادل طومان باي الأول

مؤامرة في حلب

سنوات طويلة مرت منذ ذلك الحين، استطاع الغوري خلالها أن يستخدم مكره ودهاءه في ترسيخ قوائم عرشه، وكان قد تولى الملك بعد أن تجاوز الخمسين، عرك الدنيا وعركته، وعاين عن قرب المؤامرات والدسائس، وخبر نفوس الناس، عرف الأقوياء فأحسن مصانعتهم، وعرف الضعفاء فاشتد في استذلالهم، فلم يَلِنْ حيث يجب أن يقسو، ولم يشتد حين كان يجب أن يساوم.

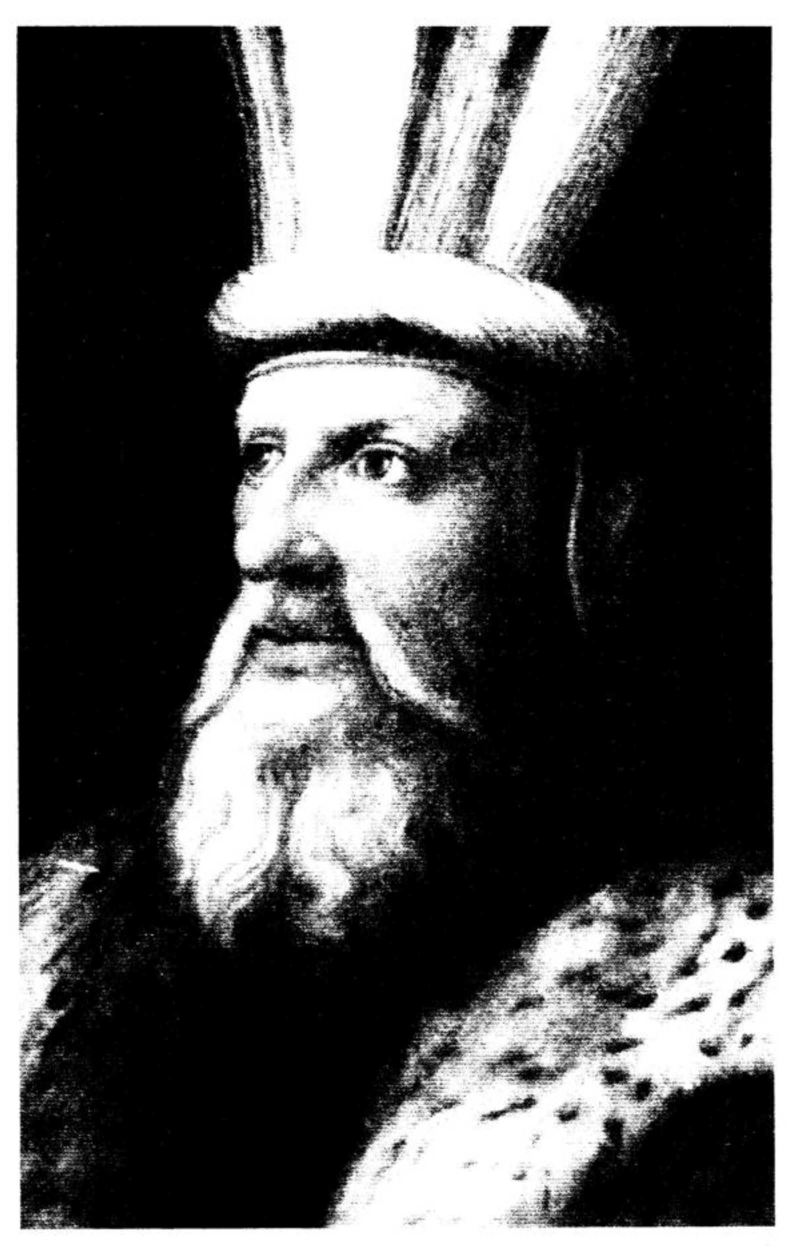
كان عليه أن يتخلص أولًا من الرجلين اللذين قاداه إلى العرش، فهكذا كان القانون المملوكي يقضي، وذلك ما لم يفعله قانصوه الخال، وما عجز عنه جان بلاط، ولو فعلاه لما طارا عن العرش.

بعد ثلاثة أشهر فقط من صعود الغوري إلى العرش، بدأ نجم مصر باي في الأفول، إذ استقر رأي كبار الأمراء على القبض عليه لخطورته عليهم، فانتهز السلطان فرصة صعد فيها الدوادار الكبير إلى القلعة، فأمر بالقبض عليه، ونُقل إلى الإسكندرية فسُجن بالبرج، واستطاع أحد مماليكه أن يُهرِّب له مِبردًا داخل شمعة، فبرد به قيوده، ونزل من أعلى سور البرج، فوجد مركبًا في انتظاره، هرب عليه إلى القاهرة.



حشوة من الخشب مزينة بشعار السلطان الغوري على شكل دائرة مقسمة إلى ثلاثة أقسام: في الأول «قانصوه الغوري»، وفي الوسط «عِز لمولانا السلطان الملك الأشرف»، وفي الأسفل «عز نصره»

أثار وصول مصر باي إلى العاصمة واختفاؤه بها القلق في نفوس كبار الأمراء، فأخذوا يفتشون عنه، ويحتالون لكي يدفعوه للظهور، إلى أن دفعه الحُمق إلى الظهور ذات ليلة من رمضان سنة ٩٠٧هـ (أبريل/ نيسان ١٥٠٢م)؛ إذ كمن ومعه عدد قليل من أنصاره في طريق القلعة، حتى نزل كبار الأمراء من وليمة إفطار أقامها لهم السلطان، فهجم مصر باي وجماعته عليهم، ورموهم بالقسي والنشاب، فأصيب بعضهم بجراح خفيفة، واضطربت الأحوال في المدينة، واستعد الأمراء للقتال.



السلطان قانصوه الغوري

وظن مصر باي أن ظهوره سيشجع كثيرين من أنصاره على الانضمام إليه، لكن قليلين هم الذين ظاهروه فيما فعل، فهاجمه الوالي وهُزم هو وجماعته، وسقط مصر باي قتيلًا في المعركة، وحمل الوالي جثته على حصان وصعد به إلى القلعة، فأمر السلطان بدفنه.

سيف السلطان الغوري

وبعد شهرين فقط من صعوده إلى العرش، ثار المماليك على سلطانهم الجديد قانصوه الغوري، وبدأوا يطالبونه بأن يوزع عليهم نفقة البيعة. وعندما تباطأ السلطان في ذلك، لبس المماليك آلة السلاح، وهددوا بالنزول من القلعة إلى المدينة، فأرسل السلطان يطمئنهم بأنه سيوزع عليهم نفقة البيعة في الشهر التالي، لأن الخزائن فارغة، وسوف يحاول أن يجمع بعض المال. وشاع بين الناس أن السلطان سيصادر الأراضي الموقوفة على المساجد والمدارس فيديرها بنفسه، ولا ينفق منها على المساجد والمدارس إلا ما يكفي لإقامة الشعائر الدينية، ليستطيع منح نفقة البيعة للمماليك الثائرين.

وفي أول أيام العام الهجري الجديد صعد القضاة الأربعة ليهنئوا السلطان بعيد الهجرة، فخاطبهم الغوري بصراحة في موضوع الأوقاف، فاعترضوا على تفكيره في إدارتها بنفسه، وعلى قصره الإنفاق منها على إقامة الشعائر الدينية، وأغلظ القاضي الحنبلي القولَ للسلطان، لأن فيما يريد أن يفعله مجافاة للدين الإسلامي، فرد عليه السلطان ساخرًا:

- وإذا ثار المماليك وطلبوا مني نفقة، هل أبعثهم إليك في بيتك؟

اقترح الأمير قايت الرجبي، وكان قد أصبح أتابكًا - أي قائدًا

للجيش - تحصيل ضريبة توازي إيجار عشرة أشهر من كُلٍّ عقار في كل مدن السلطنة، تستوي في ذلك البيوت والربوع والحوانيت والحمَّامات، وحتى المراكب والسواقي والغيطان، فوافق الأمراء على اقتراحه، وصدرت الأوامر بذلك لكل نُواب السلطنة في الإسكندرية ودمياط ودمشق وحلب وغزة وسائر البلاد الشامية والحلبية.

ونادى المنادي في القاهرة بما استقر عليه رأي الأمراء، وطلب من الناس أن يتوجهوا إلى بيوت ثمانية من الأمراء المقدمين، تخصص كل واحد منهم في جمع الضرائب المفروضة على فئة من الفئات، فأصحاب العقارات يتوجهون إلى بيت الدوادار، ومن كان لهم إقطاع من الأرض يتوجهون إلى بيت الأتابكي قايت الرجبي، واختص أمير ثالث بجمع ضريبة من النصارى واليهود...

اضطربت الناس في القاهرة، وضاق بهم الخناق، فلا هم قادرون على دفع تلك الضريبة الباهظة، ولا هم على استعداد لتحمل العذاب في سجن المَقْشَرة الرهيب - الذي بُني في مكان كان يُقشر فيه القمح - أو سجن الوالي، حيث كانوا يُضربون بالسياط، وتُدق المسامير في أجزاء من أجسامهم، ويُكوون بالنار، إلى أن يدفعوا ما عليهم أو يموتوا تحت العقوبة.

وتعطَّل البيع والشراء في أسواق القاهرة، وأغلقت معظم الدكاكين أبوابها، وأخذ الناس يتجمعون في المساجد، فيتحدثون في أمر الضريبة، ويستنزلون اللعنات على الأتابكي قايت الرجبي الذي اقترحها على الغوري وضمن له تنفيذها.

وخشي الأمراء أن يتجمع الناس في صلاة الجمعة، فيُجمعوا

رأيهم على شيء يزيد الاضطراب في المدينة، فأمروا بإغلاق بعض المساجد، ومنعوا الصلاة والخطبة فيها، لكن عددًا كبيرًا من العوام تجمعوا في الطرقات حتى نزل الأتابكي قايت الرجبي من القلعة، بعد أن صلى مع السلطان صلاة الجمعة، فاعترضوا موكبه، وشكوا له ارتفاع الضريبة وسوء الأحوال وقسوة الجباة، فلم يسمع لكلامهم، ولم يهتم بالرد عليهم، فما كاد يستدير، حتى فوجئ بالطوب ينهال عليه من كل مكان فيصيبه، ويصيب من كانوا معه من كبار الأمراء فيسيل الدم من بعضهم. واستمر العوام يقذفون الرجبي ومن كانوا معه، حتى سلَّ المماليك أسيافهم، وطاردوا الناس في كل مكان، فجرحوا بعضهم، وقتلوا ثلاثة. وزادت ثورة الناس، وتجمعوا في شوارع المدينة، وشاع السلب والنهب، ولم يهدأ الحال إلا عندما نزل الوالي إلى الشارع ومعه فرق كثيرة من المماليك. قبضوا على أربعة عشر، أمر الوالي بقتلهم بالسيوف.

وفي اليوم التالي أمر السلطان بتخفيض الضريبة لتصبح إيجار سبعة أشهر بدلًا من عشرة أشهر كما كان مقررًا، فهدأ الحال بعض الشيء في القاهرة، ولكنه لم يهدأ في دمشق.

ضاق أهل دمشق ذرعًا بتصرفات نائبها الأمير قانصوه البرجي، وضجوا من مظالم معاونيه وحاشيته ومن كلفهم بجمع الضريبة، فاجتمع العوام بالمسجد، واتفقوا على التصدي لأي مظلمة تقع من النائب أو مماليكه. وحين دخل أحد رجاله إلى حارة الشاغور في كوكبة من مماليكه ليجبي ضريبة الشهور العشرة، تصدى له الأهالي واشتبكوا معه في معركة وأسروا بعضًا من جنوده، وسرعان ما اتسع التمرد بعد أن سيطر الثوار على أجزاء هامة من المدينة.

أرسل نائب دمشق مندوبًا عنه لكي يفاوض الثوار، فرفضوا الحديث معه، وقالوا له إنهم لن يكفوا عن القتال إلا إذا خفَّض النائب الضرائب، وعزل الفاسدين من أعوانه، ممن يعتدون على الناس.

دعم الثوار سيطرتهم على معظم حارات المدينة، وأقاموا المتاريس على أبوابها، وخرجوا جميعًا بالسلاح، وكلما هاجمهم مماليك النائب، ردوهم على أعقابهم، وجرحوا منهم كثيرين، وقتلوا منهم كثيرين، وارتد الباقون على أعقابهم.

وفشلت محاولة قام بها أحد كبار أعوان النائب للسيطرة على الموقف، حين التف على المدينة، وأراد أن يقتحم إحدى حاراتها الغربية، وفي ظنه أنها خالية، وأن أهلها قد تركوها لينضموا إلى المتاريس التي أقامها الثوار وسط المدينة، ولكنه فوجئ بالثوار يواجهونه فيقتلون من جنوده عددًا كبيرًا، وكاد يقع أسيرًا في أيديهم لولا أنه استطاع الفرار.

استفزت محاولة أنصار قانصوه البرجي الثوار، فقرروا التقدم للهجوم على القلعة، والقبض على النائب وأنصاره، واستمر القتال إلى أن فرَّق الليل بين الفريقين.

وخشي النائب أن يواصل القتال فتكون النتيجة هزيمته أو قتله، فأرسل في نفس الليلة إلى زعماء الثوار مندوبين عنه، أعلنوا استعداده لتنفيذ كل مطالب الثوار. وتصالح الفريقان، ونادى المنادي في شوارع دمشق بتقوى الله وبإبطال المظالم، وأعلن أن النائب قرر تخفيض ضريبة الشهور العشرة لتكون شهرين فقط.



أحد شوارع القاهرة في العصر المملوكي

ومع أن الناس في القاهرة ودمشق نجحوا في إلزام السلطان بأن يخفف الضريبة التي فرضها عليهم، إلا إن الخطة التي رسمها قايت الرجبي مكنت السلطان من امتصاص غضب المماليك، إذ كان ينفق على فريق منهم كلما تجمع لديه بعض المال، ففلَّ بذلك من غضبهم، وحال دون اتحادهم ضده لخلعه أو قتله. وعندما وزَّع النفقة على آخر مجموعة منهم، كان قد مضى على صعود الغوري إلى العرش عامٌ ونصف عام، ثبتت فيها أركان دولته ورسخت قوائم عرشه.

وما كادت مشكلة النفقة تهدأ حتى أثبت قايت الرجبي إخلاصه لعرش الغوري في مكان جديد، وذلك حين اضطربت الأمور حول مكة. فقد ثار الجازاني ابن أميرها، وتمرد هو وأنصاره من عربان بني إبراهيم، فهاجموا قوافل الحُجاج القادمة من مصر ومن الشام، ونهبوا كل ما كان مع الحُجاج من أموال، وردموا الآبار التي يشربون منها فمات كثيرون عطشى. وأخيرًا هجم رجال الجازاني على مكة نفسها، ولعبوا في ساكنيها من المماليك بالسيف، ونهبوا أموال التجار، حتى إن الواحد منهم كان يكتفي بأن يغرس رمحه على باب البيت المملوكي، فيملك كل ما في البيت من قماش أو بضائع، ويخرج المملوك منه بما عليه من ملابس فقط شاكرًا لله أنهم لم يقتلوه.

أزعج تمرد الجازاني السلطان، فعيَّن قايت الرجبي أميرًا للحج في السنة التالية، وأرسل معه حملة تضم ستمائة مملوك. وطارد الرجبي عربان بني إبراهيم حتى أجلاهم عن مكة، ومع أنه فشل في القبض على الجازاني نفسه إلا إنه استطاع أن يأسر إخوته، ودخل بهم القاهرة في موكب كبير، وهم في طليعته مُقيَّدين بالسلاسل الحديدية.



مواطن سوري

إلى هنا كان قايت الرجبي قد فعل كل ما يستطيعه لدعم عرش صديقه قانصوه الغوري، فقاد سفينة العرش وسط الأمواج المتلاطمة، ورسا بها على بر الأمان، ولكنه لم يفعل ذلك إخلاصًا لصداقة، أو حفاظًا على ود، وإنما فعله بمنهج المملوك وبطريقته. وبرغم قسمه على المصحف بألا يخون أو يغدر بالسلطان، وبرغم القسم المضاد الذي بذله السلطان، فقد كان محتمًا أن يأتي الزمن الذي يغدر فيه كلٌّ منهما بالآخر.

عامان كانا قد مرَّا على صعود الغوري إلى العرش، عندما اكتشف بالصدفة المحضة أن أتابك عسكره ورجل دولته القوي قايت الرجبي، ضالع في مؤامرة ضخمة لخلعه والحلول مكانه على العرش.

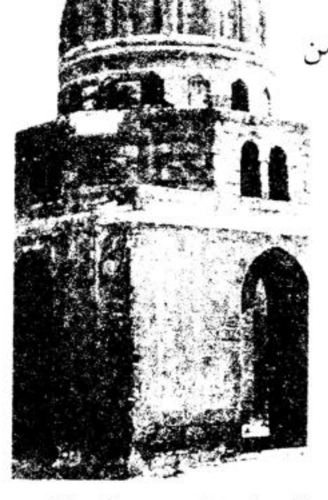
أمسك السلطان بأول خيوط المؤامرة، حين أبلغه بعض جواسيسه أن هناك تحركات واتصالات مريبة يقوم بها القاضي بدر الدين بن مزهر، وكان بدر الدين هو المشرف على ديوان الإنشاء، أي أنه كان - بمصطلحات عصرنا - وزيرًا لخارجية السلطنة.

ولم يكن بدر الدين مملوكًا، لكنه كان من أعيان البلاد الذين تعوَّد بعض السلاطين أن يستعينوا بهم في إدارة الحكم. وبحكم وظيفته تلك، وجد ابن مزهر نفسه قريبًا من لعبة الحكم، فاستطاع أن يصاهر اثنين من السلاطين، فتزوج أخت الملك الظاهر أبي سعيد قانصوه، وزوَّج أخته من السلطان جان بلاط منذ كان أميرًا. ولكن ذلك كله لم يحل دون وضعه في السجن، إذ كان السلاطين يعهدون إليه بجمع بعض الضرائب أو الغرامات من التجار والأهالي، فيتعسف مع الناس ويؤذيهم، إظهارًا لولائه للسلطان وتفانيه في خدمته، وسعيًا للحصول



منظر داخل أحد قصور المماليك

على أكبر قدر من الأموال، يدفع للسلطان جانبًا ضئيلًا منها، ويحتفظ بالباقي لنفسه، لكنه كان ينوء على الناس بثقله فتثيرهم مظالمه، وتوغر صدورهم ضد السلطان، حتى تكاد الفتنة تنشب في البلاد. ولذلك ضج به شقيق زوجته السلطان الملك الظاهر أبو سعيد فأمر بحبسه، وظل معتقلًا حتى طار الظاهر عن العرش، وخلفه الملك الأشرف أبو النصر جان بلاط زوج شقيقته، فأفرج عنه وأعاده إلى وظيفته، لكن ابن مزهر ما لبث أن كرر تصرفاته، فاعتقله جان بلاط وطرده من وظيفته وظلَّ بلا عمل، يدبِّر الخطط ويرسم المؤامرات.

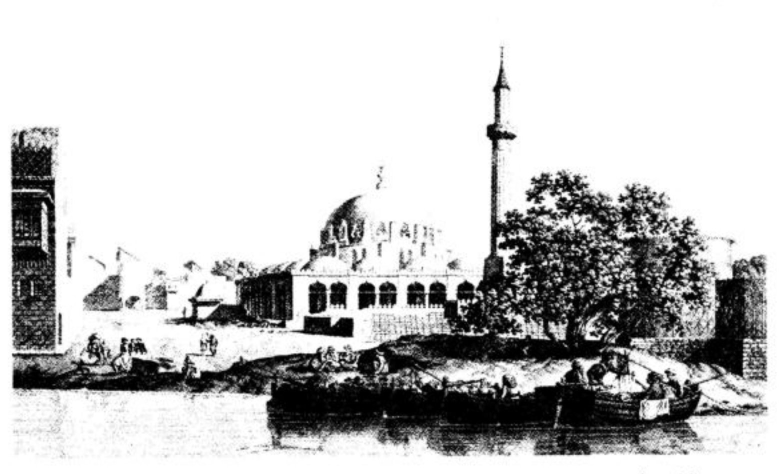


كانت الخانقاه هي بيت الصوفية، يخصص لكلٍّ منهم فيها خلوة، ويلحق بها حمَّام ومطبخ وخزانة للأشربة والأدوية، فتوفر لأهلها الضروريات، وينقطعون فيها للعبادة بعيدًا عن العالم الخارجي

وعندما عرف قانصوه الغوري من جواسيسه أن هناك رسائل سرية يتبادلها القاضي بدر الدين مع الأمير سيباي نائب حلب، ازدادت ريبته في الأمر، فهو لا يثق بسيباي، وينظر إليه كمنافس قوي، فهو من أكابر أمراء دولته، وهو نائب لواحد من أهم بلاد السلطنة، وهو يعرفه منذ تزاملا معًا في ثكنات القلعة، ومنذ أخذا يتدرجان في سلك الإمارة، صحيح أنه أقدم من سيباي في سلك المماليك الذين اشتراهم أستاذهم قايتباي الكبير، ولكن الفرق كان سنوات قليلة لا تكفي لكي تحبط أحلام سيباي في نزع كرسي السلطنة.

ولكي يقطع الغوري الشك باليقين أمر بالقبض على القاضي بدر الدين بن مزهر، فتوجه بعض الجنود إلى بيته ببركة الرطلي، وصعدوا به إلى القلعة، فوبخه السلطان الغوري بالكلام، ثم شكّه في الحديد، وسجنه في سجن العرقانة. وبعد ثلاثة أيام بدأ التحقيق معه بنفسه، وأشرف على تعذيبه، فأمر الجنود بضربه وبطحه، وعصره في أكعابه ورُكبه، ووضع الجنود عصيًا صغيرة بين أصابع قدمي ابن مزهر ثم أشعلوا فيها النيران.

وبينما ابن مزهر يخضع لتحقيق دقيق حول الأوراق التي ضُبطت في منزله - وكان من بينها قائمة بأسماء كبار الأمراء والتجار، وأمام كل اسم أرقام مبالغ نقدية - جاءت الأنباء من الشام بأن مجموعة من أمرائها يتزعمهم سيباي نائب حلب، ودولات باي نائب طرابلس، قد أعلنوا التمرد.



جزيرة بولاق بالقاهرة

شاور السلطان كبار رجال دولته حول التمرد الجديد، وحتى تلك اللحظة لم يكن الشك قد خالجه في رجل دولته القوي قايت الرجبي، فانصرف تفكيره هو والأمراء إلى حصار تمرد سيباي بنقله من منصب نائب حلب إلى منصب كبير في القاهرة.

ولما كان منصب نائب الشام قد خلا قبل فترة لوفاة شاغله، فقد أجرى السلطان حركة تنقلات بين أمراء البلاد الشامية، كان الهدف منها إعادة نائب حلب الأمير سيباي إلى القاهرة، لتكون كل تحركاته تحت نظر السلطان.

رفض سيباي المنصب الجديد واستمر في عصيانه، ولم يعد هناك أمام الغوري - بعد أن تشاور مع الأمراء - إلا أن يُرسل حملة عسكرية لتأديبه يقودها الأتابكي قايت الرجبي بحكم منصبه كقائد للجيش. وقبل أن تتحرك الحملة، كان القاضي ابن مزهر قد انهار تحت وطأة التعذيب، ووقعت في يد السلطان وثائق أخرى حلت لغز ابن مزهر.

اكتشف السلطان أن هناك اتفاقًا بين سيباي أمير حلب، ودولات باي أمير طرابلس، من جانب، وأتابك عسكره قايت الرجبي، وكاتب السر المعزول القاضي بدر الدين بن مزهر، من جانب آخر، على خلعه عن عرشه.

اتفق المتآمرون على أن تكون أولى خطواتهم إعلان التمرد في حلب وطرابلس، وهو ما سيدفع السلطان إلى إرسال حملة لتأديبهم يقودها الأتابكي قايت الرجبي، فإذا ما وصل إلى دمشق، ينضم الرجبي بالقوات التي معه إلى سيباي، ويعود الجميع إلى مصر فيطردون الغوري.

وعرف السلطان أن ابن مزهر كان حلقة الوصل بين المتآمرين، بل إنه هو الذي شجَّع الرجبي للاشتراك في المؤامرة، حتى إنه قال له: «قم وتسلطن ونفقة البيعة عليَّ». فحل له بذلك أعقد المشاكل التي يواجهها أي سلطان جديد، إذ ضمن له جمع المال الذي يدفع منه نفقة البيعة للمماليك، وحين يضمن المماليك نفقة البيعة، فإن بقاء الغوري أو ذهابه ليس بذي بال لديهم.

وكانت الأوراق التي ضُبطت في منزل ابن مزهر تتضمن قوائم بأسماء التجار والأثرياء الذين سيفرض عليهم الغرامات، ومقدار الغرامة التي سيفرضها على كل واحد منهم ليوزع من حصيلتها نفقة البيعة.



مواطن من دمشق

حاصر العصاة دمشق حتى كادت تسقط، وتوجه دولات باي إلى حماة، ونهب مزارعها، واستولى عليها، وقبض على أعيانها، وفر نائبها. وبرغم كل ذلك قرر الغوري أن يضرب ضربته واثقًا أن تصفية قايت الرجبي ستبدد شمل العصاة، فأمر بالقبض على أتابك عسكره، بينما كان واقفًا في فناء القلعة بين الأمراء، ووبخه بالكلام، وواجهه بالرسائل التي أرسلها لسيباي نائب حلب، ولدولات باي نائب طرابلس، وغيرهما من النواب، وصادر السلطان أموال الأتابكي قايت، وكانت تزيد على ستين ألف دينار ذهبي فضلًا عن الخيول والقماش والسلاح.

وبعد شهر من القبض عليه نُفي الرجبي إلى الإسكندرية، وسُجن في برجها، وسقط الرجل القوي الثاني الذي صعد بالغوري إلى العرش ودعم دولته وجمع له أموال البيعة.

خلال الشهور القليلة التي تلت ذلك، قضى الغوري على تمرد نواب الشام، فعزل سيباي عن نيابة حلب، وعيَّن الأمير خاير بيك بن ملباي خلفًا له، ورأى الغوري أن يُرضي سيباي ليضمن ولاءه، فعينه نائبًا لدمشق، لكن سيباي رفض تنفيذ الأمر، فحاصر قلعة حلب، وأرسل أحد أنصاره على رأس عدد قليل من الجنود للاستيلاء على دمشق.

وصل خاير بيك إلى دمشق في نفس اليوم الذي وصلت إليها فيه حملة سيباي الصغيرة، فحاربها وهزمها وقبض على قائدها، وبعد أن اطمأن إلى أحوالها تقدم إلى حلب ليتسلم مهام منصبه كنائب لها.

وأدرك سيباي أن الأمل في انتصاره قليل، خاصة بعد القبض على الرجبي وسجنه، وموت ابن مزهر أثناء التعذيب، فهرب إلى أقصى

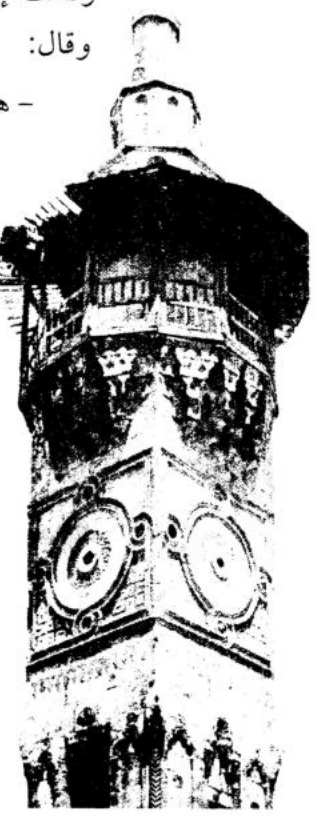
شمالي حلب، وعبَر حدود السلطنة المملوكية إلى إمارة ذي القادر، فاستقبله أميرها علاء الدولة واحتفى به، وأرسل للغوري رسالة يتشفع فيها لسيباي ويطلب العفو عنه، فقبل السلطان وساطة علاء الدولة، وأرسل لنائب حلب المتمرد منديل الأمان.

وعندما وصل سيباي إلى القاهرة، صعد إلى القلعة وتحت إبطه ثوب غير مخيط، وانحنى أمام السلطان، وقال:

- هذا كفني يا مولانا السلطان، جئت به إليك!

قام السلطان، فرفع سيباي إليه، وقَبَّله وعفا عنه وعيَّنه أميرًا للسلاح. ولم يستمر سيباي في منصبه هذا طويلاً، فقد ثار أهل دمشق على نائبهم، فأمر الغوري بعزله، وعيَّن سيباي مكانه. وقبل أن يوقِّع السلطان على قرار تعيينه، أرسل للقضاة الأربعة وللخليفة، فلما تكامل المجلس في القلعة، أقسم سيباي على مصحف الخليفة عثمان رضي الله عنه، بألا يعصي السلطان أو يخونه أو يتآمر عليه.

فهل نسي سيباي قسمه المغلظ؟ هل أغراه بقاؤه كل تلك السنوات نائبًا في الشام على التواطؤ ضده؟



دمشق - مئذنة مملوكية

حتى أنت يا شاد الشّوَن!

هل يحنث سيباي بقسمه المغلظ، ويقطع بقسوة ما بينهما من روابط المصاهرة وعلاقات القربى؟ أينسى جهده ليستجلب رضاءه وهو العاصي، ويحتفظ بولائه وهو المتمرد؟

لم تكن شفاعة الأمير علاء الدولة هي السبب الوحيد لعفو الغوري عن سيباي فقد كان يدرك أن استعداء رجل مثله، غباء لا يليق به، أما وقد تنبه للمؤامرة وواجهها وقضى عليها، فليس من مصلحة العرش أن يزيد عدد الناقمين عليه، أو يكسب عداء الأقوياء من الرجال وسيباي واحد منهم.

ولم يكفَّ الغوري عن التفكير في ضمان تأييد سيباي، فأبقاه نائبًا للشام أكثر من عشر سنوات، وتحيز له عندما أخذ حاجب دمشق يتآمر لكي يحصل على منصبه. ليس هذا فقط، بل سعى الغوري لمصاهرته، وطلبها بنفسه، وألح عليها، برغم أن سيباي لم يتحمس للأمر حماسه له. ولولا أن الضرورات السياسية هي التي دفعت السلطان لكي يخطب ابنة سيباي لابنه الوحيد الناصري محمد، لما تحمل تعاليه ورفضه - أكثر من مرة - للطلب.

قبل ثلاثة أعوام، أرسل الغوري سفيرًا عالي المقام، خرج من القاهرة إلى دمشق، ومعه المهر وتوكيل لعقد قران ابنة سيباي على الناصري محمد بن الغوري، لكن السفير لم يكد يصل إلى غزة حتى علم أن العروس التي جاء لعقد قرانها قد ماتت بالطاعون، وكان منتشرًا في دمشق أيامها.

ظل السفير في غزة، وكتب للسلطان رسالة بما حدث، وأضاف في رسالته أنه علم أن لنائب الشام ابنة أخرى صغيرة تُدعى «فاطمة»، في السابعة من عمرها، فأمره السلطان أن يخطب البنت الصغيرة، ويدفع لها المهر، ويعقد عقد زواجها على ابنه بنفس التوكيل الذي معه.

وفوجئ السفير بنائب الشام يعتذر عن مصاهرة السلطان، قائلًا إن ابنته صغيرة لم تصل بعد إلى سن الزواج، وإن الأمر يمكن أن ينتظر حتى تنضج، آنذاك يمكن التفكير في الموضوع. وتتالت الرسائل بين القاهرة ودمشق وسيباي يُسوِّف، ويخلق الذرائع.

حقق الغوري هدفه أخيرًا، واحتفل بعد عامين بعقد القران، في احتفال متواضع حضره القضاة الأربعة، وسائر الأمراء من الأكابر للأصاغر. وبعد أن صلى صلاة الجمعة في جامع القلعة، خرج السلطان إلى فنائها، حيث تم عقد القران، ووكل سيباي عنه وعن ابنته أحد زملائه الأمراء. وبعد توقيع العقد طافوا على الأعيان بشراب مسكر.

فلماذا تردد سيباي في الإصهار إليه؟ أتراه لا يريد أن يوثق علاقته به لسبب ما؟ وما هو؟ ألا يثق بثبات حكمه ورسوخ عرشه، أم أنه قد نقل ولاءه إلى الجانب الآخر من الحدود؟

هل يخونه سيباي؟ وماذا يمنعه؟ زمالة الصبا في ثكنات القلعة، أم

عملهما معًا في نيابات الشام على عهد أستاذهما قايتباي الكبير، أم صلة المصاهرة التي ربطت بينهما؟

ولكن زمالة الصبا في ثكنات القلعة لم تمنع العادل طومان باي من قتل جان بلاط، وزمالة العمل لم تحل بين مصر باي وبين قتل طومان باي، وصلة الدم لم تمنع قانصوه الخال من الفتك بابن أخته الملك الناصر. وهي بعد لا تزال مصاهرة غير فعلية، فقد اشترط سيباي ألا يتم الزفاف إلا بعد سنوات تنضج خلالها الفتاة.

هل يحفظ سيباي للغوري أنه عفا عنه وقرَّبه، وصعد به إلى مدارج الرقي بدلاً من سجنه في البرج كما فعل بشريكه في التآمر قايت الرجبي، ومن الموت تحت التعذيب كما حدث للقاضي ابن مزهر؟

ولكنه عفا قبل ذلك عن الأمير جاني بيك، ورقَّاه، ومنحه ثقته، فلم يقبل فيه شكوى لسنوات، ومنح ثقته لزوج ابنته، خُشْقَدم، فقرَّبه واختصه بعطفه، فماذا كانت النتيجة؟

أيفعل سيباي نفس ما فعله خُشْقَدم، فيهرب نائب الشام إلى خطوط العثمانيين كما فعل شاد الشَّوَن قبل سنوات؟!

لولا جاني بيك لضاع العرش من الغوري في الأسابيع الأولى لجلوسه عليه. فعندما هرب الملك العادل طومان باي، وكثر البحث عنه والتفتيش، كان الأمير جاني بيك هو الذي قاد إلى مكمنه، ورسم الخطة التي انتهت باستدراجه، وقتله، فاستراح الغوري من الرجل الذي خطط لكل الانقلابات والمؤامرات منذ وفاة أستاذهما قايتباي، وضمن استقرار عرشه.

حفظ الغوري جميل جاني بيك، وكافأه على خيانته لسيده السابق،

فظل يترقى حتى أصبح في سنة ١٥١١م استادارًا، وبحكم منصبه ذاك كان مسؤولًا عن المماليك ودوابهم، وكل ما يتعلق بهم، فهو يشرف على تحصيل الضرائب المخصصة للصرف منها على شؤون المماليك، ويوزع عليهم تلك الضرائب طبقًا للنظام المعمول به في السلطنة.

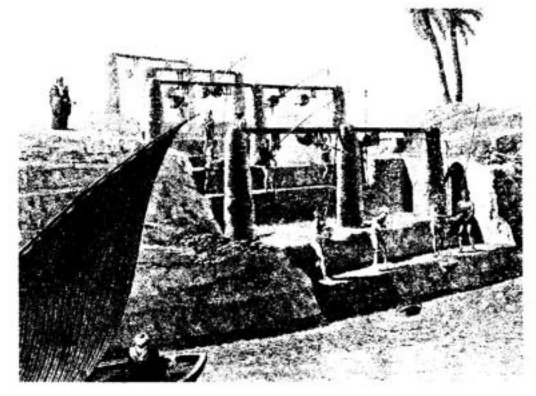
وكان جاني بيك شديد الجشع، ولم يكن قاموس أخلاقه يعترف بالأمانة أو بالإخلاص أو حتى بالحذر، فاندفع يسرق في وضح النهار، واستغل منصبه أسوأ الاستغلال. ففي السنة التالية لتعيينه أمر بتحصيل الضرائب من القرى قبل نضوج المحصول، وتذرَّع بأنه يريد أن يدفع للمماليك المتأخر من رواتبهم، ونزل المكلفون بجمع الضرائب إلى القرى، يكبسون على الفلاحين، ويستخرجون منهم الأموال بالضرب والتعذيب والإهانة، ويقبضون على نسائهم وأطفالهم كرهائن، فهرب الفلاحون من وجوههم، وكادت البلاد تخرب عن آخرها. وتولى جاني بيك بنفسه جمع الضرائب من القاهرة، فجمعها بالعسف والضرب وبالقتل والتعذيب.



ضرب القطن

وبعد عدة أشهر من ذلك، رفع الأمير طومان باي ابن أخي الغوري تقريرًا لعمه يتضمن ما فعله جاني بيك بالناس، وكان أخطر ما في التقرير أن الاستادار جمع الضرائب والمحصول لم يُحصد بعد، ليحتفظ بها لنفسه، وأنه عاد بعد نضوج المحصول فطالبهم بنفس الضرائب مرة أخرى!

كان تقرير طومان باي - دوادار الغوري وابن أخيه - هو نهاية جاني بيك، إذ أمر السلطان في صيف سنة ١٥١٤م بالقبض عليه، وشكل لجنة تتولى محاسبته على كل الأموال التي جباها، حتى إنهم - على غير المعتاد - حاسبوه على الهدايا التي كانت تقدم له. وانتهى الحساب بأنه مدين بما يزيد على ثلاثين ألف دينار، وعندما طالبته اللجنة برد هذه النقود رفض وتحدث معهم بأسلوب غير لائق، ونُقل الحديث إلى السلطان فحنق عليه، وأمر بتعذيبه، واضطره إلى بيع ما هو ظاهر من ممتلكاته، فباع بيته وخيوله وقماشه، ومع ذلك لم يتجاوز ما سدده ستة عشر ألف دينار.

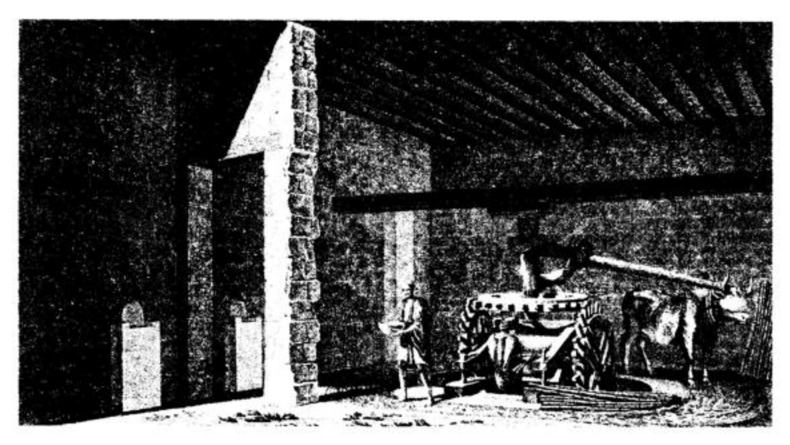


الري بالشادوف

أمر الغوري بتسليم جاني بيك للوالي ليستصفي منه المال كله، وفي بيت الوالي عُذِّب الرجل عذابًا شديدًا، فعُصر في أكعابه، وضُرب بالكسارات على رُكبه، ووضعت العصي الصغيرة بين أصابع قدميه وأُشعلت فيها النيران.

تحمل جاني بيك العقوبة بصبر، آملًا أن يعفو عنه السلطان، ودفع زوج ابنته، خُشْقَدم، لكي يشفع له عنده، وكان من جُلبان الغوري، اشتراه ورباه، وأحبه وقربه إليه، فكان من خاصته الذين يحضرون مجالسه الخاصة، ويأخذهم في موكبه إذا خرج ليمرح في بساتين الجيزة.

لكن الغوري الذي لم يبخل على غلامه خُشْقَدم بمنصب رفيع كمنصب «شاد الشِّوَن»، لم يقبل شفاعته في صهره. وعندما حدَّثه في الموضوع بدا للسلطان أنه قد تنبه لأول مرة إلى تلك الصلة بين الرجلين، فصاح في وجه خُشْقَدم:



معصرة القصب

- كيف تتشفع له؟ ظننتُك ستُطلِّق ابنته لأنه خانني، طَلِّقها أو سدِّد ما بقي على أبيها من الأموال التي سرقها ويرفض الاعتراف بها، ولن تخسر شيئًا، فسوف ترثه ابنته فتعود لك أموالك!

كان اختيارًا صعبًا، أصر السلطان عليه، وظل يكرره أمامه، ورأى خُشْقَدم أنه لو لم ينفذ ما طلبه الغوري فسوف يلقى مصير صهره. وبسرية تامة، استطاع أن يحصل على مركب بستة عشر مِقذافًا، واصطحب معه عشرة من زملائه المماليك، وهرب بهم إلى ابن عثمان.

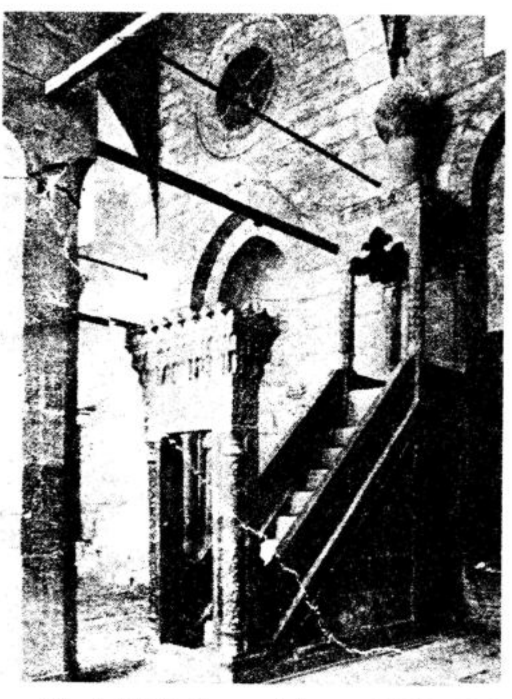
استقبل السلطان العثماني سليم خان الأمير المملوكي الهارب، وأكرمه وأنعم عليه بلقب الإمارة، وأصبح واحدًا من ألمع الوجوه في البلاط العثماني، لا همَّ له إلا تشجيع السلطان سليم على فتح مصر، وتحريضه على ضمها. ومن خُشْقَدم استكمل العثمانيون معلوماتهم عما يجري في السلطنة العربية المملوكية: مظالم الغوري التي ضج منها العرب في مصر وسوريا وبقية أنحاء السلطنة، الضرائب الفاحشة والمغارم والكلف والمصادرات، النقود المزيفة، انتشار الرشوة حتى بين القضاة، خلو الخزائن من الأموال، تمرد المماليك الجلبان طلبًا لمرتباتهم النقدية والعينية، غضب المماليك القرانصة لتمييز الجلبان عليهم، القراصنة من الفرنجة يهاجمون سفن المماليك في البحر المتوسط، والموانئ المملوكية قد خلت من سفن التجار بعد أن اكتشف الفرنجة طريق «رأس الرجاء الصالح»، وما يستقطعه الغوري من أموال المغارم والمصادرات يضيع على إنشاء الأساطيل وتعمير المكاحل وأدوات القتال، ليحارب الفرنجة في البحر ويعيد مجد السلاطين الذي قضى عليه «فاسكو دا جاما».

ذلك كله قاله خُشْقَدَم للسلطان سليم!

وها هو ذا تحريضه يؤتي ثماره، وها هو ذا السلطان سليم يقف على الجانب الآخر من مرج دابق، وفي طليعة من يقفون معه خُشْقَدَم، يخطط مع قادته ويزودهم بالمعلومات.

فهل يكون مصرع الغوري على يد مملوكه الذي رباه وعلمه، وضحك معه، واشتركا في لحظات الصفاء وفي أوقات المِحن؟

حتى أنت يا شاد الشّوَن!



قبر في خانقاه فرج بن برقوق، جدده السلطان قايتباي الكبير

سنوات العِز الأخيرة

من كل اتجاه كان الغوري يتلقى الضربات.

لكن أولى الضربات وأقساها كانت تلك التي تلقاها من «فاسكو دا جاما»، ذلك الرحالة البرتغالي الذي لا يعرفه الغوري، فهو لم يكن واحدًا من مماليك أستاذه قايتباي، أو من جُلبانه هو. وبرغم ذلك فها هو ذا عرشه يوشك أن يتهاوى بسببه.

ولمَ لا؟ ألم يقضِ «دا جاما» على أيام العز، حين كان المماليك يحكمون واحدة من أهم الدول التجارية في العالم، تملك موانئ على البحرين الأبيض والأحمر، وتمر بها تجارة الشرق والغرب، فتتقاضى رسومًا من هؤلاء وأولئك تملأ بها خزائن السلطنة؟

رحم الله من مضى من السلاطين!

غرَّتهم الأموال الطائلة التي كانت تدخل خزائن السلطنة من رسوم التجارة، فأهملوا الصناعة والزراعة، وازداد اعتمادهم على تلك الرسوم، وتغالوا فيها، حتى ضاق التجار الأوروبيون بتعنت السلاطين، وفقدوا صبرهم عندما وجدوا أسعار السلع الشرقية من عطور وتوابل وبخور ومنسوجات تتضاعف كل سنة، بل إن بعض السلاطين كانوا

ينقلون بعض السلع الشرقية إلى مخازنهم، ويحتكرون لأنفسهم حق بيعها لتجار أوروبا بالثمن الذي يحددونه.

في تلك السنوات البعيدة، كانت السفن تمتلئ بتجارة الشرق من العطور والتوابل والأقمشة والبخور، تحملها من الهند والصين وأفغانستان وغيرها من بلاد الشرق الأقصى، وتمخر بها عباب المحيط الهندي، حتى تصل إلى ميناء عدن، فتعبره إلى البحر الأحمر، وتفرغ حمولتها في ميناء السويس، ومن السويس، تنقل القوافل كل ما تحمله السفن من السلع الشرقية إلى القاهرة ثم إلى الإسكندرية أو دمياط، حيث يتجمع تجار أوروبا القادمون عن طريق البحر المتوسط، ومعهم سلع الغرب من الأخشاب والنبيذ والحديد والفراء.

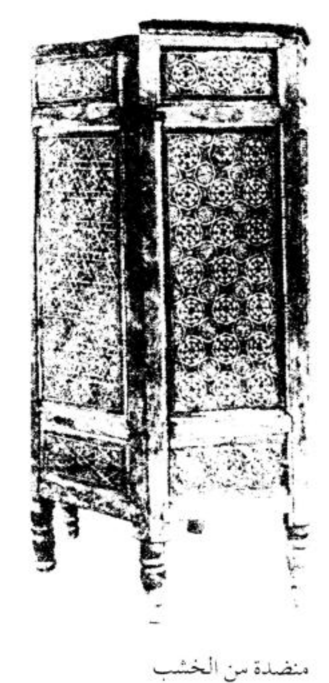
شمعدان من النحاس، من عصر السلطان قايتباي الكبير

أيامها كانت الإسكندرية مدينة مزدهرة، تطل بشموخ وكبرياء على البحر المتوسط، وتمتلئ شوارعها الفسيحة النظيفة بكل ما يجعل حياة التجار الأوروبيين سهلة ومُيسَّرة.

تصل السفينة التجارية إلى الميناء، فيصعد إلى ظهرها مندوبون من قِبَل نائب الإسكندرية، ومعهم قنصل الدولة التي تتبعها السفينة، فيتأكدون من جنسيتها، ويسجلون أسماء الركاب وأنواع السلع، ويحصِّلون دينارًا على كل راكب، و٢٪ مما يحمله من نقود.

يتوجه ركاب السفينة بعد ذلك إلى أحد الفنادق التي أنشأتها

الحكومة لتسهِّل إقامة التجار الأجانب في الإسكندرية، وفيها يستطيع التاجر الأوروبي أن يجتمع بمواطنيه، ويعيش وفق عادات بلده، فقد كان هناك فندق لرعايا كل بلد، به كل ما يحتاجه التاجر، وكنيسة ومخبز وحمَّام، بل يستطيع التجار أن يحملوا إليه من سفنهم الخمور، والخنازير الحية، وكل ما تشتهيه أنفسهم مما تعودوا عليه في بلادهم.



منضدة من الخشب

يستقبل مدير الفندق - وهو موظف حكومي - التجار، وينقل الحمَّالون ما معهم من بضائع إلى ردهة الفندق الواسعة، التي صُممت بحيث تصلح لحزم البضائع وحلها. ويُمنح كل تاجر حانوتًا من حوانيت الدور الأرضي للفندق، ليضع به بضاعته، وتُخصَّص غرف بقية الأدوار لإقامة التجار، حيث كانت تُعقد الصفقات، وتجبي الحكومة ١٠٪ رسومًا عن كل صفقة من البائع والمشتري.

وكانت أضخم القوافل التي تصل إلى الإسكندرية، هي القافلة التي تصل مرتين في العام من مدينة البندقية الإيطالية، وتتألف عادة من ٨ إلى ١٣ سفينة، تحمل بضائع لا يقل ثمنها عن مليون دينار بندقي، لذلك تمتع التجار البنادقة باهتمام سلاطين المماليك، إذ كانوا يشترون معظم ما يصل إلى مصر من السلع الشرقية، ويقومون بتصديره إلى مختلف أنحاء أوروبا، كما كانوا يورِّدون إلى مصر كل ما تحتاجه من السلع

الأوروبية. وبسبب كثرتهم ومكانتهم، أنشأت لهم الحكومة المملوكية في الإسكندرية حيًّا خاصًّا يضم فندقين وحمَّامًا ومخبزًا وكنيسة.

ومع أن العلاقات بين دول أوروبا المسيحية والمماليك لم تكن طيبة، بسبب الآثار التي تخلفت عن الحروب التي شنتها دول أوروبا على الوطن العربي - والتي تسمى بـ«الحروب الصليبية» - فقد اهتم المماليك والبنادقة بتنمية العلاقات التجارية بينهما، حرصًا على الأرباح الضخمة التي تحققها تلك العلاقات للطرفين.

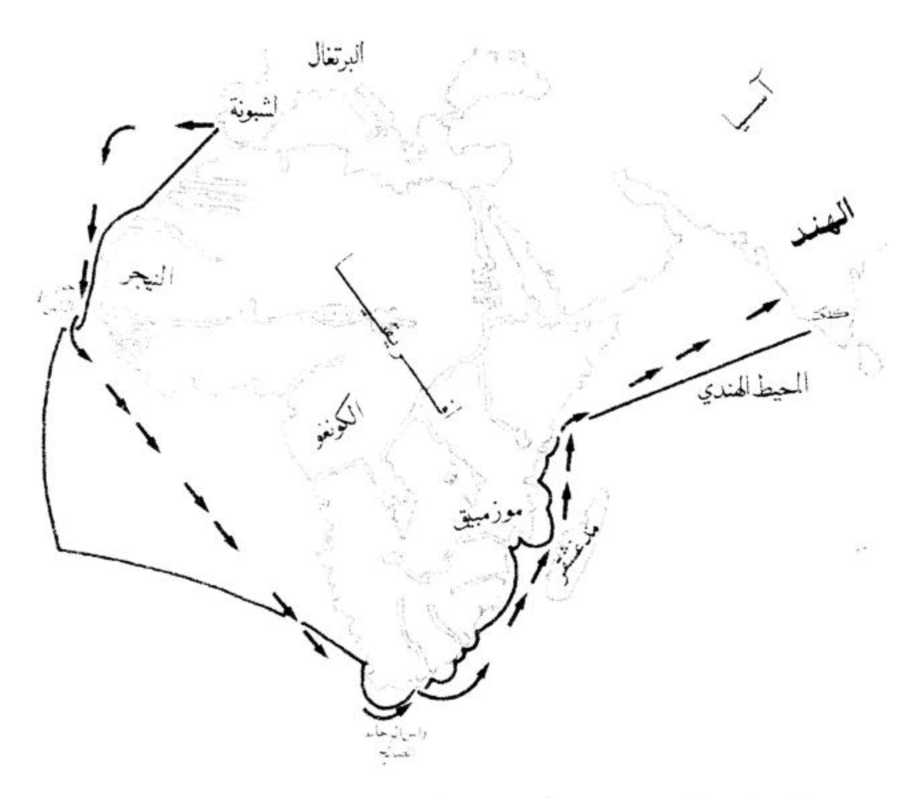


رسم يوضح مصادر السلع الشرقية: من المحيط الهندي وعدن والبحر الأحمر، إلى السويس، ثم القاهرة برًّا، ثم الإسكندرية أو دمياط. والسلع الغربية تأتي عبر البحر المتوسط من أوروبا إلى الإسكندرية أو دمياط

وكان باباوات روما قد حرَّموا على التجار المسيحيين، أن يبيعوا الدول الإسلامية بعض السلع ذات الأهمية الحربية، كالحديد والقار والكبريت والخشب، وبعض السلع ذات الأهمية الغذائية، كالقمح والزيوت، فضلًا عن تحريمهم بيع الرقيق الأبيض الذي يعتمد عليه الجيش المملوكي، كنوع من الحصار العسكري الذي تخلف عن الحروب الصليبية، لكن التجار البنادقة ضربوا عرض الحائط بكل ذلك، وملأوا قوافل سفنهم بالسلع المحرَّمة، وكلف البابا طائفة صليبية تُعرف باسم «فرسان المعبد» - كانت تحكم أيامها جزيرة رودس الواقعة بالبحر المتوسط - بمطاردة هؤلاء التجار، وتفتيش سفنهم، للتأكد من أنهم لا يحملون بضائع حربية، لكنهم وجدوا دائمًا وسيلة لإخفاء ما على سفنهم من محرَّمات.

كانت أرباح التجارة خرافية، تستحق أن يعرِّض التجار أنفسهم لغضب البابا. وكانت حاجة السلطنة المملوكية للسلع الحربية ماسة. صحيح أن الخطر الصليبي قد بعد بعض الشيء، ولكن الصراع على السلطنة بين أمراء المماليك كان قائمًا، والصراع بين أكبر ثلاث دول إسلامية - المماليك والصفويين والعثمانيين - كان يلوح في الأفق.

ملأت التجارة خزائن السلطنة المملوكية بالدنانير حتى فاضت بها، وأغرى هذا السيل المتدفق من المال بعض السلاطين برفع الرسوم الجمركية على البضائع الواردة من الشرق عن العُشر، وأغرى آخرين بأن يغيروا النقود التي يتعاملون بها ليكسبوا من الفرق في ثمن العملات، ودفع الطمع أحدهم إلى احتكار بيع بعض السلع الشرقية التي تشتد حاجة التجار الأوروبيين إليها، كالفلفل والبهار، فكان يشتري كل ما يصل إلى مصر منها، ويبيعه للتجار الأوروبيين بالسعر الذي يريده.



خريطة رحلة «فاسكو دا جاما» عبر رأس الرجاء الصالح

ويومًا بعد آخر ازداد اعتماد سلاطين المماليك على رسوم التجارة، فأهملوا الزراعة، فتدهورت أحوالها، وهجر الفلاحون الأرض فرارًا من مظالم أصحاب الإقطاعات من أمراء المماليك، فهبطت غلتها، ولم تعد هناك موارد للخزائن السلطانية سوى رسوم التجارة، فتعنت السلاطين مع تجار أوروبا، وضاق حكامها بسيطرة المماليك على طرق التجارة، وتغاليهم في رسوم مرورها بأراضيهم، فبدأوا يفكرون في اكتشاف طريق جديد، يقودهم إلى بلاد الشرق كالهند والصين مباشرة، ليعودوا من هناك بالبضائع الشرقية بأثمانها الرخيصة.

وكان من سوء حظ السلطان قانصوه الغوري أن استطاع الرحالة البرتغالي «فاسكو دا جاما» أن يكتشف طريق «رأس الرجاء الصالح»، في السنة السابقة على صعود الغوري إلى العرش. فقد أبحر «دا جاما» في المحيط الأطلسي، والتف حول أفريقيا، ووصل إلى المحيط الهندي ومنه إلى دول الشرق الأقصى، حيث استطاع أن يحصل على ميناء هندي للبرتغاليين هو ميناء «كالكتا».

وبعد عامين من تولية الغوري للسلطنة، عاد «فاسكو دا جاما» من رحلته الثانية إلى الهند، فوصل إلى لشبونة عاصمة بلاده، وعلى ظهر سفنه حمولة ضخمة من البهار لا تقل عن خمسة آلاف قنطار، باعها بسعر القنطار عشرين دينارًا فقط، بينما كان القنطار يُباع بمائة وخمسين دينارًا في الإسكندرية.

كان اليوم الذي عاد فيه «فاسكو دا جاما» بالبهار الرخيص هو آخر أيام دولة المماليك، وهو اليوم الذي قضى على الغوري.

خانه الرجل، ضربه في مقتل، مع أنهما لم يلتقيا قَطُّ، وفَّرت السفن البرتغالية على المستهلك الأوروبي مشقة الحصول على السلع الشرقية، فأصبحت تنقلها إلى أسواقه مباشرة. ولم تعد الإسكندرية هي المركز الوحيد في العالم للتجارة في سلع الشرق. واشتعلت المنافسة التجارية بين المماليك وبين البرتغاليين على سواحل الهند وأفريقيا والبحر الأبيض. وأخذت أساطيل كلٍّ من الدولتين تجوب البحار لقطع طريق التجارة على الطرف الآخر. إلى أن حسم «فاسكو دا جاما» الصراع حين وضع جزءًا من أسطوله في مدخل البحر الأحمر، فتحكَّم البرتغاليون بذلك في الطريق المباشر بين مصر والهند.

ويومًا بعد آخر أخذت خزائن الغوري تعاني من القحط، بينما حاجة السلطان للمال تشتد، فهو يريد أن يبني الأساطيل، ويُجيِّش الجيوش ليفتح طريق التجارة، لكنه لا يجد مالًا، فالتجارة متوقفة، والزراعة متدهورة، ولا حل أمام الغوري إلا أن يفرض الغرامات والضرائب، أو يبيع مناصب الدولة لمن يدفع أكثر، والناس يشكون ويتمردون ويثورون.

وشعر البنادقة - شركاء المماليك في الأرباح الطائلة من التجارة - بالخطر الذي يحيق بهم، فأرسلوا للغوري سفيرًا، لبحث الأخطار التي نتجت عن تحويل التجارة من الإسكندرية إلى لشبونة، وقال السفير للغوري:

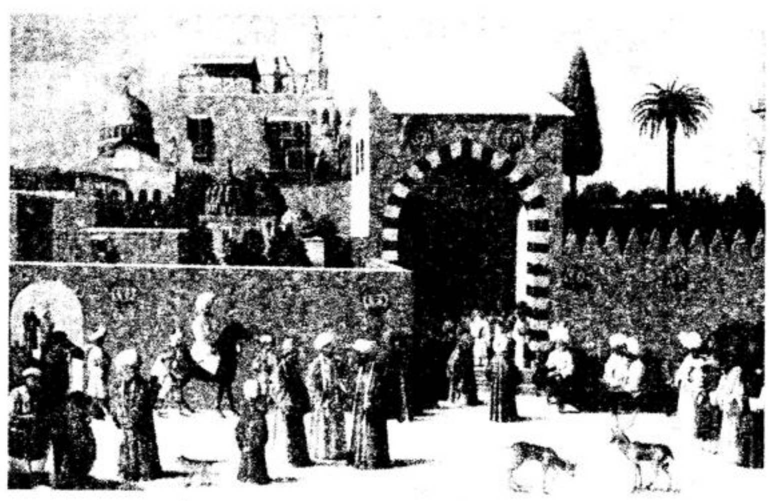
- إن ملك البنادقة يرجوكم أن تخفضوا الرسوم التي تجبونها على البهار في أسواق الإسكندرية، حتى يستطيع تجارنا منافسة تجار لشبونة. ويطلب منكم أن تكتبوا لسلاطين الهند المسلمين، فتدعوهم لقطع علاقاتهم التجارية بالبرتغاليين، وبذلك نستطيع نحن وأنتم أن نستعيد مكانتنا التجارية.

تذرَّع الغوري بالصبر وهو يستمع لكلمات السفير البندقي، ثم اندفع يشرح المشاكل التي تحيط به، والأخطار التي تتهدد سلطنته، وقال في صوت لم يخلُ من حدة:

- أنتم تتقدمون بطلبات، وهذا لن يحل المشكلة، فالبرتغاليون لن يتركوا البحار دون حرب، فشاركوني في تبعاتها، وأعطوني الأخشاب والحديد لكي أبني أسطولًا أواجههم به.

وبينما هذه المباحثات تدور في القاهرة، وردت الأخبار بأن «فاسكو دا جاما» هاجم أمام ساحل مالابار بالهند سفينة مملوكية كبيرة كانت محملة بالبهار وعليها عدد كبير من الحُجاج الهنود في طريقهم إلى جدَّة. وبعد معركة عنيفة بينها وبين الوحدات البرتغالية استقرت السفينة بما فيها ومن عليها في قاع البحر.

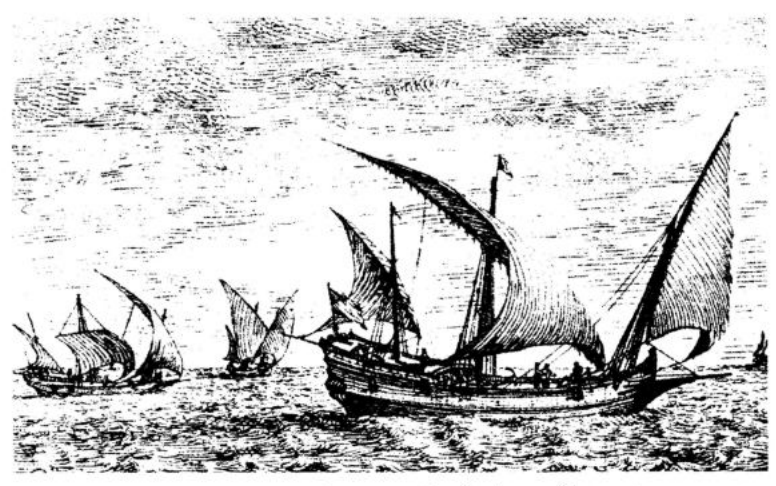
انتقل خطر البرتغاليين من المحيط الهندي إلى البحر الأحمر، فشعر الغوري بأن كارثة تهدد كيان الدولة، فاهتم بتجهيز حملة بحرية ضخمة، خرجت من القاهرة، في ٤ أكتوبر/ تشرين الأول سنة ١٥٠٥م،



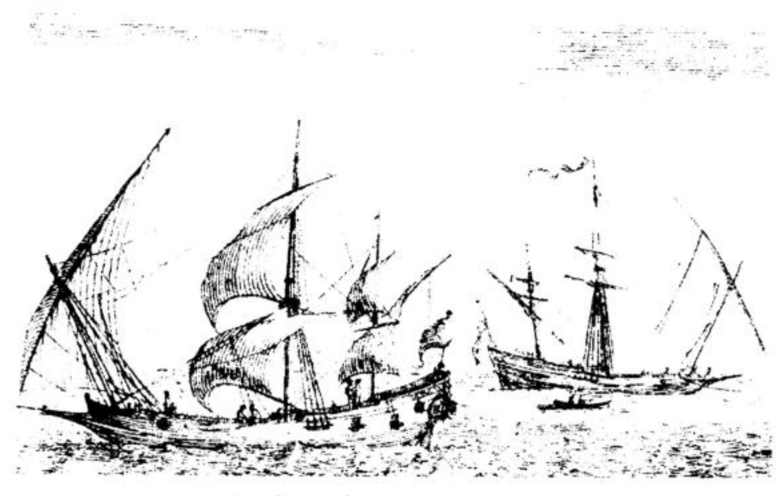
السلطان قانصوه الغوري، يستقبل وفدًا من سفراء البندقية في ١٠ مايو/ أيار ١٥١٢م، للتفاوض حول أسلم الوسائل لمواجهة البرتغاليين. ويُرى السلطان جالسًا على الدكة بالحوش السلطاني بالقلعة، ويجلس عن يساره أكبر موظفي الدولة، وهما: الدوادار الكبير، وأمير كبير (قائد الجيش). أما الوقوف على يسار الدكة، فهم كبار الأمراء المماليك، ويقف المترجم أمام السلطان (وهو الذي يُرى في الصورة من الظهر)، وبجوار الترجمان البعثة الدبلوماسية البندقية برئاسة «دومينيكو تريفزاني» وعضوية خمسة من البنادقة

وقادها الأمير حسن الكردي، وأبحرت الحملة من السويس في أسطول يتكون من زهاء خمسين سفينة، وعندما وصلت إلى جدة، شرع الأمير حسين في إقامة سور وبناء عدة أبراج حول المدينة.

وكان أسطول البرتغاليين الذي يتكون من عشرين سفينة، قد أبحر من المياه الهندية واستولى على جزيرة سوقطرة التي تشرف على مدخل البحر الأحمر، ثم عبر باب المندب، وبدأ لأول مرة يقوم بعملية استكشاف لهذه المنطقة، فأغار على ميناء عدن، ومنها تحول إلى سواكن بقصد الاتصال بملك الحبشة والاتفاق معه على تحويل مجرى نهر النيل ومنعه من الجريان إلى مصر، ثم أبحر الأسطول البرتغالي متجهًا إلى جدة بقصد إنزال قواته على شاطئ الحجاز، غير أنه ما إن علم بوجود الأسطول المصري الضخم في مياه جدة حتى سارع بالانسحاب من البحر الأحمر.



مركب من مرسيليا، ذو الأشرعة المربَّعة، للتجارة في الشرق



قارب للسباق وللتجارة من «البروفانس» و«اللانفدوك» إلى المشرق

تقدَّم الأمير حسين الكردي على رأس وحداته لمطاردة الأسطول البرتغالي، واتجه نحو سواكن، ومنها إلى عدن، ثم إلى شواطئ الهند، وهناك هزم الأسطول البرتغالي في صيف عام ١٥٠٨م في موقعة «شول» على الشاطئ الغربي للهند، لكن البرتغاليين تلقوا نجدات مكنتهم من رد اللطمة، فأغرقوا جميع وحدات الأسطول المصري في خليج ديو في فبراير/ شباط عام ١٥٠٩م.

وبعد هذا الانتصار الساحق فرض البرتغاليون حصارًا شديدًا على جميع الموانئ الهندية وميناء جدة، ثم بدأوا يهاجمون كل القواعد التجارية التي تتحكم في تجارة الشرق الأقصى، فاستولوا بعد عامين على الموانئ التي تصب فيها منتجات الصين والهند الصينية وجزر الهند الشرقية.

سيوف مملوكية

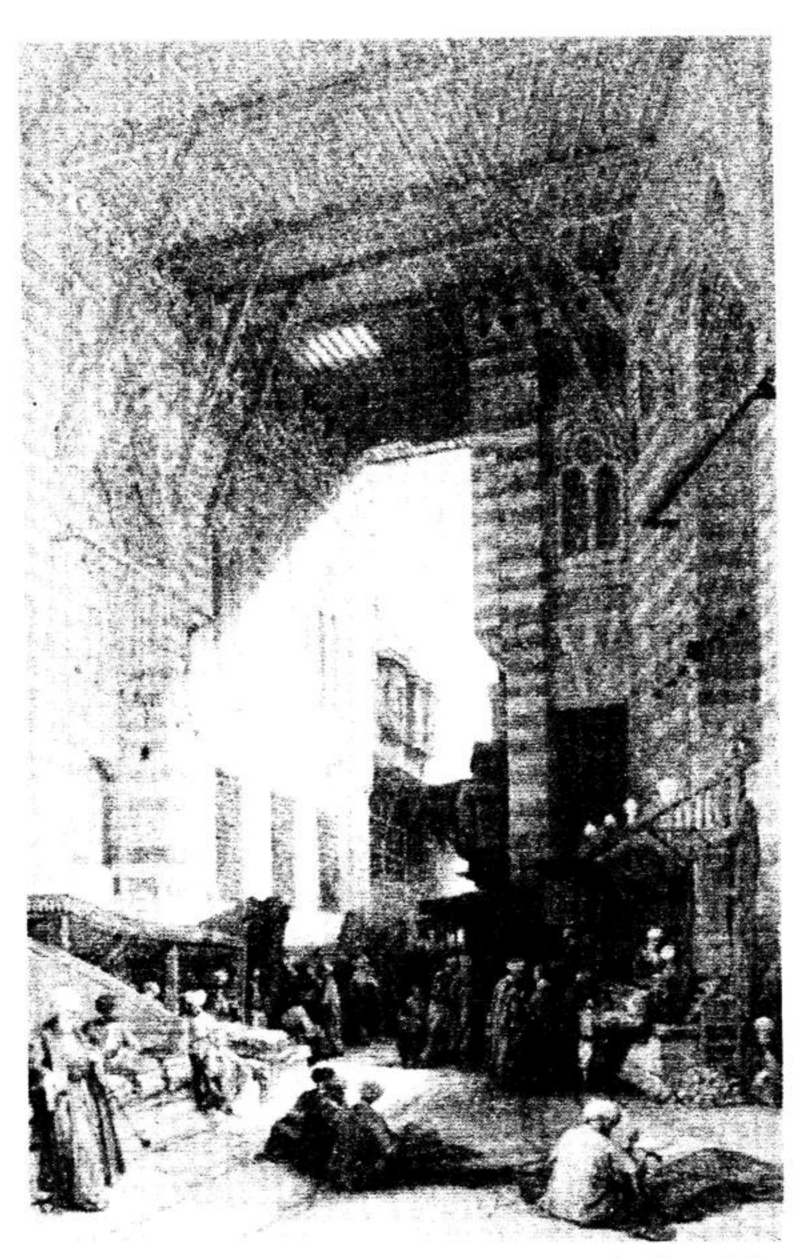
وفي عام ١٥١٣م تقدَّم البرتغاليون نحو البحر الأحمر، وهاجموا عدن وسواكن، واستولوا على جزيرة كمران، واشتد تهديدهم لجدة.

وفي هذا الوقت العصيب، تمكن الغوري من الانتهاء من بناء الأسطول وإنزال سفنه بميناء السويس، وأبحرت منه في العام التالي بقيادة الأمير حسين الكردي نائب جدة لمطاردة الأسطول البرتغالي. وما إن لمس البرتغاليون قوة الأسطول المصري حتى سارعوا بالانسحاب من مياه البحر الأحمر، فتبعهم الأمير حسين إلى شواطئ الهند، غير أنه لم يستطع إنزال الهزيمة بهم، فبعث يطلب المدد من السلطان الغوري.

آه! ويلٌ للشجيِّ من الخليِّ؟!



مسدسات عثمانية



سوق الحرير بالغورية

المتمردون

أيُّ مدد ذاك الذي يطلبه الأمير حسين ليواجه به عبث الفرنجة في البحار؟ ومن أين للغوري بالجنود يبعثهم إليه، وبالأساطيل يبنيها؟ ومن أين له بالمال ينفقه على هذا وذاك؟ وحتى لو استطاع أن يجد جنودًا وأن يدبر مالًا، فكيف يغفل عن ذلك الخطر العثماني الذي طرق أطراف سلطنته، ولم يعد ممكنًا تغافله؟ وإلى أين تتجه جيوشه؟ إلى البحر والمحيط، أم إلى الشمال حيث تاخمت حدوده، حدود سليم الجبار الذي استدار ليواجهه؟ ومن أين له بجيوش كجيوش السلاطين السابقين، حين كان النظام المماليكي في فتوته الأولى، يقوم على إقطاع عسكري يتفرغ المملوك في ظله للحرب وللقتال، واستغلال إقطاعه، وتدريب من يترأس عليهم من مماليك على فنون الحرب والضرب؟

أيامها كان المماليك يُجلبون صغارًا، فيخضعون منذ طفولتهم للنظام العسكري الصارم، ويتشربون كل تقاليده.

لكن الصراع على العرش، دفع السلاطين - ومنهم قانصوه الغوري ذاته - للإكثار من جلب المماليك، فتغافلوا يومًا بعد آخر عن شروط الالتحاق بثكنات القلعة، وأصبح الجلبان أسوأ أنماط البشر، يأتون من

بلادهم في أعمار كبيرة، ولا يتلقون سوى تدريب قصير، وقليلون منهم من يحسنون فنون القتال، أو يخضعون للنظام العسكري الصارم الذي عرفه الغوري في صباه حين كان مملوكًا من جلبان أستاذه قايتباي.

هؤلاء الجلبان الذين أذاقوه الأمرَّين، حتى كاد يعزل نفسه عن العرش أكثر من مرة، استقبلوه في أول أيام سلطنته بتمرد كاد يقضي على حكمه قبل أن يبدأ، إذ نزلوا إلى المدينة فأحرقوا عدة بيوت، وكان اليوم عيد الفطر أول شوال سنة ٩٠٦هـ (أبريل/ نيسان ١٥٠٠م)، فشوشوا على الناس، وحرموهم الاحتفال بعيد فطرهم، وحرموه الاحتفال بعيد جلوسه على العرش.

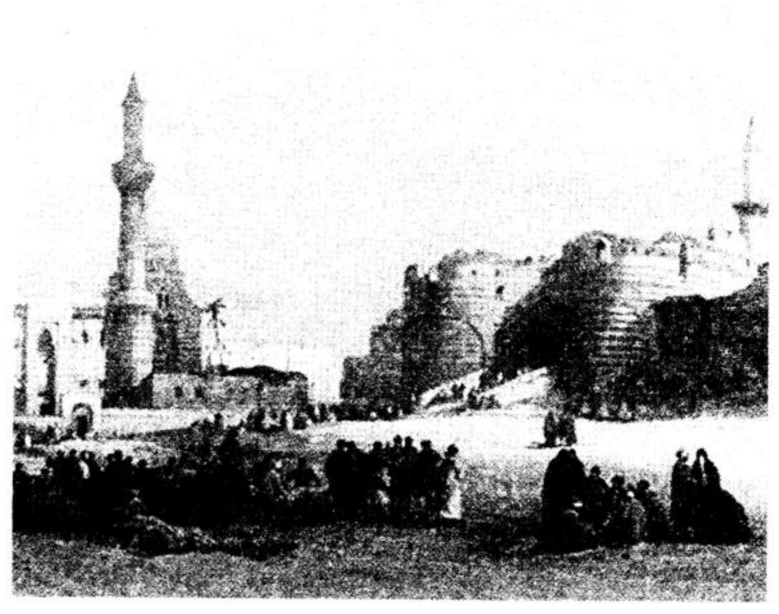
قَدَرُهُ كان أن يرث كل ما تركه أسلافه من مماليك، وما أكثر طوائف المماليك الذين ورثهم، تحمل كل فرقة منهم اسم السلطان الذي اشترى أفرادها، من ظاهرية وأشرفية وأينالية وخُشْقَدمية وقايتبايهية وناصرية، ومماليك الظاهر قانصوه والأشرف جان بلاط والعادل طومان باي، وكل منهم يريد رزقًا أو مرتبًا أو إقطاعًا، والخزائن خاوية!

وبسبب المماليك، بدأ الغوري عهده بظلم لم ينسهُ له عرب مصر والشام، تلك هي ضريبة الشهور العشرة التي فرضها على الأملاك والعقارات، لكنها لم تكفِ مطالب جلبانه الكثيرين، فبعد سنوات قليلة عاد المماليك للتمرد، حتى وصل بهم الأمر إلى محاولة الهجوم على السلطان وهو جالس في الدهيشة يصرف أمور الحكم، وعندما خرج إليهم جماعة من الأمراء لم يسمعوا لهم، وقالوا: «ما نرجع حتى ينفق علينا لكل واحد مائة دينار».

في اليوم التالي منع المماليك الأمراء من الصعود إلى القلعة، ولم

يخرج السلطان. وشاع في المدينة أنه يهدد بالتنازل عن العرش. ولم يهدأ الحال إلا عندما وزَّع السلطان على خمسمائة مملوك سيوفًا، وزرديات وتراكيش ورماحًا وغيرها من أدوات القتال، ومنح كل واحد ثلاثة دنانير ثمنًا لثوب جديد، ثم جمعهم وأحضر مصحف الخليفة عثمان بن عفان، فأقسموا عليه، طبقة بعد أخرى، ألا يثيروا فتنة، أو يخونوا السلطان أو يغدروا به.

وقبل أن يتلاشى صدى قسم المماليك المعظم على مصحف الخليفة عثمان، عادوا للتمرد مرة أخرى في بداية سنة ٩١٦هـ (١٥٠١م)، ورجموا الناس من ثكناتهم بالقلعة احتجاجًا على انقطاع



رسم لمدخل القلعة في القاهرة

نصيبهم اليومي من اللحوم والطعام أكثر من شهرين، وفي اليوم التالي، نزلوا من الطباق إلى بيوت كبار رجال الدولة، فأركبوهم قسرًا وقالوا لهم: «اطلعوا للسلطان وقولوا له ينفق علينا!».

ورفض الغوري أن يحدثه أحد بشأن النفقة، فنزل المماليك من ثكناتهم في القلعة أفواجًا، وتوجهوا إلى سوق جامع أحمد بن طولون، فنهبوا منه عدة دكاكين، وفعلوا مثل ذلك بدكاكين الصليبة، وسوق تحت الربع، واتسعت الفتنة، وأغلق الأمراء أبواب قصورهم خوفًا من المماليك. وفي اليوم التالي منع المتمردون الأمراءَ من المرور في الطرقات، وأغلقت الأسواق أبوابها، ولم تهدأ الفتنة إلا بعد أن هدد السلطان باستخدام القوة ضد المتمردين.

وتحمل التجار خسائر هذا التمرد، فضاع عليهم ما نهبه المتمردون من بضائع، وتحملوا مغارم التمرد الذي حدث في العام التالي حين ثار المماليك لتأخر صرف اللحم والعلف، ونهبوا الشعير الذي كان بالشون السلطانية.

خشي السلطان من اتساع الفتنة، فاجتمع بمماليكه الجلبان، ووبخهم بالكلام، وقال:

- أنا أخلع نفسي عن السلطنة وولوا من تختارونه!

وطالب أغوات الجلبان السلطانَ أن يصرف مائة دينار نفقة لكل مملوك، وأصر السلطان على ألّا يصرف أكثر من أربعين دينارًا، وانتهت المفاوضات بالاتفاق على صرف خمسين دينارًا للفرد.

ولما كانت الخزائن السلطانية خالية من المال، فقد أمر السلطان بفتح المخازن التي يحتفظ فيها بتركات الموتى من الأمراء، والتي

تُنقل إليها الثروات المصادرة. وأخرج من تلك المخازن الشاشات والأثواب الصوفية والعسل والزيت والزبيب، وأجبر التجار على شرائها بالأثمان التي حددها، وقال إنه يفعل ذلك ليحميهم من تمرد المماليك. واشترى التجار البضائع السلطانية بضعف ثمنها، ودفعوه فورًا، وتحملوا سلعًا معظمها فاسد وكلها كاسد، لعل الجلبان يهدأون أو يكفون عن نهب الأسواق. لكن الأحوال لم تهدأ، فثار المماليك الجلبان مرة رابعة في سنة ٩٢٠هـ (١٥١٤م)، وعندما حاول السلطان التفاوض مع بعض زعمائهم أغلظوا عليه في القول، وقال أحدهم:

- أنت الذي أفلست الدواوين، بتلك الطبقة من المماليك الذين تسميهم الطبقة الخامسة، وما فيهم أحد يعرف صنعة السلاح، فهذا خياط وذاك نجار، ومع ذلك قطعت جوامك (مرتبات) الأيتام والنساء بسببهم.

ورد السلطان قائلًا:

- أنا ما جعلت ذلك العسكر المستجد إلا ليكون فداء لكم في الأسفار والتجاريد.

ورد آخر من أغوات الجلبان قائلًا:

- لقد صار اللحم الذي يصرف لنا من الديوان يتأخر خمسة أشهر، وهم يصرفون لنا العليق من الشون مُسوَّسًا ترفض الخيل أن تأكله، والجامكية (المرتب) التي تعطيها لنا لا تكفي لكراء بيت وإسطبل ودفع مرتب لغلام، فمن أين نكسو أنفسنا والقماش غالٍ؟ نحن لا نشبع في أيامك، نحن جياع وعراة!

وقال السلطان حانقًا:

- وكيف أكسوكم وأشبعكم والبنادر كلها خراب، حتى إن مركبًا واحدًا لم يدخل ميناء الإسكندرية في سنة ٩١٩هـ (١٥١٣م)، أما بندر جدة، فقد خرب هو الآخر، ولم تدخله سفينة واحدة منذ عام ٩١٣هـ (١٥٠٧م)، ومراكب الفرنج تحاصر كل الموانئ، والعدو متحرك علينا من كل جانب!

ذلك كله لم يكن يعني الجلبان، فلا البلاد بلادهم، ولا أهلها يمتون لهم بقرابة، وحتى زملاؤهم من المماليك القرانصة ليسوا أكثر من منافسين لهم في أرزاقهم، لذلك كانوا يجبرون السلطان على الإنفاق عليهم وحدهم وعدم الإنفاق على القرانصة، فإذا أعطى القرانصة شيئًا، طالبه الجلبان بضعفه.

ووصل الأمر إلى تآمر الجلبان على قتل زملائهم القرانصة، ففي كل صباح كان الوالي يكتشف جثة قتيل في سوق أو شارع أو على شاطئ خليج، وقد خُنق أو طعن أو أُغرق في النيل، ويتبين أنه من المماليك القرانصة، قتله مملوك من الجلبان يطمع في وراثة إقطاعه.

ومع أن الوالي كان يعجز في معظم الأحيان عن معرفة الفاعل، فإن بعض القتلة من الجلبان كانوا يصعدون القلعة بكل وقاحة ليطلبوا من السلطان منحهم إقطاع قتلاهم من القرانصة. وقد حدث في سنة ١٥٠٧م أن أحد الجلبان تعجل وفاة مملوك مريض ومسن من القرانصة، فطلب من السلطان الغوري إقطاعه، فاستمهله السلطان حتى يموت، فلما طال به المرض، قتله المجلوب، وصعد يطالب السلطان بالإقطاع. وفي سنة ١٥١٤م، أَوْلَمَ أحد الجلبان وليمة لمملوك من القرانصة يتمتع بإقطاع كبير، فأسكره وخنقه، وصعد بعد ذلك إلى القلعة، يطالب السلطان أن يورثه إقطاع ضحيته.

فكيف يحارب هؤلاء الغادرون الفاسدون المفسدون يا قانصوه؟! كيف يحاربون وهم لم يخرجوا إلى التجريدة إلا بعد أن تغالوا في طلب النفقة، وتمردوا على ما منحتهم؟! ولولا أنك لم تأبه بتمردهم لأشعلوها فتنة كان ابن عثمان يتمناها ليكسب الحرب دون قتال! كيف يحاربون ولا همَّ لهم إلا السلب والنهب والسرقة، والقرانصة منهم غاضبون لأنه منح جلبانه ضعف النفقة التي منحها لهم، وهم مع هذا أكثر خبرة بالحرب من مماليكه الجلبان، وفيهم شيء من مزايا النظام المملوكي في أيامه الذهبية، ولهم بالحرب خبرة، أما أولئك الجلبان فهم مرتزقة جلبوا كبارًا في السن، ووفدوا على دولة تشيخ، وليس لهم بالقتال خبرة، وهم بين ملَّاح سفينة ووقاد في تنُّور خبَّاز، ومحول ماء في غيط أشجار؟



الواجهة والباب الرئيسي والمئذنة المربعة ذات الرؤوس الأربعة بمسجد ومدرسة الغوري بالقاهرة

كيف يحارب هؤلاء جيش ابن عثمان؟

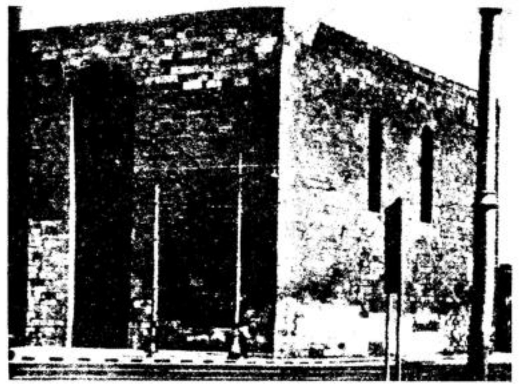
أشقاك الله بمماليكك الجلبان يا قانصوه، كما أشقى بهم الناس، وأشقاك فوق هذا بمن تحكمهم من العرب المصريين، والعرب السوريين، والعرب الحجازيين، فلا هؤلاء أراحوك، ولا أولئك سكتوا عنك.

يثور الجلبان طلبًا للنفقة، وينزلون إلى شوارع المدن، ينهبون الدكاكين والأسواق وبيوت الأمراء. وفي الفوضى التي تنشب في

المدينة، ووسط الذعر الذي يسودها، يتسلل الحرافيش والجعيدية والزعر وأوباش الناس، أولئك الصعاليك القاهريون والدمشقيون، سكان الحارات البرانية في القاهرة، وأهل الشاغور في دمشق، فيشاركون في النهب، يشبعون به بطونهم الخاوية، ويسترون به أبدانهم العارية، وينتقمون ممن يتركونهم للفقر والحرمان والجوع.

وهؤلاء العوام الذين يشكلون عصابات من اللصوص تهاجم المماليك فتقتلهم أو تسرق جامكياتهم (مرتباتهم)، أو تهبط في ظلام الليل على مخازن الأمراء وبيوتهم، تبحث عن الكنوز المخبأة، فإذا عجزت سرقت التحف والنقود والحبوب وأحيانًا الطعام.

وفي أوقات المجاعات، كان هؤلاء الجعيدية في طليعة الذين سلقوا السلطان بألسنتهم الحِداد. حدث أن ارتفع سعر القمح في سنة ١٥١٣م، حتى كاد يختفي من الأسواق، وذاع بين العوام أن السلطان قد احتكر بيع القمح لحسابه، وأنه يُصدِّره إلى الشام، حيث وصل



مجرى المياه (أو مجرى العيون) بفم الخليج بالقاهرة، شيده الغوري لتوصيل المياه إلى القلعة

سعره إلى أربعة أمثال سعره في القاهرة. وحين نزل السلطان في موكبه الرسمي يتفقد أحوال القاهرة اعترض العوام طريقه، وهتفوا في وجهه: «الله يهلك من يقصد الغلاء للمسلمين!». فنكدوا عليه، واضطروه أن يعود للقلعة من طريق غير الذي سلكه في نزوله، لكيلا يرى وجوههم أو يسمع تطاولهم عليه.

وأولئك العربان الملاعين، لا يكفون عن الثورة، ولا يعترفون يومًا بسلطة المماليك، فعلوا ذلك في أول أيام السلطنة المملوكية قبل أكثر من مائتين وست وسبعين سنة، عندما تولى عز الدين أيبك السلطنة بعد وفاة آخر ملوك بني أيوب. فقد اعترض العربان على سلطنته، وقالوا: «إنا أحق بالملك من المماليك، وقد كفانا أنَّا خدمنا بني أيوب وهم خوارج عن البلاد، وما أيبك إلا مملوك قد مسَّه الرق».

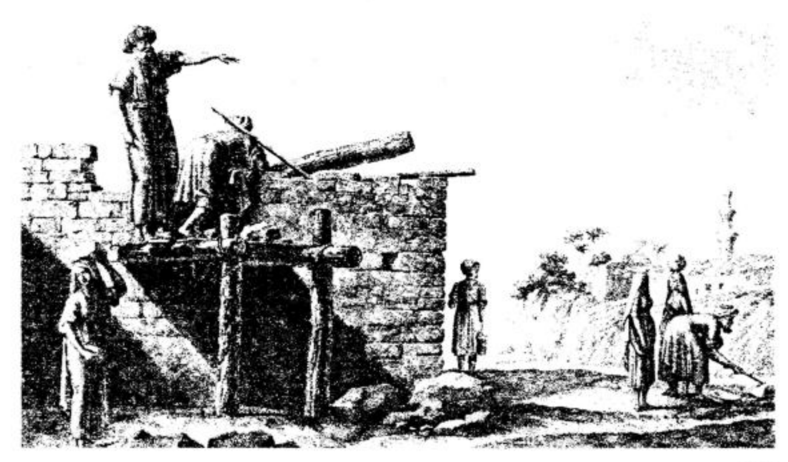
ومنذ ذلك التاريخ لم تكفَّ قبائل العربان عن الثورة والتمرد، يغيرون على الجيوش المملوكية، وعلى القرى التي تضم إقطاعات الأمراء والأجناد، وأحيانًا يحتلون بعض المدن، أو يسيطرون على الطرق المؤدية إليها، لا يكفون عن التمرد، برغم العنف المملوكي في إخماد ثوراتهم والذي وصل إلى حد أن كاشف الشرقية قبض على ابن قرطام شيخ عربان الشرقية، فسلخ جلده وحشاه تبنًا وأركبه فرسًا وطاف به شوارع القاهرة سنة ١٥١٣م.

وها هم قبائل عربان الشام حوله في مرج دابق، فهل يستطيع الاعتماد على إخلاصهم؟ إنها بلادهم، وسوف يدافعون عنها، ولكن هل يدافعون عن عرشه؟

لقد أقسموا له على مصحف الخليفة عثمان بن عفان ألا يخونوه أو

يتآمروا عليه. وأقسم لهم ألا يغدر بهم، ورفع الجميع أكفهم للسماء، ودعوا على الخائن بأن يخوِّنه الله.

ولكن، لماذا يصدقون والكل أقسم وحنث؟!



البناء



طلاء الأسقف بالمحارة



السلطان سليم الأول

هدية الخنكار سليم

حتى الخنكار سليم العثماني ذاته، كم تبادل مع الغوري رسائل الود وعبارات الصداقة وألفاظ التكريم والهدايا الفاخرة، لا يخاطبه في رسائله إلا بـ«والدي العزيز»، ولا يتحدث عن السلطنة العربية المملوكية إلا داعيًا لها بالخلود والدوام، ولا يدخل سفيره على الغوري إلا وأمامه الغلمان والجواري، يحملون القماش والذهب والنحاس، وهم وما يحملون، هدايا الخنكار لوالده العزيز قانصوه الغوري.

ومع أن الغوري كان يرد على رسائل سليم الرقيقة بلهجة أكثر رقة، داعيًا بالنصر لجيوشه، إلا إن كلمات الخنكار المعسولة لم تخدعه عن اكتشاف ما بين السطور من معانٍ خفية، فكان يشم في تفاخر سليم بما حققته جيوشه من انتصارات، رائحة تهديد خفي.

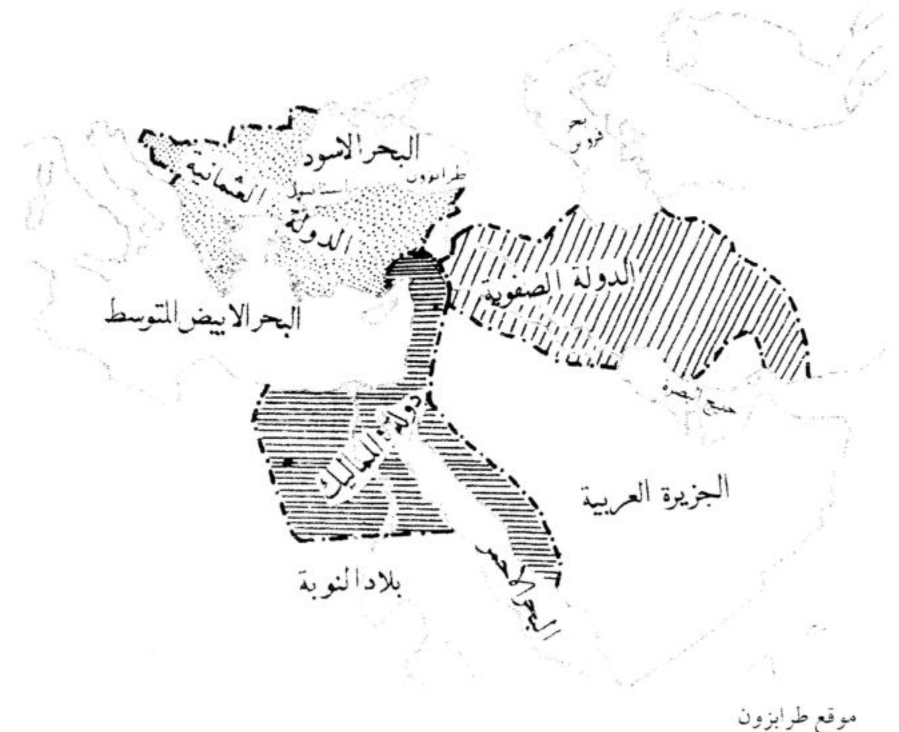
في تلك السنة (١٥١٦م)، كان الخنكار سليم الأول قد شارف على العام السابع والأربعين من عمره، أمضى منها خمس سنوات على عرش السلطنة التي أسسها جده الأكبر عثمان، تغلب خلالها على مؤامرات أعدائه، وشتت جموع منافسيه، وثبت قوائم عرشه بجماجم إخوته وجثث أبنائهم.

كان رجلًا صعب الخُلق، حاد المرارة، غضوبًا في عنف، لا يُراجَع في قول، وليس أسرع على لسانه من أوامر القتل. وكان طموحًا للقوة والنفوذ والتوسع، يدوس من أجلها كل شيء: العواطف، والمودات، والذكريات، وصِلات الرحم، وجماجم الآباء والإخوة والأبناء. يفعل كل شيء دون أن تختلج في وجهه عضلة، أو يخفق له قلب، أو تطفر من عينيه دمعة.

بدأ سليم حياته السياسية وهو في الثالثة عشرة من عمره، حين عيَّنه والده بايزيد حاكمًا على ولاية طرابزون، فظل في منصبه ذاك ما يقرب من ثلاثين عامًا، تابع خلالها كل ما يجري في المنطقة بعيون يقظة، وقلب ممتلئ بالطموح.

ولم يكن فيما تابعه سليم - وهو في موقعه بطرابزون - شيء يبعثه على الرضا أو يدعوه للارتياح، فقد كانت تلك المنطقة مركزًا لتحركات الصفويين، يغيرون على حدودها المتاخمة لحدودهم، فينهبون ما تصل إليه أيديهم، ويرسلون إليها دعاتهم ينشرون مذهبهم الشيعي بين السُّنيين من الرعايا العثمانيين، ويشجعون الشيعة منهم على الثورة والتمرد والمطالبة بالاستقلال.

وكان ذلك كله يجري وأبوه السلطان بايزيد مشغول بشيخوخته وأمراضه وأحزانه على فقد خمسة من أبنائه، والمحيطون بالعرش من الوزراء والمستشارين يحجبون عنه تقارير سليم الكثيرة والمليئة بالثرثرة عن الخطر الشيعي، فلم يكن للجميع همٌّ آنذاك سوى ولاية العهد، بعد أن طعن السلطان بايزيد في العمر، وأثقلته الأمراض. ولم يكن سليم ممن يحسبون عند التفكير فيمن يخلف الأب المريض، فهو



موقع طرابزون

أصغر أبنائه، وأبعدهم عن العاصمة، وأقلهم فرصة في خلافته على العرش.

وحين أدرك سليم ذلك واصل إلحاحه على أبيه لينقله من طرابزون إلى ولاية قريبة من العاصمة إستانبول، ليكون في مكان يستطيع منه أن يجمع أنصارًا يؤثر بهم على الجيش وكبار رجال الدولة، فيضعونه في الاعتبار حين يخلو العرش من الأب العجوز.

ولما لم يكترث أحد برسائله غادر مقر ولايته غاضبًا، ولجأ إلى أحد أبنائه فأقام عنده، وكتب لأبيه رسالة خشنة جافة العبارة، يُعلنه فيها بأنه لن يعود إلى طرابزون أيًّا كانت الأسباب.

وأدرك بايزيد في شيخوخته ووحدته، أن الحرب ستشتعل بين أبنائه بمجرد موته، فأرسل يستدعي ابنه الأكبر الأمير أحمد، ليمهد له طريق الصعود إلى العرش، ويضمن له تأييد قادة الجيش وزعماء القبائل وكبار رجال الدولة. وأرسل في الوقت نفسه أحد كبار مشايخ الإسلام لينصح الابن العاصي بالعودة إلى مقر ولايته، وإطاعة أوامر والده.

استقبل سليم سفير أبيه ببرود، وتعمَّد عدم الاحتفاء به، ولم يرد عليه حين سأله عن أحواله. وابتلع السفير الإهانة، وواصل الحديث قائلًا:

- إن فخامة السلطان يُذكِّرك بأن سعادة الدنيا والآخرة في طاعة أمره...

قاطعه سليم في نبرة حاسمة:

- لن أقبل العودة إلى طرابزون حتى لو نزل جبريل من السماء، أو رجاني الرسول.

فقال السفير:

- ولكن خروجكم عن طاعة السلطان سيكون سببًا للحرب بينكما.

لم يهتم الأمير سليم بمواصلة الحوار، ووقف منهيًا المقابلة، وهو يقول:

- ليكن ما يكون.

وما إن وصل الأمير أحمد إلى العاصمة إستانبول، استعدادًا للجلوس على العرش، حتى تحرك سليم على رأس قوة حربية صغيرة، ووجهته مدينة أدرنة، حيث كان أبوه يقيم، ليتباحث معه في الأمر. ولكن السلطان بايزيد رأى أن قدوم ابنه للقائه دون استئذان، وحضوره على رأس حملة عسكرية، وتحريضه لفيالق الينكجرية على الانضمام

إليه، هو سوء أدب في حقه كأب، واستهانة بمقامه كسلطان، فرفض أن يقابله، أو أن يتباحث معه، وأمر بالتصدي له، وتشتيت قواته، وإعادته بالقوة إلى طرابزون.

ولم يتراجع سليم، ولم يمتنع عن تحريض قوات الينكجرية؛ أقوى فرق الجيش العثماني وأكثرها تنظيمًا وأعظمها ولاءً للسلطنة، على الانضمام إليه. حدَّثهم طويلًا عن الخطر الشيعي الذي أهمله وزراء أبيه حتى لم يعد إسماعيل الصفوي - شاه فارس - يخفي أطماعه في ضم شرق الأناضول إلى ممتلكاته، واستثار حماسهم للدفاع عن دولة آل عثمان، فأخذوا جانبه، وحاربوا تحت قيادته، وهزموا قوات بايزيد الشيخ، وأجبروه على التنازل عن العرش لابنه سليم.



جنود الإنكشارية العثمانيون

ظل بايزيد وحيدًا في منفاه، يجتر أحزانه على الأبناء الذين فقدهم بالموت، والأبناء الذين شهروا السلاح في وجهه. وبعد شهور قليلة، مات الرجل العجوز إثر تناوله لطعام مسموم، وسرى الهمس في أنحاء البلاد بأن السم قد دُسَّ في طعام بايزيد بأمر من ابنه الخنكار سليم.

وكان طبيعيًّا ألا يقبل الأمير أحمد انتزاع العرش منه بتلك البساطة، فأعلن نفسه سلطانًا، واتخذ من قونية عاصمة له، وأرسل أبناءه إلى الولايات العثمانية الأخرى يجمعون له الأنصار. ورد سليم على ذلك بقتل ثلاثة من أبناء أخيه وقعوا في يده، ثم تحرك على رأس جيوشه فحاصر الأخ المتمرد، وهاجمه وشتت قواته. ووجد الأمير أحمد نفسه وحيدًا بلا أنصار أو أبناء، فتسلل عبر الحدود، ودخل إلى حلب؛ أقرب نيابات السلطنة المملوكية إلى الحدود العثمانية، لعل السلطان المملوكي قانصوه الغوري يمده بمساعدة تمكنه من انتزاع العرش الذي خطفه منه أخوه.

وما كاد خاير بيك أمير حلب ينتهي من مراسم استقبال الأمير العثماني الذي لجأ إليه، حتى وصل سفير من الخنكار سليم يحمل رسالة إلى الغوري يبشره فيها باعتلائه العرش بعد وفاة أبيه، ويحذره - بلهجة رقيقة - من تقديم أي مساعدة تشجع شقيقه الهارب على الاستمرار في تمرده.

رد خاير بيك على الرسالة - بعد أن وصلته تعليمات من القاهرة - فطمأن سليم إلى أن شقيقه المتمرد لن يلقى أي مساعدة من المماليك، وهنأه بولاية العرش، وأبلغه أن السلطان الغوري قد أمر بتزيين القاهرة ابتهاجًا بهذه المناسبة السعيدة.

أدرك الأمير أحمد أن المماليك لن يساعدوه على استعادة عرشه الضائع، فقرر أن يتحالف مع الشاه إسماعيل الصفوي، أعدى أعداء أخيه. وهرب من سوريا إلى مناطق شرق الأناضول حيث كان الصفوي يقيم، وانضم إليه، وأخذ يحرضه على مهاجمة السلطنة العثمانية وطرد سليم وإعادة العرش إليه. ولما يئس من قيام الصفوي بذلك، تسلل عبر الحدود ليجمع لنفسه أنصارًا، ولكن سوء حظه أوقعه بين براثن أخيه، فأمر بخنقه في ٢٥ فبراير/ شباط ١٥١٣م.

وترصد سوء الحظ لمن بقي من ذرية الأمير أحمد بن بايزيد، فقد هرب اثنان من أبنائه إلى مصر بعد خنق أبيهما، لكن الطاعون اغتالهما بعد أسابيع من وصولهما إلى القاهرة، فجنب السلطان الغوري حرج استضافتهما، في وقت لم يكن يريد فيه أن يزيد من توتر العلاقات بينه وبين العثمانيين.

وحين استقر عرش سليم، بدأ يستعد لتنفيذ الأحلام التي ظل يجترها طوال ثلاثين عامًا وهو أمير على طرابزون، تمر أمامه الأحداث، وتعبر على حدوده الجيوش، وينقل له الجواسيس أسرار ما يجري في البلاط الفارسي، ويزوده التجار العثمانيون في القاهرة ودمشق بأحوال السلطنة المملوكية.

كانت أحلام سليم تنطلق من حقائق واضحة لا غموض فيها، فهو يعلم أن قيمة الإمبراطورية العثمانية تكمن في أنها حلقة الوصل بين الشرق والغرب عن طريق البر، وحلقة الوصل بينهما عن طريق البحرين الأسود والمتوسط، وهذا الوضع الجغرافي المتميز هو الذي جعل تجارتها تروج ومكانتها ترتفع.

وخلال ربع قرن فقط بدأت الصورة تتغير، فقد اكتشف الأوروبيون طريق «رأس الرجاء الصالح»، فنقلوا مركز التجارة بين الشرق والغرب إلى المحيط الأطلسي، وتعرضت الموانئ العثمانية على الساحل الشرقي للبحر المتوسط لنفس ما تعرضت له الموانئ المملوكية في الشام. وزاد الطين بلة أن قضى الإسبانيون على آخر مملكة عربية كانت على أراضيهم في سنة ١٤٩٢م، واشتركوا مع البرتغاليين في السيطرة على المغرب العربي، فوقع الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط بأكمله تحت سيطرة الأوروبيين، وواصلوا مطاردة البحَّارة والتجار العرب، حتى أصبحوا على مشارف الحوض الشرقي منه.

وكان الأمل الوحيد في النجاة من هذا المأزق، أن ينجح المماليك في وقف الزحف الأوروبي على البحر المتوسط، وإحياء وتنشيط طرق التجارة المملوكية.

وكان سليم يعلم أن الدولة المملوكية أعجز عن أن تفعل ذلك. كانت دولة الفرسان الضالين المجلوبين من كل أنحاء المعمورة قد شاخت ووهن منها العظم، فتقدم الخنكار سليم خان ليزيحها بجيوشه الفتية، معلنًا شعار فتوحاته: إلى الشرق.

وكان الشرق بالنسبة له يعني مواجهة البرتغاليين في حوض البحر المتوسط، وتأمين طريق التجارة العثمانية، فضلًا على الأرباح الضخمة التي ستتحقق لآل عثمان عندما يسيطرون على موانئ الإسكندرية ودمياط والقصير، وموانئ الشام وفلسطين، تلك الموانئ التي ملأت خزائن سلاطين المماليك بالذهب أحمالًا وقناطير.

بدأ سليم أولى خطواته نحو الشرق، بالهجوم غربًا، فقد كان يريد

أن يؤمِّن حدوده قبل أن ينطلق في رحلته الطويلة إلى الشرق، لذلك بدأ حروبه بالهجوم على الصفويين، وكتب رسالة ودية «لوالده العزيز» السلطان الغوري ينبئه فيها بأنه سيتوجه لقتال الصفوي، ويطلب دعاءه له بالنصر.

وصلت الرسالة إلى القاهرة في مايو/ أيار سنة ١٥١٤م، فاجتمع الغوري بكبار الأمراء، وبعد أن تشاوروا في الأمر، استقر رأيهم على إرسال بعض فِرَق الجيش المملوكي إلى حلب، لتترقب نتائج الصراع بين العثمانيين والصفويين، خشية أن يغتر المنتصر منهما بقوته فيهاجم الحدود المملوكية.

وخرجت التجريدة في نفس الشهر، لكنها لم تشترك في قتال، أو تحمي حدودًا، كل ما فعله جنودها الذين تجاوزوا الألفين، أن قبضوا رواتبهم المتأخرة، ورواتب أربعة أشهر قادمة. وعندما وصلوا إلى حلب عاثوا فيها فسادًا، فقتلوا الأطفال، واغتصبوا النساء، وحرقوا المساكن والدور. واضطر خاير بيك نائب حلب للتدخل بجنوده ليحمي المدينة من الدمار، فنشبت الحرب بين الفريقين، وانتشرت الفتنة في أرجاء المدينة حتى كادت تخرب عن آخرها. واضطر خاير بيك للفرار، وغادر المدينة معظم أهلها.

أحد الجنود الينكجرية العثمانيين

فأرسل الغوري يستدعي التجريدة، فعاد جنودها متفرقين، ولم يردوا ما صرفه لهم السلطان من خيول وأسلحة وأمتعة، وزعموا أنهم باعوها ليعيشوا بثمنها.



إسماعيل الصفوي مع كوكبة من فرسانه

وبينما كان المماليك يعيثون فسادًا في حلب، ويحاربون أهلها، كان السلطان سليم قد انتصر على الفرس في معركة «جالديران»، واستدار عائدًا إلى إستانبول، فسمع وهو في طريق عودته أنباء الحشود العسكرية المملوكية التي وصلت حلب، وعلم من سنان باشا رئيس وزرائه أن إمارة ذي القادر رفضت أن تقدم أي مساعدات للجيش العثماني عند مروره بالقرب من حدودها، بل إن حاكمها الأمير علاء الدولة تصدى لفرق الجيش العثماني التي جاءت تطلب المؤونة وتؤمن المواصلات، فحاربها وهزمها. ومع أن علاء الدولة هو جد سليم لأمه، فقد كان حليفًا للمماليك، فاعتبر سليم تصرفه ذاك - بالإضافة للحشود المملوكية في

حلب - دليلًا على أن هناك تربصًا مملوكيًّا بجيشه، وشك في أن يكون الغوري قد تحالف مع الصفوي ضده، خاصة أن بعض جواسيسه كانوا قد أبلغوه بأن الغوري قد استقبل سرًّا سفيرًا فارسيًّا حمل له رسالة من الشاه إسماعيل الصفوي.

أمر سليم أحد رجال دولته بعبور الحدود للاستفسار عن موقف المماليك من الصراع الدائر بين العثمانيين والفرس. واستقبل خاير بيك نائب حلب السفير العثماني، واستبقاه حتى يصله رد من السلطان، ثم كتب رسالة مطولة للسلطان سليم أكد له فيها أن الغوري لم يستقبل أي رسول من الصفوي، وأضاف - تعبيرًا عن صداقته للعثمانيين - أن الجواسيس الذين وصلوا من بلاد فارس في الأسابيع الأخيرة قد أخطروه بأن إسماعيل الصفوي في مكان يسمى «فرقان»، وأن أحواله الحربية ليست على ما يرام، إذ لم يبقَ معه سوى جند قليل.

لكن ذلك لم يمنع سليم من التحرك بسرعة خشية أن تضيع الفرصة، فأمر الصدر الأعظم سنان باشا رئيس وزرائه، بأن يقضي على عرش جده علاء الدولة، عقابًا له على موقفه غير الودي من العثمانيين، وضمانًا لتطهير خطوط القتال التي سيستخدمها الجيش العثماني إذا ما عاد لاستئناف الحرب ضد الصفويين، أو ضد المماليك.

تحرك الصدر الأعظم سنان باشا إلى إمارة ذي القادر في صيف سنة ١٥١٥م، في جيش يصل إلى عشرة آلاف جندي، فاجتاح الإمارة، وقتل أميرها علاء الدولة وأربعة من أولاده وثلاثين من أمرائه، وعيَّن عليها أميرًا مواليًا للعثمانيين.

أدرك الغوري على الفور أن اجتياح الإمارة هو مقدمة لغزو سوريا، وازداد يقينًا بأن هدف سليم الحقيقي هو التوسع في الشرق. ومع ذلك آثر أن يجس النبض، فكتب رسالة رقيقة إلى السلطان العثماني، يُذكره فيها بصداقتهما الماضية، ويحتج على ما جرى لإمارة ذي القادر، ويطالب بعودة الدعاء له على منابر المساجد، وأن تسك النقود باسمه، كما كان الحال قبل مقتل علاء الدولة.

قرأ سليم رسالة الغوري، وقال لسفيره ساخرًا:

- فلتقرأ الخطبة له وتسك النقود باسمه في مصر إن استطاع.

وقبل أن يعود السفير المملوكي برد سليم الغريب، كان الغوري يستقبل في القاهرة سفيرًا عثمانيًّا جاء برسالة الفتوح تحمل أنباء انتصار العثمانيين على إمارة ذي القادر، وبعد أن تلا الرسالة، انحنى أمام السلطان، وقال:

- إن ابنكم السلطان سليم قد حملني هدية سوف تسر خاطركم.

وتقدم أربعة من العبيد يحملون صندوقًا خشبيًّا متوسط الحجم، فتحه السفير وأخرج منه ثلاثة رؤوس، هي رأس علاء الدولة ورأس أحد أبنائه ورأس وزيره الأول. وفوجئ الغوري بمشهد الرؤوس المقطوعة التي تجلط الدم على ما يحيط بها من شعر، فصاح غاضبًا في وجه السفير:

- ما هذا؟! لماذا أرسل إليَّ هذه الرؤوس؟! أهي رؤوس ملوك الفرنج الذين انتصر عليهم؟

وأمر على الفور بدفن الرؤوس، وأرسل يطلب كبار الأمراء، وشرح لهم الموقف، فانهالوا عليه لومًا وتأنيبًا، وقال له أحدهم:

- يا مولانا السلطان، معظم البلاد الحلبية خرجت من أيدينا وصارت بيد ابن عثمان، وخُطب فيها باسمه، وسُكت له النقود، وقد فسدت أحوال المملكة، ويدك يا مولانا في الماء البارد.

وشقَّ كلام الأمراء على السلطان الغوري ففض الاجتماع، واعتكف في دور الحريم ثلاثة أيام، فلم ينزل الميدان، ولا حكم بين الناس، ولم يقابل أميرًا أو سفيرًا، ولم يعرف أحد ماذا كان يفعل. وتبادل الناس الهمس في القاهرة، وتزايدت الشائعات بأن السلطان قد يرسل تجريدة أخرى إلى البلاد الشامية. وحين عاد السلطان من اعتكافه، كان قد اتخذ قراره، فطاف المنادي بدور كبار الأمراء، وصاح في شوارع القاهرة:

- بأمر مولانا السلطان، يستعد العسكر للسفر إلى حلب.

فهل كانت تلك أولى الخطوات إلى الهاوية؟



أمام منزل مملوكي في القاهرة

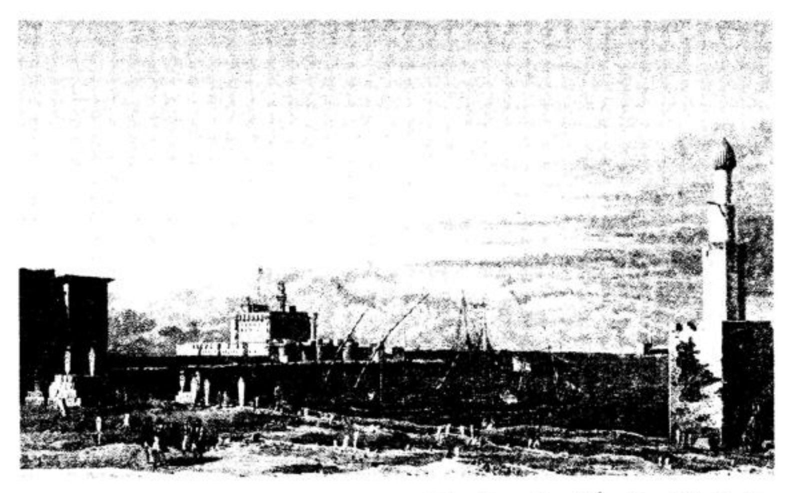
في الطريق إلى الهاوية

قُضي الأمر، ولم يعد هناك من الحرب مفر، وآنَ للغوري أن يحصد الشوك الذي بذره مَن سبقه من السلاطين، وسقاه هو ورعاه، فتفرَّع حوله، آنَ لجيشه المنقسم الضعيف أن يواجه جيشًا موحدًا قوي التسليح والتنظيم، وآنَ لدولته الشائخة التي يرفع رعاياها أكُفَّهم إلى السماء، داعين الله ليل نهار، أن تزول، أن تتصدى لدولة فتية ترفرف أعلامها فوق جيوش لا يحدُّها بصر، ويقودها سلطان طَموح، يعتبر الرحمة فضيلة تافهة، ويؤمن بأن الأخلاق والقيم عملة زائفة.

بعد أيام قليلة من اجتماع السلطان وأمرائه، غادر القاهرة في رحلة إلى الإسكندرية ودمياط ورشيد، وفي صحبته معظم رجال الدولة. تفقد السلطان خلال رحلته أوضاع الدفاع عن السواحل المصرية المطلة على البحر الأبيض المتوسط، فزار أبراجها، وأمر بترميم ما تهدم منها، وأشار ببناء سور يفصل رشيد عن البحر، ونبَّه المسؤولين عن الثغور والقلاع إلى اليقظة التامة، لاحتمال قيام العثمانيين بغزو بحري.

وعاد الغوري إلى القاهرة بعد عشرة أيام من مغادرته لها، ليجد المشاكل قد تعقدت، والأزمات قد تكاثرت، فالسفر إلى الحرب هو

الفرصة التي ينتهزها المماليك للسلب والنهب والتخريب والتدمير، فما إن سمعوا المنادي يذيع الخبر، حتى نزلوا من القلعة، يقتنصون الدواب التي تموج بها شوارع القاهرة، فهجموا على الحارات والبيوت، وأخذوا بغال القضاة والعلماء والتجار، وأنزلوا الفقهاء من على حميرهم واستولوا عليها. ولم يسترد الذين احتجوا على ذلك دوابهم، بل فقدوا معها كرامتهم، فقد أهانهم المماليك وضربوهم وصاحوا في وجوههم: «نحن نسافر لنحارب عنكم، وتستكثرون علينا بغلة!».



ميناء الإسكندرية في أواخر العصر المملوكي

وقبل أن تعود المدينة للهدوء، أثار المماليك القرانصة مشكلة جديدة، فقد رفضوا السفر إلى الثغور لدعم دفاعها، وغضب السلطان لأنهم غيَّروا موقفهم بعد أيام قليلة من اتفاقه معهم، وصاح فيهم:

- ليكن في علمكم أن ابن عثمان قد جهز مراكب تجيء من البحر إلى الإسكندرية ودمياط، وقد قبضتم النفقة ووعدتموني بالسفر، فماذا جرى؟

وما كاد السلطان ينتهي من كلامه، حتى انطلق المماليك القرانصة يتكلمون في نفس اللحظة:

- أنت ساويت في النفقة بين من يسافر إلى رشيد ودمياط، وبين من يذهب إلى جدة والقلعة! لماذا تكون نفقتُنا خمسين دينارًا، ونفقة الجلبان أضعاف ذلك؟ ألأنهم رجالُك؟!

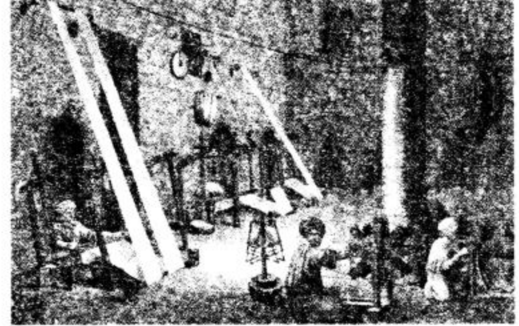
أغضبت وقاحتُهم السلطان فصرفهم حانقًا متوعدًا.

وقبل أن يعثر على حل للأزمة التي أثاروها، بدأ المماليك الجلبان تمردهم. تجمعوا في فناء القلعة، وصعدوا إلى الأدوار العليا من ثكناتهم، واستمروا ليلةً بطولها يقذفون الحجارة من أعلى أسوار القلعة على المارين في شوارعها. وفي الصباح نزل السلطان إلى ميدان الرميلة أسفل القلعة، وترددت الرسل بينه وبين المتمردين، وأرسل السلطان من يقول لهم: «لن أصرف نفقة إلا لمن يسافر إلى حلب، ولن تزيد النفقة عن خمسين دينارًا».

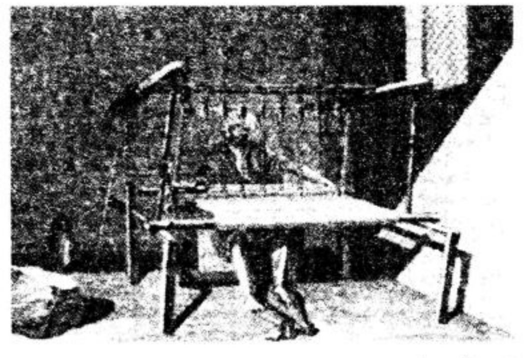
لكن التمرد كان أوسع مدًى مما قدَّر السلطان، فالمماليك الجلبان لا يريدون هذه المرة النفقة وحدها، ولكنهم يطالبون بتخفيض الضرائب على السلع الغذائية، وعزل المحتسب والوالي والوزير، لأنهم مسؤولون عن الغلاء الفاحش.

رفض السلطان أن يناقش أي مطلب من مطالب المماليك إلا إذا فضوا تمردهم أولًا، وأصروا هم على عزل المسؤولين الثلاثة أولًا، وأضافوا





عمل البرودريه داخل إحدى ورش النسيج



نسج الصوف

إليهم أثناء المفاوضة رابعًا، هو المسؤول عن الخزائن السلطانية، لأنه كان يعرقل تنفيذ أوامر السلطان بصرف بعض مخصصاتهم.

طالت المفاوضات واقتربت صلاة الجمعة، فغادر السلطان الميدان صاعدًا إلى القلعة ليصلي في مسجدها، فأغلق المماليك المتمردون في وجهه باب السبع حدرات، ورجمه بعضهم بالحجارة، فأصابه حجر في عمامته، وسبه الآخرون بعبارات فاحشة.

أدرك الغوري وهو يتراجع أمام وقاحة مماليكه أن الفتنة أوسع مما قدَّر، فرجع إلى الميدان، وغادر القلعة إلى جزيرة الروضة، ومنها إلى مقياس النيل، فأقام في استراحة هناك.

وحين صعد كبار الأمراء ليُصلوا في جامع القلعة، اكتشفوا ما حدث، فأسرعوا بعد الصلاة إلى جزيرة الروضة، وكانوا ستة عشر أميرًا، وحاولوا إرضاء السلطان، والاعتذار عما فعله مماليكه، لكنه كان ثائرًا فرفض النقاش وصاح فيهم:

- أنا ما بقيت أعمل سلطانًا، ولُّوا عليكم من تختارونه غيري!

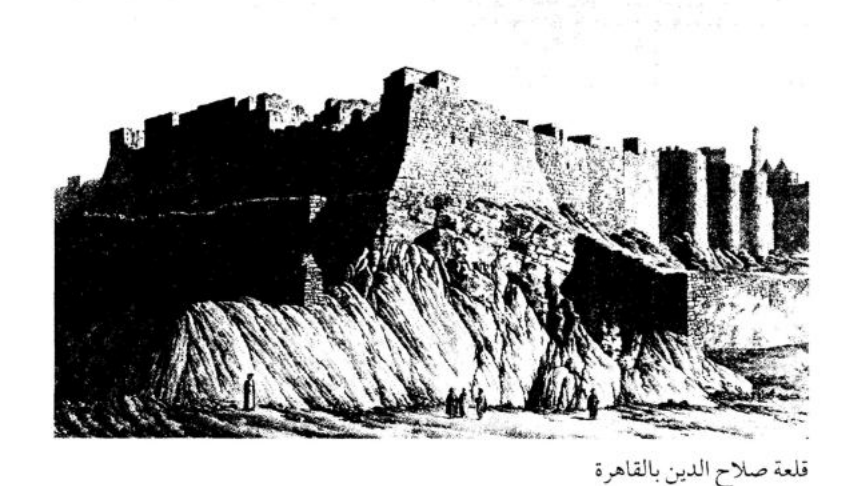
وذُهل الأمراء، فقد كانوا يظنون أنها مشكلة هينة مما يسهل حله، فإذا بالأمر ليس كذلك، وإلا لما تنازل السلطان عن العرش في وقت تزدحم فيه الجيوش العثمانية على الحدود الشمالية للسلطنة، وتهدِّد أساطيلُ الأعداء ثغورها.

لم يكن الحفاظ على عرش الغوري يهمهم، لكن الصعود إلى العرش فوق الأشواك التي تحيط به آنذاك لم يكن سهلًا، وكان معظمهم يتمنى أن يترك الغوري العرش، ولكن في ظروف ميسرة، لا تهديد فيها بغزو خارجي، ولا خوف من تمرد داخلي. أما وهذا هو الوضع،

فليبقَ الغوري على عرشه. ولذلك ألحُّوا عليه بالبقاء، فلما وجدوه ثائرًا غاضبًا، آثروا أن يبيتوا معه في المقياس، إظهارًا لتضامنهم معه ووقوفهم في صفه.

وعند غروب شمس اليوم نفسه، نزل عدد كبير من المماليك الجلبان إلى المدينة لينهبوا بيوت الأمراء الذين باتوا في المقياس مع السلطان، ولكنَّ العاقلين منهم رفضوا ذلك لأنه سيثير عليهم الجميع، فاكتفى الثائرون بنهب دكاكين الشمع والحلوى والخبز بشارع الصليبة القريب من القلعة.

وفي الصباح لحق بقية الأمراء بزملائهم في المقياس، وواصلوا الإلحاح على السلطان ليعدل عن موقفه. وعندما هدأ غضبه، أرسل إلى زعماء التمرد، فقابلوه في المقياس، وشكوا له حالهم، فالإقطاعات



قلعة صلاح الدين بالقاهرة



مقياس الروضة

التي وزعها على بعضهم لم تُسلَّم لهم إلى الآن، والبعض الذي يحوز إقطاعًا بالفعل طولب بالضرائب مقدمًا وقبل جني المحصول بمدة طويلة، وراتبهم اليومي من اللحم لم يصرف لهم منذ أربعة أشهر، وأسعار البضائع تتضاعف كل يوم بسبب الضرائب المرتفعة التي يفرضها المحتسب على السوقة، ولخص أحدهم الأمر كله فقال:

- إن كل شيء غالٍ، حتى القماش والتبن! وجامكيتنا (مرتباتنا) لم يعد فيها بركة!

استمع السلطان بصبر لمماليكه، وألان لهم جانبه، ووعدهم بتنفيذ مطالبهم إذا ما أنهوا تمردهم، ثم ختم حديثه لهم قائلًا:

- إن العدو متحرك علينا، فلا تُشمِّتوا ابن عثمان فينا، ولا تسمعوا للمماليك القرانصة كلامًا، لأنهم يوقعون بيني وبينكم!

أمر السلطان فجاءوا بالمصحف، ووضعوه على مكان في صدر المجلس، وتقدم قادة الجلبان، واحدًا بعد الآخر، فأقسموا بأن يُخمدوا الفتنة، وأن يكونوا تحت طاعة سلطانهم، فلا يخونوه، ولا يغدروا به، أو يتآمروا عليه!

رضخ السلطان لبعض ما طالب به مماليكه، فألغى الضرائب على الغلال، وعلى السلع الغذائية، وكثَّف نشاطه في جمع الجنود، وإعداد معدات الحرب، فواصل العمل ليلَ نهار، يستعرض فرق الجيش

واحدة بعد أخرى، فيختار من جنودها أكثرهم لياقة للحرب، ويسافر إلى النواحي المختلفة، يتفقد الجسور والطرق، ويواجه المشاكل المتعددة التي يثيرها المماليك أوقات سفر الحملات.

بدأ السلطان بكبار الأمراء، فاختار منهم خمسة عشر أميرًا من رتبة مقدم ألف، ثم استعرض الرتب التالية من الأمراء، واختار من كل رتبة عددًا، وصرف لبعضهم من مخازن الجيش سروجًا وأدوات قتال، وألزم آخرين بأن يصحب كلٌّ منهم معه خمسة مماليك، وطلب منهم العودة لعرض آخر بعد أن يُنفذوا ما فرضه عليهم.

دفع الغوري إلى صفوف الجيش بكل قادر على حمل السلاح، فأمر مماليكه الجلبان جميعًا بالسفر، ولم يستثنِ سوى صغار السن منهم. وسحب من حاميات الأقاليم أكثر جنودها شبابًا وأوفرهم قوة، وألحقهم بالحملة. وأمر الطاعنين في السن من المماليك القرانصة بالحلول محلهم.

ودفعته لهفته لجمع أكبر عدد من الجنود إلى تصرفات حمقاء، عانى من نتائجها بعد ذلك كثيرًا، فقد أمر بجمع عشرين ألف فارس من قبائل العربان في الصحراء الشرقية والغربية والصعيد ليكونوا في مقدمة الجيش وقت الحرب، فأسرع مشايخ العربان وفرضوا على كل قرية مائتي دينار نفقة للفرسان. وعندما سمع الفلاحون بذلك، هربوا من القرى وتركوا زروعهم في الأرض، وثار كبار أمراء المماليك على السلطان، فمعنى هروب الفلاحين هو خراب بيوتهم، لأن الأرض أرضهم، وما عليها من زرع ملكهم. وصاح الأمراء في وجه السلطان:

- أنسافر معك فتخرب بلادنا؟!

وخجل السلطان منهم، فعدل عن المشروع، وواصل دعم صفوف الجيش بكل من يستطيع ضمه إليه، فجمع كثيرًا من العمال والصُّناع وأرباب الحرف من البنائين والحجارين والنجارين وخدم الخيل وقراء القرآن الكريم والوعاظ والمؤذنين والطّبال والزُّمار والمغنين.

وبدأت كتائب الجيش تخرج واحدة بعد أخرى من القاهرة لتستريح قليلًا في الريدانية القريبة منها، ويلتحق بها المتخلفون من الجنود لأسباب قاهرة، ثم تنطلق إلى صحراء سيناء، ومنها إلى فلسطين، ثم شمالي سوريا.



شيخ القاهرة

وقبل أن يخرج الغوري على رأس كتيبته الخاصة، جاءته رسالة من خاير بيك نائبه على حلب، تقول بأن السلطان العثماني لا ينوي مهاجمة سوريا، وتؤكد بأنه يتحرك خلف بقايا جيش عدوه إسماعيل الصفوي، وتنصح بالتريث في الخروج بالجيش.

وفي الأسبوع نفسه، تسلم السلطان رسالة أخرى من نائبه على دمشق الأمير سيباي تحمل المعنى نفسه تقريبًا، إذ اعترض على خروج التجريدة إلى حلب، شاكيًا من أن أحوال البلاد الشامية لا تحتمل استقبال الجيش، فالغلاء قد زادت حدته، والزروع في الأرض لم تُحصد بعد، والعليق قليل. وختم سيباي رسالته مؤكدًا للسلطان أنه لا مبرر لقدوم الجيش، فالعدو لم يتحرك بعد، وفي جند الشام كفاية لمواجهة الجيش العثماني إذا هاجم الحدود.

لم يهتم الغوري كثيرًا بتقارير نواب الشام حول نوايا سليم، وكان رأيه قد استقر على السفر إلى حلب حتى لو كان الأمر حربًا بين الصفوي وسليم، ليكون قادرًا على ردع المنتصر منهما إذا فكر في التوسع على حساب السلطنة المملوكية.

وبعد أن اطمأن الغوري لخروج كل فرق الجيش، تحرك هو نفسه، فشق القاهرة في موكب لم يسبق له مثيل، يتقدمه خمسمائة جَمل تحمل كل ما ادَّخره الغوري في خزائنه منذ أول سلطنته، من الأموال والأسلحة والذخائر والتحف النفيسة، وما ورثه من ذخائر أسلافه وأسلحتهم وتحفهم.

ومر الموكب من القلعة إلى باب الوزير، فباب النصر، ومنه إلى الريدانية، فارتجَّت القاهرة، وارتفعت الأصوات له بالدعاء، وزغردت النساء في مشربيات المنازل.



مواطن من سيناء وأحد رجال الواحات

وبينما السلطان يشرف في الريدانية على ترحيل فرق الجيش واحدة بعد الأخرى، وصلته رسالة أخرى من خاير بيك. وقال نائب حلب في رسالته إن سفيرًا عثمانيًا قد عبر الحدود برسالة من السلطان سليم للغوري، وإنه احتجزه حتى يرد السلطان على الرسالة العثمانية.

وقرأ الغوري ما كتبه له سليم، فوجده يخاطبه كالعادة بقوله «والدي العزيز»، ويزعم بأنه سيواصل مطاردة الصفويين، ويطلب منه الدعاء له بالتوفيق، ولجنوده بالنصر، وتكليف مشايخ الطرق الصوفية بنفس المهمة.

ومع أن الرسالة قد أشاعت جوًّا من التفاؤل في دوائر المماليك، إلا إن الغوري واصل تقدمه إلى حلب فمرَّ بقطيا وغزة، والهواجس تملأ صدره.

ما سر هذا الإلحاح على إبقائه في مصر؟

ولماذا يحاول سيباي وخاير أن يبعداه عن حلب؟

هل خانه الرجلان واتفقا مع العثمانيين ضده؟

هل يريدان بتقاريرهما المطمئنة إبعاده عن الحدود حتى يستكمل العثمانيون استعداداتهم ويهجموا فلا يجدوا من يصدهم، ويكافئوا أحد الخائنين بعرش السلطنة والآخر بمنصب الدوادار الكبير؟

ولِمَ لا؟ ألم يشترك سيباي في مؤامرة لقلب نظام الحكم مع قايت الرجبي؟

وماذا يحول بين خاير بيك وبين التواطؤ معه أو مع العثمانيين؟ ألا تنازعه نفسه للجلوس على العرش؟ وهو بعد هذا نائب حلب منذ اثني عشر عامًا، وقد ظل طوال تلك السنوات طرفًا في العلاقات المملوكية العثمانية، فحلب هي أولى المدن المتاخمة لحدود العثمانيين، يتسلل المتمردون من أمراء آل عثمان إليها، ومنها يفرُّ العصاة من أمراء المماليك إلى الأرض العثمانية، وكان سفراء السلطان العثماني يصلون إلى حلب فيتسلم واليها ما يحملون من رسائل، فيقرأها قبل أن يرسلها إلى القاهرة.

إنه أقرب ما يكون إلى العثمانيين، بل هو يرى سفراءهم أكثر مما يرى سلطانه، ويعرف من أحوالهم أكثر مما يعرفه الغوري!

ماذا يجول بين خاير بيك وبين الطموح للعرش، وهو حرٌّ لم يسرقه نخاس، ولم يتقاضَ أبوه ملباي له ثمنًا، بل سعى به من بلدة صمصوم؛ إحدى قرى بلاد الكرج، وقدَّمه وأربعة من إخوته هدية للسلطان المملوكي قايتباي لعل الأيام تدور فيصبح أحدهم سلطانًا. وها قد دارت الأيام فالتَهم الطاعون ثلاثة من أبناء ملباي، وصعد خاير وشقيقه الأكبر قانصوه البرجي إلى أعلى مراتب الإدارة، ومات الأخ الأكبر دون أن يتجاوز منصب نائب الشام. فهل يقود الطموح خاير بيك لتحقيق حلم أبيه، فيتواطأ مع سيباي ويسلمان السلطنة لابن عثمان؟

شيء واحد كان يطمئن الغوري، فكلا الرجلين لا يطيق الآخر، وبينهما تنافس وتسابق منذ دخلا معًا سلك مماليك قايتباي الكبير، حتى إن خاير بيك وقف في صف الغوري عندما تمرد عليه سيباي، فقاد الحملة التي استولت على دمشق.

وحين دخل الغوري دمشق بجيوشه، في طريقه إلى مرج دابق، قضى سبعة أيام مع سيباي، ناقشه خلالها طويلًا، واستوثق من إخلاصه له، ثم صحبه معه على رأس قواته إلى حمص وحماة، فاحتفل به نائبها، جان بردي الغزالي، احتفالًا عظيمًا، وانضم إلى موكب السلطان بقواته. ودخل الجميع حلب يوم ١١ يوليو/ تموز سنة ١٥١٦م، فوجدوا خاير بيك في انتظارهم، وتقدم فحمل المظلة على رأس السلطان، تكريمًا وتوقيرًا وإجلالًا!

بعد أيام من وصوله إلى حلب، استقبل الغوري بعثة عثمانية برئاسة القاضي زبرك زاده، كانت آخر محاولات سليم لخداع الغوري والتمويه عليه. فقد تقدَّم القاضي، فانحنى أمام الغوري وتأدب في حديثه معه،

وحين سأله الغوري عن أحوال السلطان سليم، قال بنبرة ودودة:

- إنه ولدك، وتحت نظرك.

فرد عليه الغوري مموهًا:

-- لولا أنه مثل ولدي ما جئت من مصر إلى هنا بأهل العلم جميعًا حتى نصلح بينه وبين الشاه إسماعيل.

وأفاضت البعثة العثمانية في شرح ظروف الصراع بين سليم والصفوي، وأطلع رئيسها الغوري على الفتاوى التي أصدرها علماء الإسلام في إستانبول بإهدار دم الصفوي. وختم زبرك زاده حديثه قائلًا:

- لقد أمرني السلطان سليم أن أُنفذ ما تأمرني به. ولا طلب له إلا أن تكون على الحياد في الحرب بينه وبين الصفوي.

وعندما شعر الغوري بلهجة الود التي تحدثت بها البعثة العثمانية، كتب رسالة رقيقة للسلطان سليم، وأرسلها مع بعثة عسكرية ضمت عشرة من كبار قادة الجيش المملوكي، على رأسهم الأمير مغلباي.

وشاء حظ مغلباي التعس أن يصل إلى معسكر السلطان سليم في اللحظة التي كان الخنكار قد قرر فيها أن يكشف القناع عن وجهه. فقد استراح جيشه، وتكاملت قواته، فلم يعد في حاجة للتمويه على الغوري، أو لإخفاء أهدافه عنه.

فما كاد مغلباي يتقدم للقاء الخنكار على رأس بعثته، وقبل أن ينطق بكلمة من الرسالة التي جاء بها، بادره السلطان سليم قائلًا:

- يا مغلباي، أستاذك ما كان عنده رجل من أهل العلم يرسله لنا؟! هل أرسلك وهؤلاء العشرة ليخوِّفني؟!

أُرْتِجَ على السفير، وذهل عن نفسه، وقبل أن يعثر على كلمات ينقذ بها مهمته من الفشل، صرخ السلطان يطلب سيَّافه ليطيح برؤوس البعثة.

ارتبك كل من حضر المقابلة من رجال البلاط العثماني، ولم يتدخل أحد منهم، وكان الوزير العثماني يونس باشا أول من تمالك نفسه من المفاجأة، فانحنى بين يدي السلطان، وقال بصوت هادئ حاول أن يخفي رجفته:

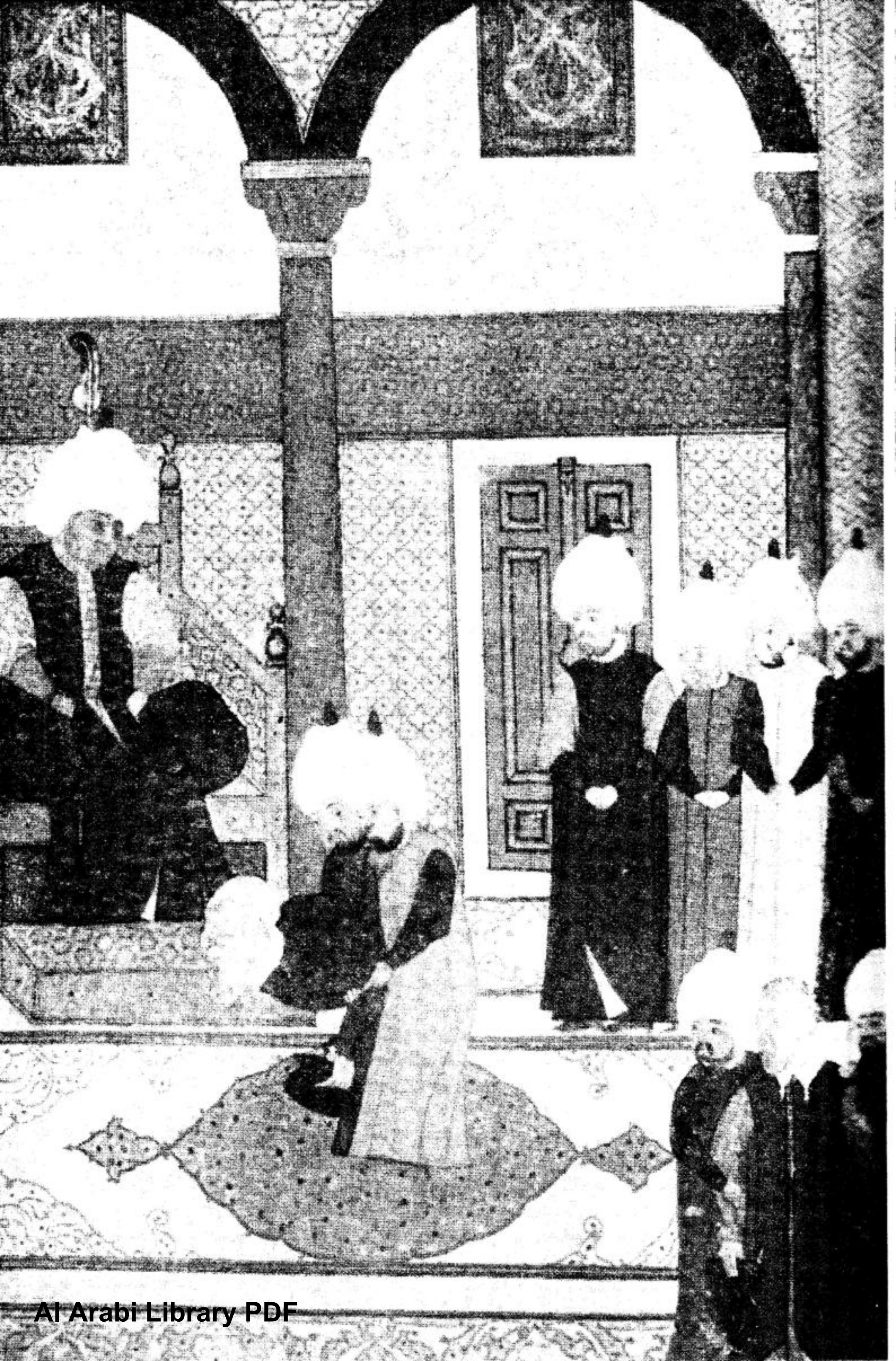
- يا مولانا، الرسول لا يُقتل، فليس له ذنب!

شجع كلام يونس باشا الآخرين، فتدخلوا في الأمر، وألحوا على الخنكار طويلًا، ونبهوه إلى أن البعثة التي أرسلها برئاسة القاضي زبرك زاده لا تزال في الطريق بين حلب والأراضي العثمانية، وأن قتل السفراء سيكون قاعدة يطبقها الغوري على السفراء العثمانيين. وبعد إلحاح طويل استثنى الخنكار مغلباي من أمر القتل، وأمر بسجنه في إحدى القلاع، وتنفيذ حكم الإعدام في الآخرين أمام باب زنزانته.

وبعد أن أطاح السياف برؤوس أعضاء البعثة، أمر الخنكار فجاءوا برئيسها مغلباي، وحلقوا له ذقنه، وألبسوه طرطورًا، وأركبوه على حمار أعرج. ونظر إليه الخنكار، وقال له ساخرًا:

- قل لأستاذك يلاقيني على مرج دابق.

عاد مغلباي في صورته المضحكة تلك، يحمل سخرية سليم واستهانته بالغوري، ويحمل فوق ذلك الجديد من أنباء السوء، فقد مر على عينتاب فعلم أن نائبها يونس العادلي أعلن العصيان، وأغلق المدينة أمام الجيش، وصرح بأنه سيسلمها للعثمانيين.



بدأت الخيانة قبل أن تبدأ الحرب، بل حاول الخائن يونس العادلي أن يستمر في خديعته، فوصل في اليوم التالي إلى حلب، وزعم أن السلطان سليم قبض عليه وأعاقه عن اللحاق بسلطانه، ولكنه استطاع أن يهرب ليكون في شرف خدمة الغوري عندما يأتي وقت الحرب.

استمع الغوري إلى قصة يونس العادلي دون أن ينطق بكلمة واحدة، وحط الصمت على كبار الأمراء الذين اجتمعوا في خيمته بحلب، ليسمعوا أقوال نائب عينتاب. وبعد أن أنهى النائب الخائن دفاعه، أشار السلطان للسياف، فضربه على وسطه فقسمه إلى نصفين.

كان الدم لا يزال يسيل من جثة العادلي، والأمراء يتبادلون نظرات صامتة، حين قام الأمير سيباي نائب الشام، فقبض على زميله خاير بيك نائب حلب، وجرَّه من طوقه بين يدي السلطان، وقال:

- يا مولانا السلطان، إذا أردت أن ينصرك الله على عدوك، فاقتل هذا الخائن.

كانت الحركة مفاجئة إلى الدرجة التي جعلت معظم الأمراء عاجزين عن التصرف، وكان السياف لا يزال ينظف سيفه من دم نائب عينتاب، فتوقف في انتظار كلمة من السلطان. وكان أول من تحرك هو الأمير جان بردي الغزالي، فقد قفز فخلص خاير بيك من بين يدي سيباي، وقال مخاطبًا السلطان:

- يا مولانا السلطان، لا تفتن العسكر فيبدأوا في قتال بعضهم بعضًا، وتذهب أخبارنا إلى عدونا فيزداد طمعًا فينا وتضعف شوكتنا!

استعرض السلطان بعينيه كبار الأمراء واحدًا بعد الآخر، دون أن يلفظ حرفًا، ثم أمر فأحضروا مصحف الخليفة عثمان بن عفان، وأقسم

الأمراء جميعًا ألا يخونوه، أو يتآمروا عليه، وأقسم لهم ألا يغدر بهم، ورفع الجميع أكُفَّهم إلى السماء ودعوا أن يُخوِّن الله الخائن، وفي الصباح رحلوا إلى مرج دابق.

كان الظلام قد اشتد، والسلطان الغوري ينتقل من تل إلى تل، وخلفه عدد قليل من خاصته: صديقه إبراهيم السمرقندي، والعجمي الشقنجي مهرجه ومضحكه، وبعض الحراس.

واقترب السمرقندي من السلطان وقال:

- ألا تعود إلى خيمتك يا مولانا فتستريح قليلًا، فلا أحد يعرف ما ينتظرنا في الصباح؟

لفتت الكلمة انتباه الغوري الذي كان شاردًا في خواطره وهمومه. تُرى أيعرف السمرقندي شيئًا؟ هل خانه هو الآخر؟ من أين أتى بذلك اليقين بأن شيئًا قد يحدث في الصباح؟! ظلام الليلة ثقيل، لولاه لتفحص ملامح السمرقندي لعله يفهم مغزى ما يقول. ولماذا اقترب الشقنجي من إبراهيم؟ هل غمزه بيده؟ هل يخفي الرجلان شيئًا عنه؟

لا أمل الآن في معرفة شيء.

نظر السلطان الغوري إلى شبح معسكره الضخم، ثم تنهد وقال:

- قلبي خائف منك يا مرج دابق.

عفارم خاين بيك!

■ مرج دابق

■ الأحد ٢٤ أغسطس/ آب ١٥١٦م

كان ضوء الفجر ما زال مشتبكًا ببعض من ظلمة الليل حين ظهرت طلائع الجيش العثماني. ولما أُبلغ النبأ للسلطان الغوري قام فصلى الصبح، وبرز من خيمته بملابس القتال، وأخذ يرتب قلب الجيش، وكان يضم الأمراء والمماليك الذين صاحبوه من مصر. وطبقًا للخطة الموضوعة، كان السلطان قائده العام، وكان معه قائد تنفيذي هو الأمير سودون العجمي أتابك العسكر.

وقف السلطان على صهوة حصانه، وخلفه الراية السلطانية، وحوله أربعون مصحفًا شريفًا في أكياس من الحرير الأصفر، يحملها جماعة من الأشراف؛ سلالة الرسول، وفيها المصحف الذي كتبه بخطه الإمام عثمان بن عفان، ثم جماعات من الصوفية بأعلامهم الحمراء والخضراء، وقضاة الشرع والخليفة، ثم القسم العسكري من القلب، يقوده الأتابكي سودون، ويضم المماليك القادمين من القاهرة، وقد وُزعوا على قسمين، ضم الأول المماليك الجلبان، الذين اصطفوا أمام

السلطان ليحموه أثناء القتال، وضم الثاني الأمراء المقدمين، كلًّا على رأس جنوده ومماليكه، ثم الأمراء من بقية الرتب على نفس النسق.

على اليمين وقف الأمير سيباي نائب دمشق، وصهر السلطان، على رأس جنوده ومماليكه ومن انضم إليهم من أهل الشام. أما الميسرة فكانت تضم مماليك حلب، يقودهم نائبها خاير بيك بن ملباي.

اقترب الجيشان حتى أصبح كلٌّ منهما بإزاء الآخر. وعندما وضحت خطوط العثمانيين، اكتشف المماليك أنها مُشكَّلة بطريقة مختلفة عما تعودوه، فقد كانت مقدمة جيشهم مغطاة بستار حصين من العربات، بينما كان الجناحان في حماية المدفعية الثقيلة التي أبى الغوري أن يزود بها جيشه.

بدأت المعركة بهجوم صاعق شنَّه أصلان بن بداق، نائب حمص، مع مماليكه، على خطوط العثمانيين، وتبعه في الهجوم الجناح الأيمن بقيادة سيباي، وشاركته في ذلك قوات القلب بقيادة الأتابكي سودون. وبرغم عنف الهجوم وكثافته، وشجاعة القائمين به، فقد صدته المتاريس التي غطى بها العثمانيون مقدمة جيشهم، بينما انهالت طلقات ثلاثمائة مدفع ثقيل من اليمين ومن اليسار، يغطي دخانها تحرك الينكجرية لينقضوا على من تجاسر من فرسان المماليك، وألقى نفسه في نيران المعركة.

أصدر السلطان الغوري أمره لقوات المقدمة بالالتحام في المعركة، ومواصلة اختراق متاريس العثمانيين، لنقل المعركة إلى صفوفهم، وتقليل فاعلية مدفعيتهم وكانت تلحق خسائر جسيمة بالمماليك القرانصة.

ومع أن المدفعية كانت تحصد صفوف القرانصة، إلا إن موجات خيولهم ظلت تقتحم متاريس العثمانيين، تحمل فرسانًا يضربون الأنف ومقدمة الرأس بسلاحهم الهجومي «العمود»، ويشقون خوذات الينكجرية بالطَّبر، ويتقدمون للمبارزة بسيوف تلمع نصالها في ضوء الشمس الذي أخذ ينتشر حتى ملأ السماء.

تحوَّل مرج دابق إلى ميدان قتال، تتناثر فيه الجثث والأشلاء، وتطير في سمائه الرؤوس، تروي برذاذ الدمع المندفع منها ظمأ العشب الذي لم يُروَ منذ الربيع، وتتزاحم فيه الخيول الرامحة، فتتجندل فيما تَبقرُ أقدامُها من بطون، أو تنزلق على العشب المسقي بالدم، والسهام تطير لتستقر في العيون، ونيران المدافع والبنادق تشعل النار في الخيام فيحترق قماشها الملون حتى يكاد دخانه يطفئ الشمس.

وعند الظهر بدأ اندفاع المماليك يقل تدريجيًا، فقد تكثفت طلقات المدفعية الثقيلة، وأثبتت البندقية أنها سلاح قوي رغم افتقاده للشجاعة. وبرغم اختراق المماليك لبعض تحصينات العثمانيين، فإن الوقت قد طال دون أن يبدو ثمة أمل في النصر. ومع الإجهاد والقلق، بدأت آذان المقاتلين تلتقط حديثًا كان يسري بين صفوفهم بنفس سرعة انطلاق القذائف.

كان المماليك الجلبان يقفون بلا عمل، بحكم الدور المحدد لهم كخط دفاع أمام السلطان، فظلوا يرقبون نتائج القتال المرير الذي كان يدور بين القرانصة وبين الينكجرية، دون أن يهزوا رمحًا أو يجذبوا سيفًا.

من الميسرة، حيث كانت قوات خاير بيك، انطلقت أولى صيحات الاحتجاج:

- قدَّمَنا السلطان، وأخَّر جلبانه، وقصده أن يقطع القرانصة من الديار، ليكتفي شرهم فيصفو له الوقت!

انتشرت الشائعة كالنار في الهشيم، ملأت صفوف الجيش، استرخت موجات القرانصة، اشتبك بعضهم مع الجلبان في مشاجرات صغيرة. فقد أحد القرانصة أعصابه، فصاح في وجه السلطان:

- نحن نقاتل بأنفسنا مع النار، وأنت واقف تنظر إلينا كالعين الشامتة!

وحين قُتل الأتابكي سودون العجمي قائد القلب، ولحق به قائد الجناح الأيمن سيباي، جاءت اللحظة التي ظهر فيها خاير بيك علنًا، فشق ومجموعة من مماليكه صفوف الجلبان، وهو ينادي:

- قُتل الغوري والكسرة علينا! اتبعوني إلى حلب.

تصدَّعت ميسرة الجيش، وفقدت الميمنة قيادتها، فتسربت وراء المنسحبين، وتتابع هروب فرق الجيش المملوكي من المعركة، يجمع الجنود في انسحابهم ما يستطيعون من غنائم زملائهم القتلى، وينسحبون في ظل الغبار المتصاعد من إيقاع حوافر الخيل، وطلقات المدفعية التي كانت تتساقط بجنون.

بفرار الجلبان انكشف موقع السلطان الذي كانوا يحمونه، وبدأت موجات المشاة العثمانيين تصل إليه. وبُهت الغوري وهو يتابع فرار فرسانه، ويشاهد مصارع رجاله، فوقف يهتف وسط فلولهم الهاربة:

- يا أغوات! هذا وقت المروءة يا أغوات!

لكن أحدًا لم يسمعه، فقد كانت طلقات المدفعية تتوالى، وأصبحت قوات المشاة العثمانيين في قلب الجيش المملوكي، ولم يكن أحدٌ من الهاربين يملك وقتًا أو عقلًا ليتنبه إلى أن السلطان هو الذي يتكلم، وقادة الجيش قد هربوا، والكل يجري باندفاع الغريزة، ولم يعد هناك أمل في شيء، ومع ذلك واصل الغوري محاولته لإبقاء جيشه في المعركة فاستمر يهتف:

- يا أغوات! هذا وقت المروءة يا أغوات!

ولحق الأمير تمر الزردكاش بالسلطان، فطوى الراية السلطانية، وقال للغوري:

- يا مولانا السلطان، إن عسكر العثمانيين قد أدركنا فانجُ بنفسك وادخلْ إلى حلب.

سمع السلطان كلمات الأمير تمر بذهول، حاول أن يتكلم فلم يجد لسانه، فطلب بالإشارة كوب ماء، فجاءوه به في طاسة من ذهب. شرب منها وتمر يستعجله ليتمكن من الفرار قبل أن تدركهم جحافل العثمانيين، ولوى السلطان عنان فرسه ليهرب مع الهاربين، لكنه لم يكد يتقدم خطوة واحدة، حتى سقط من فوق الحصان والدم يسيل من حلقه، فيضيع في شلال الدم الذي يملأ أرض مرج دابق.

الطبر - البلطة - التي كان يحملها السلطان الغوري

وضعت معركة مرج دابق النقط على الحروف، وميزت بين المخلصين والخونة. استشهد سيباي، وفر خاير، لكن الغوري ذهب دون أن يميز الخبيث من الطيب.

مات الملك الأشرف أبو النصر. من شدة قهره، فُقئت مرارته. أما المقبرة التي بناها في مسجده الفخم بالغورية، فقد ظلت خالية، تنعى من بناها وزخرفها ولم يسكنها.

ضاعت سنوات العز، ومضى الغوري دون أن يتزود بنظرة من كنوزه التي تركها في قلعة حلب. وزحف السلطان سليم وجنوده إلى معسكره، فقتلوا كل من كان به من الأمراء والجنود والخدم والغلمان، وانتقلوا منه إلى خيام أمراء المماليك، فأخذوا كل ما كان بها من أسلحة وذخائر وأقمشة وأوانٍ، واستولوا على خزائن المال والتحف، وأشعلوا النار في بقاياها، وضاع مصحف الخليفة عثمان بن عفان، الذي طالما أقسم المماليك عليه بألا يخونوا أو يغدروا أو يتآمروا!

تسع ساعات من القتال، كانت كافية لتبديد الدولة التي بدأت بخيانة شجرة الدر، وانتهت بخيانة خاير بيك. مات السلطان، وقُتل خمسةٌ من الأمراء المقدمين، وثلاثون أميرًا من الرتب العالية، وآلاف لا يحصيها عد من المماليك. وأمر السلطان سليم فقتل العثمانيون كل أسرى المماليك وكانوا أكثر من ألفين.

انجلى الدخان والغبار عن مرج دابق، فإذا به مزدحم بجثث بلا رؤوس، ورؤوس معفرة بالتراب، وخيول قتلى وعليها سروجها مزينة بالجواهر الثمينة، وبين الجثث والرؤوس تناثرت مقابض سيوف يتوهج منها الذهب والفيروز.

لم يكن أحد قد اكتشف بعد خيانة خاير بيك حين غادر أرض المعركة على رأس قواته عائدًا إلى حلب، فوصلها في مهبط الليل. وبمجرد استقراره في قصره، أرسل يستدعي الناصري محمد ابن

السلطان الغوري، وكان والده قد تركه على رأس عدد من مماليكه لحماية المدينة وحراسة كنوزه التي تركها في قلعتها، واستدعى كذلك كبار تجار حلب وأعيانها، فلما تكامل الجمع، أنبأهم بأن الحرب قد انتهت بهزيمة الجيش ومصرع السلطان، وأن فلول الجيش المنسحب في طريقها إلى المدينة.

صمت خاير بيك برهة تفحص خلالها وجوه من حوله، ليعرف أثر كلماته في نفوسهم. كان الرعب واضحًا على وجوه التجار، فهم لم ينسوا بعد التجريدة التي حطت رحالها قبل عامين في المدينة، فانتهكت حرماتها، واغتصبت نساءها، وسرقت أموالهم، ودمرت بيوتهم، فما بالهم بجيش منسحب مهزوم فقدَ جنودُه كل شيء!

تحكم خاير في ملامحه حتى لا تشي بسروره بالغ الأثر الذي أحدثته كلماته، وأضاف:

- لقد علمت أيضًا من بعض الجواسيس أن عشرين ألفًا من الجنود العثمانيين في طريقهم إلى حلب. والرأي عندي أن نُغلق أبواب المدينة في وجه الجيش المنسحب، فيتوجه إلى دمشق، وهناك سيكون أمامه وقت مناسب ليستعد قبل أن يدركه العثمانيون.



سيوف مملوكية

ظهرت علامات الارتياح على وجوه التجار. وقال الناصري محمد:

- وكيف نصُد الأعداء عن حلب والجنود الذين تركهم الوالد رحمه الله تحت قيادتي لا يكفون لذلك؟

قال خاير بيك:

- لن يُضيِّع العثمانيون وقتًا في محاصرة حلب إذا لم يدخلها الجيش، وسيواصلون السفر خلفه إلى دمشق. أما أنت يا مولاي، فلا ضرورة لبقائك هنا، أو ذهابك إلى دمشق، فعرش السلطنة الآن خالٍ، وأمراء القاهرة هم الذين سيختارون من يجلس عليه، ولا بد أن تكون هناك.

وهكذا حقق خاير بيك هدفه ببساطة وبلا أي مجهود. كان يعلم أن مقاومة حلب تعني فشل الغزو الذي بدأه مولاه الجديد سليم الأول، ذلك أن أي مقاومة تعرقل سير الحملة سوف تشجع الشاه الفارسي إسماعيل الصفوي على مهاجمة مؤخرة العثمانيين، ليسترد ما احتلوه من أراضيه، فيُحاصَر العثمانيون بين المماليك والصفويين.

في صباح اليوم التالي غادر الابن الوحيد للسلطان الغوري حلب مسرعًا، ليدرك مماليك القاهرة قبل أن يختاروا سلطانًا غيره، فلم يجد وقتًا لكي يحمل معه كنوز أبيه التي تركها في قلعة حلب، واستحث زوجته الطفلة - التي لم يدخل بها - وحماته على السفر معه، فخرجتا بثياب الحداد، وفقدتا

مسدسات عثمانية

إلى الأبد الأمل في العثور على جثة سيباي، كما فقد هو الأمل في العثور على جثة أبيه.

إلى هنا كان القسم الأول من دور خاير بيك قد انتهى، فلم يعد أمامه إلا أن ينتظر في حلب ليسلمها للسلطان سليم عندما يدق أبوابها، ويتلقى تعليماته الجديدة. لكنه لم يستطع الانتظار، فخرج من المدينة في صباح اليوم التالي، يستحث فرق الجيش المنسحب على التقدم إلى دمشق، ويجمع المعلومات عن حالة الجيش، ويناقش من يلقاهم من أمراء المماليك المنسحبين حول خطط المستقبل.

قطع خاير بيك شوطًا على طريق دمشق، استطاع خلاله أن يأخذ فكرة كاملة عما جرى في مرج دابق بعد أن انسحب منها، وتحدث طويلًا مع زملائه الأمراء عن الفساد الذي انتشر في كل أنحاء السلطنة، ونقد تصرفات السلطان القتيل، وقال:

- لا أمل في أن يستطيع أحد أن يفعل أكثر مما فعله الغوري، والفرنج يتربصون بالدولة، ونحن في حاجة إلى يد قوية تصدهم عن بلاد المسلمين.

استمع كثيرون من الأمراء لأقوال خاير بيك، ولم يكن أكثرهم في حالة تسمح لهم بأن يفهموا مغزى كلماته، فقد كانوا قلقين ومضطربين، وكان كل ما يشغلهم آنذاك أن يصلوا إلى دمشق، أو القاهرة، ليطمئنوا على كنوزهم وديارهم ونسائهم، فلم يهتموا كثيرًا بما سمعوه من خاير بيك ولم يشكوا في أهدافه.

بندقية عثمانية

واحد فقط فهم مغزى الكلام، هو جان بردي الغزالي نائب حماة. وشجع موقفه ذاك خاير بيك على مفاتحته بالسر الذي يخفيه، فروى له قصة اتصالاته السرية بالسلطان سليم، التي بدأت إبّان أزمة لجوء الأمير أحمد، شقيق سليم، إلى حلب. وقال خاير بيك إنه أرسل للسلطان سليم - بتعليمات من الغوري - رسالة يؤكد له فيها أن شقيقه المتمرد لن يلقى أي معونة من المماليك، وإنه انتهز الفرصة فنقل للسلطان سليم الأنباء التي زوده بها جواسيسه عن الأوضاع في جيش الشاه إسماعيل الصفوي، وهي مبادرة شكره السلطان سليم عليها، واتصلت بينهما الرسائل، فأصبح لدى العثمانيين صورة كاملة عن الأوضاع في مصر والشام. واعترف خاير بيك بأنه ساعد حليفه السلطان سليم فزوده بكل الأنباء التي تهمه عن نيات الغوري تجاهه، ودعم موقفه في الحرب، فانسحب بميسرة الجيش، ومكّن هذا العثمانيين من إنهاء المعركة لصالحهم. وختم خاير بيك حديثه مع جان بردي الغزالي قائلًا:

- إن الأمر قد انتهى، إن هي إلا شهور يستولي بعدها ابن عثمان على الشام ومصر، والأذكياء هم الذين يعرفون اتجاه الريح فلا يتصدون لها. وسيعرف السلطان سليم أصدقاءه، ويكافئهم على صداقتهم له. أما من يعادونه، فأنت أدرى بما حدث في مرج دابق.

لم يكن جان بردي الغزالي في حاجة إلى مجهود طويل لإقناعه، فقرر أن يمسك العصا من المنتصف، ووافق خاير بيك على آرائه، وسأله عما يستطيع أن يؤديه له، فقال خاير:

- لن أستمر معكم في الطريق إلى دمشق، لأنني أخشى أن يكون أمري قد افتُضح، وسأعتمد عليك في إرسال الأنباء، وسوف أُخطر السلطان سليم بموقفك، وستكون هناك وسيلة للاتصال بيننا في أي مكان تكون فيه.

وبعد مرحلة من الطريق، افترق الرجلان. اعتذر خاير بيك لرفاقه بأنه يريد أن يختصر الطريق، وأنه سيدخل دمشق عن طريق بعلبك فيلتقي بهم فيها، ولكنه اتجه إلى مرج دابق فقابل السلطان سليم، وانحنى بين يديه، وهنأه بالنصر، وقال له:

- إن حلب خالية الآن من أي دفاع.

ابتسم السلطان سليم، وقال:

- عفارم خاير بيك!

هموم دمشق

واصل جان بردي الغزالي السير مع الجيش المنسحب في اتجاه دمشق، وكانت الفوضى قد لحقت بفلوله الجريحة الجائعة، فاندفع الجنود يخربون ويسرقون، وهاجمهم العربان في الطريق، فوصلوا إلى دمشق في أسمال بالية، على سيماهم أمارات الجوع والقلق، وقد أنهكتهم الرحلة المضنية، وأغلقت دمشق أبوابها في وجوههم، ولكن المماليك بقيادة جان بردي الغزالي تمكنوا من اقتحام أبواب المدينة، ونادوا بالغزالي نائبًا عليها.

شُغل الغزالي في الأيام الأولى بتنظيم المدينة، فقضى بحزم على أزمات التموين ووفد الخبز والعليق بالأسواق، ولكنه لم يستطع أن يمنع المماليك من الاستيلاء على مساكن الدمشقيين وطردهم منها، أو يصد غاراتهم على البيوت والوكالات والدكاكين. وكانت فرق الجيش المنسحب تدخل المدينة واحدة إثر أخرى، وهي تحمل أنباء السوء.

عرف الناس في دمشق أن السلطان سليم دخل مدينة حلب في ٢٨ أغسطس/ آب سنة ١٥١٦م، فتوافد عليه كبار موظفي دولة الغوري الذين لم ينسحبوا مع الجيش، وانحنوا بين يديه، وقدموا له فروض

الطاعة والولاء، وكان بينهم الخليفة العباسي، فهشَّ له السلطان ودعاه إلى الجلوس بجواره، وقال له:

- أصلكم من أين؟



تاجر عربي من دمشق

فقال الخليفة:

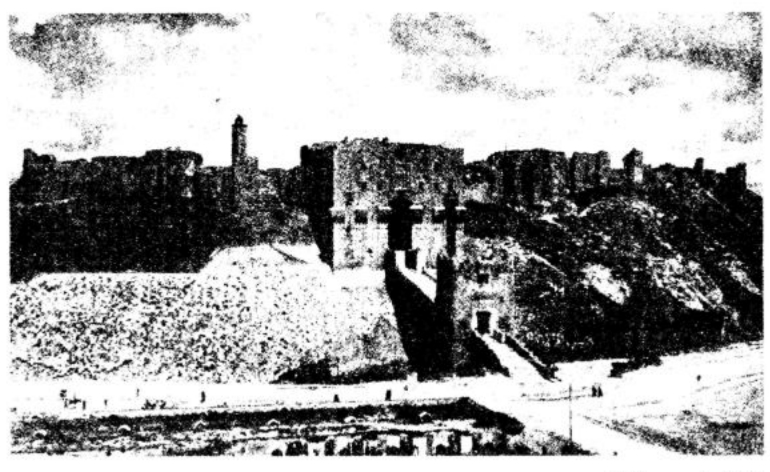
- من بغداد.

فقال السلطان:

- حسبتكم من مصر، إن شاء الله نأخذكم معنا إلى إستانبول.

وعلَّق الناس على ما سمعوه حول هذا الأمر وَجِلين، فمعنى ذلك أن الخلافة العباسية ستنتقل من مصر إلى إستانبول، وينقطع كرسي الخليفة منها بعد قرنين من الزمان. صحيح أن الخليفة كان مجرد رمز، وليس له سلطة من أي نوع، ولكنه كان رمزًا تتيه به السلطنة العربية المملوكية على غيرها من البلاد التي يسكنها المسلمون.

لكن ما قاله السلطان سليم للخليفة كان أقل إثارة من قصص الخيانة، فما إن دخل الغازي حلب، حتى كشف الخونة أقنعتهم فظهروا سافرين، فإذا بهم جميعًا أصدقاء السلطان القتيل وخاصته.



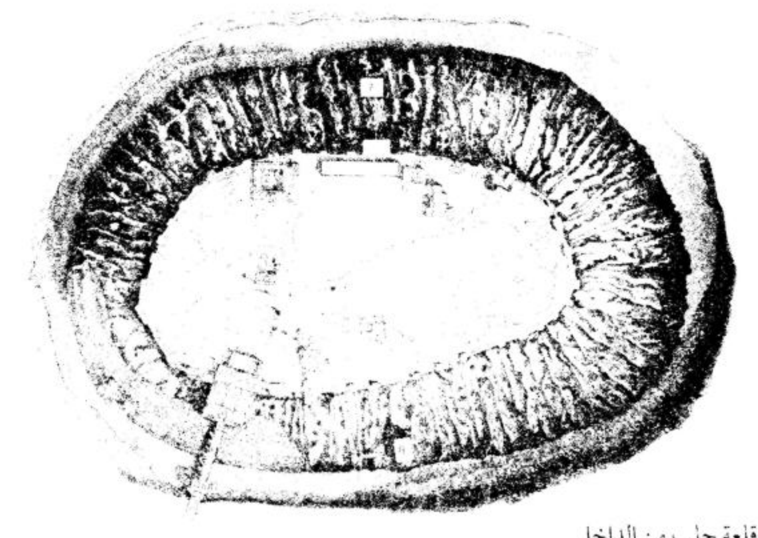
قلعة حلب من الخارج

فهذا هو إبراهيم السمرقندي صديقه المقرب وأمين سره، ينضم علنًا للسلطان سليم، ويهاجم أمامه الغوري وأيامه وأحكامه! وهذا هو العجمي الشقنجي مهرج الغوري ومضحكه، وكان في الأصل لاعبًا في الأسواق، يضع على فكه عصا يتلقف فوقها صحونًا نحاسية في يده، فلا تخطئ العصا الصحن، ولا يقع من فوقها، مهما تراقص العجمي أو تمايل. وشاء حظه أن يراه الغوري فأعجبه، وعيَّنه مضحكًا له، يرفه عنه في أوقات ضيقه. فبدأ سعده، وأصبح واحدًا من أعيان المملكة، يركب أمامه الخدم، ويشق موكبه من القاهرة، وتُعظِّمه الأمراء، ويقومون له إذا دخل عليهم، ويرجو الناس وساطته لدى السلطان ورجال الدولة. لكن العجمي الشقنجي ظهر في حلب بعد الهزيمة، فإذا بالمهرج صديق قديم للسلطان سليم، وإذا به ممن كانوا يعملون لمصلحة العثمانيين ويتجسسون على أخبار الغوري ويرسلونها إلى سيدهم الخنكار!

وسمع الناس في دمشق حكايات كثيرة عما جرى في حلب، وحزنوا عندما عرفوا أن الأمير قانصوه الأشرفي قد ركبه الرعب عندما سمع بما جرى في مرج دابق، فجمع الجنود الذين كانوا تحت إمرته في قلعة حلب، وانطلق عائدًا إلى دمشق. وبعد هروبه بيومين، أرسل السلطان سليم جنديًّا عثمانيًّا واحدًا على حمار، استولى على القلعة، وأحصى كل ما فيها من الكنوز التي حملها الغوري معه على خمسمائة جَمل. فضاعت قناطير الذهب والفضة والتحف والمذهبات مما جباه الغوري من عرق رعايا السلطنة، أو جمعه أسلافه من عرق أجدادهم.

يومًا بعد آخر، عادت دمشق لهمومها، ولم تعد تهتم بقصص الجند العائد، وشُغل نائبها الجديد جان بردي الغزالي بتنظيم أحوال المدن

المجاورة، فأرسل نائبًا إلى حمص محل نائبها أصلان الذي قُتل في مرج دابق، وعيَّن نائبًا آخر على حماة، في المكان الذي كان هو نفسه يشغله.



قلعة حلب من الداخل

وحين انتهى من كلِّ ذلك، فكر في أن يجس نبض الأمراء الذين معه في دمشق، لعلهم يعيِّنونه سلطانًا، فيفاجئ أمراء القاهرة بالأمر الواقع، ويحسم مسألة العرش قبل أن تثور المطامع حوله، ولكن الفكرة لم تلقَ قبولًا إلا لدى عدد محدود من الأمراء، إذ تصدى لها الأمير أبرك كبير جلبان الغوري، قائلًا إن ابن السلطان الغوري أحق بالسلطنة من غيره!

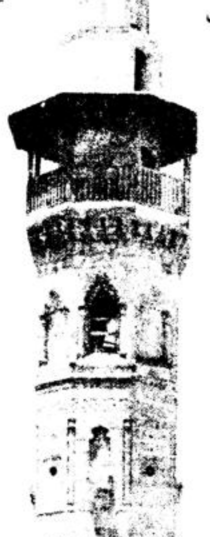
وحسم الأمير علان والي القاهرة الأمر، فقال إن اختيار السلطان مسألة لا يمكن البت فيها إلا في القاهرة، حتى يشترك أمراؤها في المناقشة.

لم يمكث السلطان سليم في حلب سوى ثمانية عشر يومًا، نظم فيها جيشه، وأعاد ترتيب قواته، ثم غادرها عبر وادي بعلبك الخصيب إلى حماة وحمص فاستولى عليهما، ثم تقدم في الطريق إلى دمشق.

خشب مُطعَّم بالعاج

وكانت فرق الجيش المملوكي قد بدأت انسحابها من المدينة قبل تحرك السلطان سليم من حلب، وظل جان بردي الغزالي بدمشق حتى اطمأن إلى خروج كل الجنود منها، فاستدعى ناصر الدين بن الحنش شيخ مشايخ عربان الشام، وسلمه المدينة، وأمرَ حفظ البلاد.

وبينما كان جند الغازي سليم ابن عثمان، يدقون أبواب دمشق في ٩ أكتوبر/ تشرين الأول ١٥١٦م، كان أمراء المماليك يهرولون في الطريق إلى القاهرة، قبل أن يضيع عرش السلطنة.



المئذنة الغربية للجامع الأموي في دمشق، جددها السلطان قايتباي الكبير

كان الناس في القاهرة يتبادلون أنباء الحرب على دقات الطارات التي تنعى القتلى، وفلول الجيش المنهزم العائد تدخل المدينة كل يوم وفي ركابها فضائح وقصص.

ومرت أيام الجُمع التي تلت خبر موت الغوري دون أن يدعو خطباء المساجد على المنابر باسم السلطان، وإنما دعوا باسم الخليفة فقط، وبعضهم قال: «اللهم ولِّ علينا خيارنا، ولا تُولِّ علينا شرارنا».



والي (محافظ) القاهرة

وكان أمر التولية يشغل أمراء المماليك أكثر مما يشغل خطباء المساجد، وما إن تجمع كبارهم في القاهرة، حتى اجتمعوا لهذا الغرض، دون أن ينتظروا وصول جان بردي الغزالي، ولم يكن حضوره ليغير شيئًا، إذ زهد الأمراء كلهم في السلطنة فظنوه مثلهم سيتوقّى مشاكلها في هذا الوقت ويقرهم على إلقائها على عاتق طومان باي.

وحين فاتحوا طومان باي في الأمر رفض بشدة، وفشل الأمراء في إقناعه بالقبول، ثم اتفقوا أخيرًا على أن يُحكّموا في الخلاف الشيخ أبو السعود الجارحي، فخرجوا في كوكبة من الخيل إلى كوم الجارح، حيث كان الشيخ المتصوف يقيم، وجلسوا بين يديه وطرحوا خلافهم عليه، وقال طومان:

- يا مولانا الشيخ، على أي شيء أتسلطن، وهذه خزائن المال ليس فيها درهم ولا دينار؟! فمن أين أنفق على العسكر؟ وهذا ابن عثمان مَلَك البلاد الشامية، وهو زاحف على مصر، وهؤلاء الأمراء لن يطيعوا لو أمرت بسفر، وسوف يغدرون بأي قسم!

وحسم الشيخ أبو السعود المناقشة، فتحدث مع أمراء المماليك فوبخهم، وطلب منهم أن يخلصوا لسلطانهم الجديد، وأن يحفظوا البلاد والعباد. وأمر بإحضار مصحف شريف، بدلًا من مصحف الخليفة عثمان الذي ضاع في مرج دابق، وردد الأمراء خلفه القسم ألا يثيروا فتنًا أو يظلموا فردًا، وأن يخلصوا لسلطانهم فلا يغدروا به.

مئذنة جامع
تنكز بدمشق

وفي فجر الجمعة ٩ أكتوبر/ تشرين الأول ١٥١٦م، صلى طومان باي الفجر، وركب من بيته إلى القلعة، وهناك جرت مراسم تنصيبه على العرش في حفل متواضع، وارتدى شعار السلطنة: الجبة السوداء والعمامة السوداء، وقدموا له فرسًا بغير سروج ذهبية، ولم يجدوا في المخازن شيئًا من رايات تتويج الملوك، فمضى موكبه الحزين صاعدًا إلى القصر الكبير، فجلس على كرسي المملكة، وقبّل له الأمراء الأرض، ودقّت له البشائر في القلعة، ونودي باسمه في القاهرة، وارتفعت له الأصوات بالدعاء.



مهرج تركي يقدم ألعابه في أحد شوارع إستانبول

أحلام الغزالي الضائعة

طار الصيد من القفص!

ذلك ما قاله جان بردي الغزالي لنفسه، حين وصل إلى القاهرة ومعه جماعة من الأمراء قادمين من دمشق، فإذا بمسألة العرش قد حُسمت، وإذا طومان باي قد أصبح سلطانًا قبل وصولهم بيوم واحد.

ومع أن اللطمة كانت قاسية، فقد تحملها الغزالي صابرًا، فهو يمسك العصا من المنتصف، فإذا لم يُعيِّنه زملاؤه سلطانًا على مصر، فبينه وبين السلطان سليم عهود ومواثيق، والأغلب أن السلطان بعد أن يتم فتوحاته، سيعين خاير بيك نائبًا له على مصر، ويعينه هو نائبًا على الشام، ولقد كان في نيته إن اختاره زملاؤه سلطانًا أن يساوم الغازي العثماني، أما الآن فلا مفر من التعاون المباشر معه.

ومما ساعد الغزالي على تحمل اللطمة، أن وَضْع طومان باي لم يكن داعيًا لكثير من الحسد: نصف السلطنة كان قد وقع بين براثن الغزاة، حتى دمشق سقطت هي الأخرى في اليوم السابق على تتويجه، والأنباء تقول إن العثمانيين في طريقهم إلى غزة، ومعنى هذا أن الطريق إلى مصر - عبر صحراء سيناء - سيكون مفتوحًا.

لم يغير الخطر الذي كان يدق أبواب السلطنة المماليك، فظلوا يثيرون نفس المشاكل، وظلت مشاكلهم تتراكم حتى كادت تخنق طومان باي.

كانت أولى المشاكل هي خزائن السلطنة المفلسة، فحين جردها السلطان الجديد ليستعين بما تركه الغوري من مال في تدبير شؤونه، ذُهل حين وجدها فارغة، لا درهم فيها ولا دينار، واكتشف أن المسؤولين عنها قد انتهزوا الفوضى التي سادت أثناء الحرب، فسرقوا كل درهم في الخزائن وأضافوه لثرواتهم الخاصة.

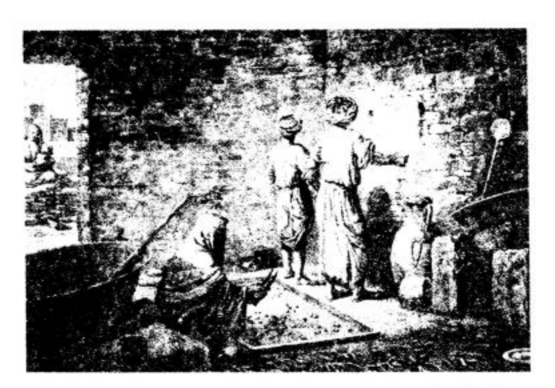
ولم يكن القبض على المختلسين وتعذيبهم حلًّا لمشكلة نقص الأموال، فلم يجد طومان باي مفرًّا من التصرف كأسلافه من السلاطين، فأمامه حرب، وجنود لا تحارب قبل أن يصرف لها نفقة البيعة، ونفقة الحرب، ومرتباتها الشهرية، ومخصصاتها المتراكمة من اللحم والخبز والعليق، والحل الوحيد أمامه أن يقبض على الناصري محمد بن الغوري، فيأخذ منه بعضًا مما تركه له أبوه الراحل من أموال.

ما كاد السلطان يعتقل ابن أستاذه، حتى ثار المماليك الجلبان، وتعصبوا لابن سيدهم، وكادوا يشعلون الفتنة، وصاح أميرهم أبرك في وجه طومان باي:

- ليكن معلومًا لك أنه لا سبيل لأذى ابن أستاذنا!

قال السلطان طومان باي وهو يكتم دمعة توشك أن تنسكب من عينيه:

- يعز عليَّ والله أن أفعل ذلك مع ابن الرجل الذي رباني، فإذا كان لدى أحدكم حل آخر غير ذلك فدلوني عليه!



صناعة الحلوى



صناعة الزجاج

وصعد علي الشعباني نائب المحتسب، وسمسار غلال اسمه «ابن خبيز»، إلى القلعة، يقترحون على السلطان حلًّا لأزمته أن يرفع الضرائب المفروضة على الغلال وعلى السلع التي تباع في الأسواق، وقدما له عرضًا بأن يوفرا له المال الذي يريد إذا عيَّنهما لجباية الضرائب الجديدة.

رفض السلطان الحل الذي قدمه الشعباني وابن خبيز، وأمر فُضربا بالمقارع، وطافوا بهما شوارع القاهرة، وكلٌّ منهما على حمار، وأمامهما

المنادون يعلنون بصوت عالٍ: «هذا جزاء من يتعاون في إنشاء المظالم في الدولة العادلة بعدما بطلت». وأمر السلطان بفصل الشعباني من وظيفته واعتقاله هو وزميله.

وانتهز الأمير علان، دوادار السلطان طومان باي، فرصة ما جرى من الشعباني وابن خبيز، فاستدعى الأمير أبرك قائد المماليك الجلبان وقال له:

- أنت ترى أن أهل البلد لا يتحملون مزيدًا من الضرائب، وقد كادوا يفتكون بالشعباني وابن خبيز، وطومان باي رجل صوفي فقير من الدنيا، وليس معه ما يقوم به بنظام السلطنة، وقصدنا أن نأخذ من ابن الغوري قدر ستين ألفًا من الدنانير، يستعين بها طومان باي على لقاء العدو المتحرك علينا.

فقال أبرك:

- إن ابن الغوري أحق بالعرش ومعه ماله، فولوه يُنفق على الجميع.

فردَّ عليه الدوادار قائلًا بليونة:

- إنه صبي صغير، ليس فيه كفاية لابن عثمان، ولو لم يعطنا مالًا، لأخذناه من الرعية، فتحركوا مع العثمانيين ضدنا، وقد رأيت ما فعل أهل حلب وأهل دمشق، والمظالم تجعل الرعية لا يجدون فرقًا بيننا وبين الغزاة، أيرضيك أن تنقطع دولتنا ويقتلع ابن عثمان شأفتنا؟

أفحم منطق علان الأمير أبرك، فلم يرد، وفي اليوم التالي حمل لطومان باي ستين ألف دينار، ليستعين بها على تدبير أمور الدفاع عن السلطنة.

كان تحصين غزة هَمَّ السلطان طومان باي المقيم، فالمدينة هي عنق الزجاجة بين شطرَي السلطنة المملوكية، وهي القاعدة التي يمكن استخدامها لاسترداد مدن الشام من العثمانيين، كما أن سقوطها يعني بقاء أبواب مصر مفتوحة أمام العدو القادم من إستانبول.

حاول طومان باي أن يُصلح الخطأ الكبير الذي وقع فيه المماليك حين انسحبوا من الشام، فقرر أن يوفد حملة عسكرية إلى غزة، تتولى تحصينها، فتمنع سقوطها في يد العثمانيين وتعوقهم أمامها، حتى يمكن إعداد جيش آخر يواجههم فوق أرض الشام.

أخذ السلطان يستعرض المماليك ليختار من بينهم جنود حملة غزة، وقصر اختياره على من لم يشتركوا في معركة مرج دابق من المماليك الذين ظلوا بالقاهرة حين خرج الغوري للحرب، فاختار منهم ألفين، وستة من الأمراء المقدمين، وأمرهم بالاستعداد للسفر بعد عيد الفطر مباشرة.

وحين انتهى الاستعراض، التفت السلطان إلى الأمير علان فقال له:

- ستتولى قيادة هذه الحملة يا علان.

وأرسل فاستدعى جان بردي الغزالي، ولم يكن قد مضى على وصوله للقاهرة يومان، وقال له:

- ستعود مع الحملة إلى دمشق فتكون نائبها إذا استردها علان من العثمانيين.

رفض الغزالي تنفيذ أمر السلطان، وقال له:

- ولماذا يقود علان الجيش، أنا أقوده بصفتي نائب الشام!

وارتفعت حدة النقاش بين علان والغزالي حتى كادا يشتبكان في حضرة السلطان، فصرفهما حانقًا، وأصدر في اليوم التالي قرارًا بأن يكون الغزالي نائبًا للشام وقائدًا لحملة غزة.

لكن الحملة لم تخرج برغم ذلك، فما إن حل موعد توزيع النفقة على المماليك الذين تقرر خروجهم فيها، حتى رفضوا الدنانير الخمسين التي أمر السلطان بصرفها لكلٍّ منهم، وخرجوا من باب حوش القلعة صاخبين مهددين، وكادت نيران الفتنة تشعل المدينة، وتظاهر عدد كبير من المماليك في طرقات القلعة، وهتفوا بسقوط السلطان، وتتالت الرسل بين الفريقين، وأخيرًا وافق طومان بايٍ على أن يصرف لكلٍّ مملوك مائة دينار نفقة للحرب، وأن يُقرض كلٌّ منهم مائة وعشرين دينارًا، مرتب أربعة أشهر مقدمًا.

وكان الغزالي عجولًا؛ فالحملة هي فرصته ليعود إلى حليفه ابن عثمان، لذلك لم يهتم كثيرًا بتمرد الجنود الذين سيقودهم، ولم ينتظرهم، بل خرج من القاهرة في عدد قليل من جنوده، فاستراح في الريدانية بعض الوقت، وما إن وجد معه مائتَي مملوك، حتى تحرك بهم، وأرسل أمرًا لمن بقي من الجنود بأن يتبعوه على الطريق دون تأخير.

لم يهتم جنود الحملة بأمر قائدهم، وأصروا على عدم الخروج من القاهرة، ما لم يحصل كل منهم على ستة دنانير ثمن الجمل الذي يركبه، فضلًا عن قيمة عليق دوابهم ونصيبهم المتأخر من اللحم.

وخرجوا أخيرًا فرقة بعد أخرى، خرجوا متثاقلين متباطئين.



آخر السفراء

استطاع السلطان سليم العثماني أن يسيطر على دمشق بعد مجهود عنيف، وكان ناصر الدين بن الحنش شيخ مشايخ الشام قد سلمه مفاتيح المدينة دون قتال، وتظاهر بالولاء والطاعة له، فاعتبره سليم من أمرائه، وقربه إليه كما قرب خاير بيك والسمرقندي.

وبعد أيام قليلة، انتهز ابن الحنش فرصة سنحت له، فهرب من دمشق إلى مضارب قبائله، وأعلن عصيانه، وحرض العربان على مقاومة الغزاة، فترصدوا لجنود الينكجرية، يقتلون من ينفرد منهم عن زملائه، وأخذوا يُغيرون على أطراف دمشق، فيهاجمون معسكرات العثمانيين، ويقطعون الطرق بينها.

واضطر السلطان سليم للخروج بنفسه على رأس حملة لمطاردة ابن الحنش، حين هاجم العربان فرقة من الينكجرية عند القابون بالقرب من دمشق، فقتلوا عددًا كبيرًا من جنودها، ولكن العربان قطعوا أنهر دمشق، فما كاد السلطان يخرج خلفهم حتى انزلقت خيوله في طرقات المدينة الموحلة، فلم يستطع اللحاق بشيخ العربان المتمرد.

وأدرك السلطان سليم بعد عدة تجارب، أن الانتصار على ابن

الحنش يكاد يكون مستحيلًا؛ فهو يقيم في الصحراء، وينتشر في فضائها، ويحتمي في جبالها، فلا أمل في اقتناصه بالحرب، لذلك أمر ببناء سور يحمي المدينة من غارات العربان، وأنفق وقتًا طويلًا في تحصينها ودعم دفاعها.

وحين اطمأن السلطان سليم إلى أن دمشق قد أصبحت قادرة على مواجهة غارات العربان، دعا وزراءه ومستشاريه لاجتماع يبحث فيه الخطوة التالية من خطوات الغزو.

وافتتح السلطان الاجتماع بحديث عن هدفه من الغزو، فقال:

- إن جيوشنا لا يمكن أن تتوقف عند دمشق، فالقاهرة هي هدفنا الأصلي، وبدون ذلك لن نستطيع تأمين طريق تجارتنا في البحر المتوسط.

وتفحص السلطان وجوه وزرائه ليرى أثر كلامه في ملامحهم، فلم يستطع أن يتبين شيئًا فيها، فقال موجهًا الحديث لوزيره يونس باشا:

- ما رأيك يا يونس؟

تعثرت العبارات على لسان الوزير، ولكنه استطاع أخيرًا أن يتحكم في رجفته ليقول:

- الرأي رأيكم يا مولانا. ولكن عبدكم يرى أن الرحيل للقاهرة سينهك الجنود الذين غابوا عن بلادهم شهورًا طويلة، وجيوشكم المنصورة قد أصبحت بعيدة عن ديارها، وأخشى أن يغتر الصفوي بذلك فيسترد بلاده، وقد يتطاول فيقتحم حدودنا.

رفع يونس باشا وجهه، فإذا بالسلطان قد ركز نظراته عليه، وسأله:

- وماذا تقترح؟

قال الوزير بصوت أكثر ثباتًا:

- إذا تنازلتم فعرضتم على السلطان طومان باي أن يدخل في طاعتكم، ويحكم باسمكم، ويدفع الجزية لكم، فقد يقبل فيوفر علينا جهد جنودنا، فإذا رفض جردنا عليه السلاح.

جال السلطان ببصره بين وزرائه، فاكتشف أنهم جميعًا قد ارتاحوا لما قاله يونس باشا، فلم يشأ أن يسألهم فيواجهوه بالمعارضة. وحين طلب خاير بن ملباي الكلمة، أذن له بابتسامة واسعة، فقد كان واثقًا أنه سيؤيد وجهة نظره، ويطالب بغزو مصر. قال خاير بيك:

- إذا لم يَغزُ السلطان مصر، فسوف تحرر الشام بعد قليل، وسوف يحنث طومان باي بكل قسم يقطعه على نفسه، وينتهز أول فرصة ويعيد توحيد السلطنة!

واكتفى السلطان بما قاله خاير بيك، فأنهى الاجتماع، واثقًا أن الظروف ستجبر وزراءه وقواده على الاقتناع ومواصلة الزحف إلى مصر. ثم أعلن موافقته على رأي يونس باشا، وأملى عليه خطابًا حاد اللهجة وأمر بإرساله إلى السلطان طومان باي مع سفير خاص.

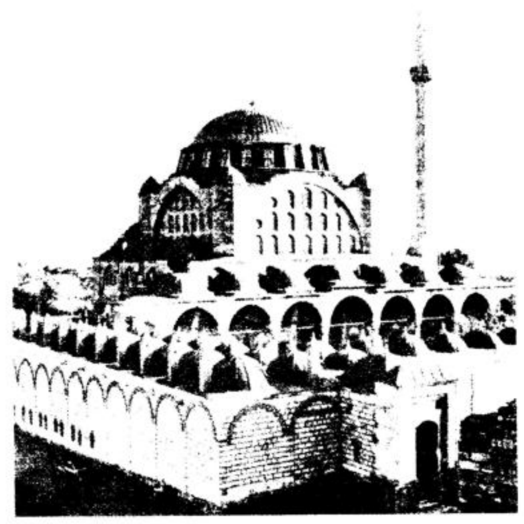
خرج السفير من دمشق في حماية خمسة عشر جنديًا، يقود الجميع دليل من مماليك خاير بيك. يحمل رسائل منه إلى زملائه أمراء المماليك، يطلب منهم فيها الدخول في طاعة السلطان سليم، ويطمئنهم بأن ابن عثمان سيُبقي كلًّا منهم في وظائفه ومرتباته.

ولم ينتظر سليم الرد على رسائله، فأرسل حملة تضم عشرة آلاف جندي إلى جنوب سوريا - فلسطين - استولت على معظم قراها

ومدنها، وسيطرت على الرملة، وتقدمت في اتجاه غزة، فاحتلتها في ٢١ ديسمبر/ كانون الأول ١٥١٦م.

وبعد خمسة أيام من سقوط غزة، تحرك منها الصدر الأعظم سنان باشا على رأس جيشه، ليواجه الجيش الذي يقوده جان بردي الغزالي، ودارت بينهما معركة وهمية، فقد أصر الغزالي على مواجهة العثمانيين، برغم أن بقية فرق جيشه لم تكن قد لحقت به، واستطاعت المدفعية العثمانية أن تشتت العدد القليل الذي قاده الغزالي، واختفى هو نفسه في أولى لحظات المعركة، ولم يعثر عليه جنوده، ولم يعرف أحد وقتها أن الغزالي قد هرب إلى صفوف الجيش العثماني!

دفع أهل غزة ثمن المعركة الوهمية التي دارت بين الغزالي والعثمانيين، فما كاد سنان باشا يخرج من المدينة لمقاتلة الغزالي



مسجد سنان باشا في إستانبول

حتى قرر أهلها أن يساعدوا المماليك الذين قدموا لتحريرها، فثاروا وقتلوا من بقي فيها من الجنود العثمانيين، واستولوا على قلعتها، وقبل أن يحصنوا المدينة كان سنان باشا قد انتهى من المناوشة التي جرت بينه وبين الغزالي، فاستدار إليهم، ولعب فيهم بالسيف ثلاثة أيام، يقتل الأطفال والشيوخ والرجال، ويبقر بطون الحوامل، ويغتصب جنودُه العذارى.

وكان السيف لا يزال يلعب في أهل غزة، حين وصلها السلطان سليم قادمًا من دمشق في اليوم التالي للمعركة، وكان أول ما فعله أن اجتمع مع جان بردي الغزالي.

عاتب الخنكار الغزالي على نقضه لاتفاقه مع خاير بيك، وقال له:

- أنت وعدت بأن تكون معنا، ولكنك طمعت في السلطنة فحاربتنا!

وأقسم الغزالي بأن ذلك لم يحدث، واندفع يشرح موقفه للسلطان سليم، فقال إنه كان يريد أن يلي عرش السلطنة ليسلمها للخنكار دون حرب أو قتال، وإنه لم يجد فرصة ليبعث له برسائل، وحين واتته الفرصة خرج على رأس الجيش ليقابل السلطان ويقدم له ولاءه.

تدخَّل أصدقاء الطرفين، مثل خاير وخُشْقَدم والسمرقندي والشقنجي، فلطفوا من خشونة العتاب، فأعلن الخنكار ثقته في الغزالي، وتم الاتفاق على أن يطلقوه ليعود إلى القاهرة مع فلول جيشه المنهزم، ليواصل خدمة السلطان سليم في صفوف المماليك.

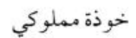
وبينما كان جيش السلطان سليم يواصل ضم المدن الفلسطينية، كالقدس والرملة وصفد، دخلت أفواج الجيش المملوكي المنهزم في غزة إلى القاهرة، وهم في أنحس حال، يركب بعضهم الحمير،

وآخرون الجمال، وليس معهم خيل ولا شاش ولا سلاح ولا قماش، وفي مؤخرتهم كان قائدهم الجاسوس جان بردي الغزالي يحث السير ليصل في الوقت المناسب.

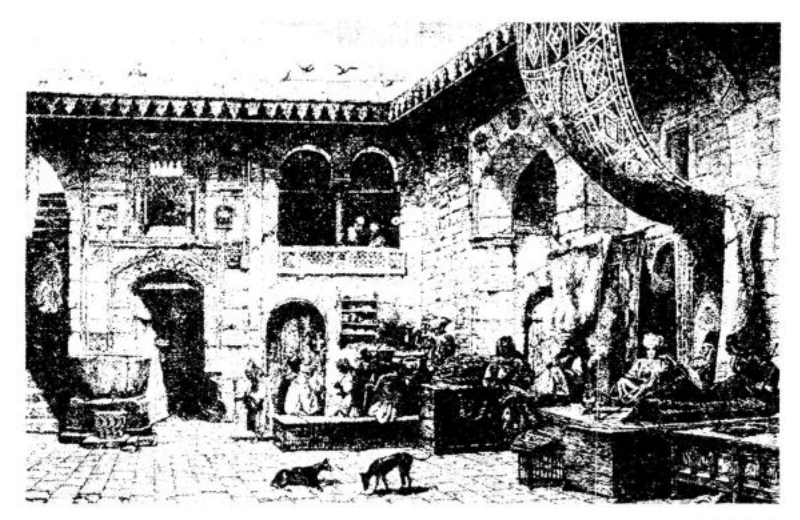
استطاع الدليل الذي كان يقود البعثة العثمانية أن يدخل بها القاهرة دون أن يتنبه له أحد. واستقرت البعثة في منزل لأحد العثمانيين بأطراف المدينة، وأرسل رئيسها يطلب ثلاثة من التجار العثمانيين يملكون وكالات بخان الخليلي، ليجمع ما لديهم من أنباء عن الوضع في البلاد، قبل أن يكشف عن شخصيته ويطلب مقابلة السلطان بشكل رسمي.

وكان تجار خان الخليلي الثلاثة تحت مراقبة الشرطة المملوكية، التي كانت تخشى من قيام الرعايا العثمانيين في القاهرة بأعمال التجسس، فلما ذهبوا لمقابلة السفير العثماني تبعهم رجال الشرطة، وقبضوا على الجميع، وقادوهم إلى منزل الأمير علان الدوادار، فأمر بالتحفظ عليهم، وصعد بالأوراق إلى القلعة.

ما كاد السلطان يسمع السطور الأولى من رسالة السلطان سليم إليه، حتى أخذ لونه يبهت بعد كل كلمة. كان الخطاب برغم قصره، حادَّ العبارة، عنيف اللهجة، قال فيه السلطان سليم:



خوذة مملوكي



خان الخليلي

من مقامه السعيد

إلى الأمير طومان باي

أما بعد...

فإن الله قد أوحى إليَّ بأني أملك البلاد شرقًا وغربًا، كما ملكها الإسكندر ذو القرنين. أما أنت فإنك مملوك تُباع وتُشترى، ولا تصح لك ولاية، وأنا ملك ابن ملك إلى عشرين جدًّا، فإن أردت أن تنجو من سطوة بأسنا فاضرب النقود في مصر باسمنا، وكذلك الخطبة، وتكون نائبنا بمصر، ولنا من الشام إلى الفرات، ولك من غزة إلى مصر. فإن لم تدخل تحت طاعتنا، فسوف أدخل إلى مصر، وأقتل جميع من بها من الجراكسة، حتى أشق بطون الحوامل، وأقتل الأجنَّة التي في بطونهن.

انتهى الأمير علان من قراءة الرسالة، والسلطان مطرق برأسه، غائب بفكره، وعندما طال صمته، تساءل علان بقلق:

- ماذا أنت فاعل يا مولانا؟

رفع طومان باي رأسه وقال بتسليم:

- سأوافق ابن عثمان على ما يريد، لأكون سببًا في حقن الدماء. وأنت ترى العسكر مختلفين، وليس فيهم أحد مع أحد، وقد أراد الله زوال ملك آل جركس من هذه الديار.

اندفع الأمير علان يقول بدهشة:

- ما هذا الكلام يا مولانا؟! إني قاتلت العثمانيين في مرج دابق، وعرفت حالهم، فإنه ليس عندهم معرفة بالفروسية، ولا ركوب الخيل، وغاية ما عندهم الرماة بالبندق.

قال السلطان كأنما يكلم نفسه:

- رحم الله عمي السلطان الغوري، جاءه يومًا رجل مغربي بهذه البندقية التي تطلق الرصاص، وقال له إن الإفرنج يكسبون بها الحروب، لكنه أبى أن يسمع له، وقال له نحن لا نحارب إلا بالسيف كما كان نبينا يحارب!

عاد علان يقول بنفاد صبر:

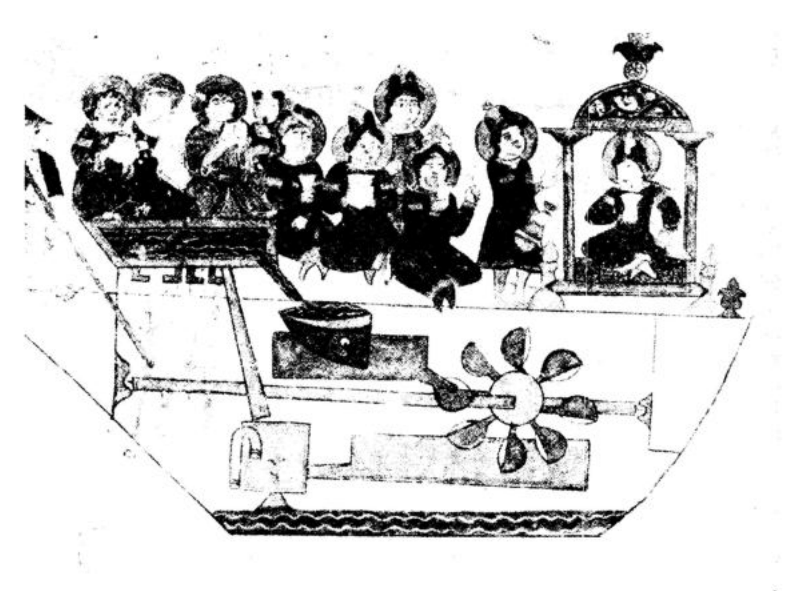
- ليس هذا يا مولانا أوان الحسرة على ما فات، وأمامنا جزيرة قبرص ورودس نستطيع أن نشتري منهما مدافع وبنادق، ولكن يجب أن نقاتل عن بلادنا وحريمنا.

رفض طومان عرض السلطان سليم بعد أن كاد الأمر يتحول إلى

حرب بين الأمراء، فقد تزعم دواداره الأمير علان، يؤيده الأمير كرتباي والي القاهرة، الدعوة لرفض عروض السلطان سليم، وشنَّعوا على الأمراء الذين أيدوا رأي طومان باي، وكاد الفريقان يقتتلان، لولا أن أنهى طومان المناقشة بأن التفت للأمير مغلباي وقال له:

- انزل وبهدل سفير ابن عثمان كما فعلوا معك عندما ذهبت إليهم.

وفي الليلة التالية، خرجوا بالسفير العثماني ومن كان معه تحت جنح الليل فأغرقوهم في النيل.



أمير مملوكي مع حاشيته



غرفة استقبال للحريم

كاسر الجيشين

استقبل أهل القاهرة مع أول أيام عام ١٥١٧م، موجة برد قارس نفذ إلى عظامهم، وواصلت الشمس الاختفاء عدة أيام لم يتوقف خلالها المطر، وأحال البرق ليل المدينة إلى نهار، بينما أسقطت الأمطار بعض البيوت في سوق مرجوش وفي أنحاء أخرى من المدينة.

لكن أهل القاهرة لم يتحملوا البقاء في بيوتهم، والأحداث تتحرك بعنف. وأدرك الأمراء والقريبون من قصر السلطنة أن قتل سفير السلطان سليم يعني إعلان الحرب، فأخذ سكان الضواحي يدخلون المدينة ليقيموا بها، ونقل الأثرياء ثرواتهم وتُحفهم إلى المقابر والمدارس والمساجد، وإلى بيوت أتباعهم من العوام، لتكون بمأمن من نهب العثمانيين.

وانغمس طومان باي لأذنيه في استعدادات الحرب، فقرر أن يقود بنفسه حملة ضخمة، تلتقي بجيش السلطان سليم فور عبوره صحراء سيناء، وقبل أن يستريح من رحلته الشاقة عبر الصحراء.

وحسم طومان باي مسألة الأموال بسرعة، ففرض ضرائب على الأغنياء وكبار الأمراء، وأخرج من خزائن السلطنة ما بقي من تُحف

وقماش وسلاح وذخائر وصوف، ووصلت إليه الأسلحة النارية التي اشتراها، فأصبح جيشه مزودًا بالبنادق والمدفعية الثقيلة.

وطاف المنادي بالقاهرة، فنبه العسكر بأن يصعدوا إلى القلعة ليقبضوا نفقة الحرب، فلما صعدوا صرف السلطان لكل مملوك ثلاثين دينارًا، وأعطى كلًّا منهم فوق هذا عشرين دينارًا مرتب ثلاثة أشهر مقدمًا.

ثار المماليك ثورة عنيفة، ورمى بعضهم النفقة في وجه السلطان، وأعلنوا إضرابهم عن الحرب. وحين حاول طومان باي أن يتفاهم معهم صاحوا في وجهه:

- ما نسافر حتى نأخذ مائة دينار للواحد، فإنه لم يبقَ عندنا لا خيول ولا قماش ولا سلاح!

احتد السلطان عليهم وصاح فيهم:

- ما أقدر على مائة دينار لكل مملوك، والخزائن فارغة من المال، وإن لم ترضوا بذلك فولوا عليكم من تختارونه في السلطنة، وأنا أتوجه إلى مكة.

المملوك في كامل عدته العسكرية

وقام السلطان فغادر المكان غاضبًا، وتصايح المماليك خلفه يلعنونه.

وصاح أحدهم:

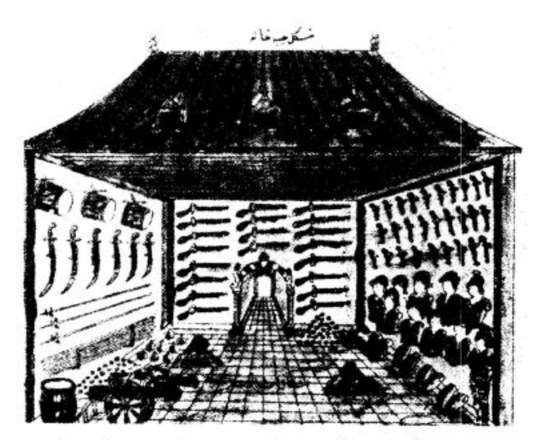
- إن كنت تعمل سلطانًا فامشِ على طريقة من تقدمك من الملوك، وإن رحت فلعنة الله عليك، غيرك يعمل سلطانًا!

توقف السلطان أمام باب الحريم، وقال قبل أن يتوارى خلفه:

- أنتم أخذتم من السلطان الغوري ثلاثين دينارًا ولم تقاتلوا، وكسرتم السلطان وختنموه حتى قُتل!

وفي اليوم التالي، دعا السلطان أمراء المماليك، كبارهم وصغارهم، وطرح المشكلة عليهم، وبعد أن أفاض في شرح ما تعانيه الخزائن من إفلاس، أشار إلى ابن السلطان الغوري، وكان يجلس بجواره، وقال مخاطبًا الجلبان:

- هذا ابن أستاذكم قد حضر، اسألوه إن كان أبوه ترك في الخزائن شيئًا من المال، وإن كنتم تسلطنونه فأنا أول من يبوس له الأرض.



رسم تركي لأشكال الأسلحة العثمانية في العصور الوسطى

وبعد مناقشة طويلة ومجهدة، وافق السلطان أن يضيف إلى الدنانير الخمسين ثمن اللحم والعليق الذي لم يُصرف للمماليك.

وفي الثاني من يناير/ كانون الثاني ١٥١٧م، صلى السلطان سليم صلاة عيد الأضحى المبارك بجامع غزة، وقضى بها ستة أيام، رتب خلالها جنوده، ورسم خط سيره منها إلى مصر عبر صحراء سيناء.

أما طومان باي فإنه ما كاد ينتهي من مراسم الاحتفال بعيد الأضحى، حتى نادى في المماليك بأن يلحقوا به في الريدانية ليستعرضهم هناك، ويتقدموا منها إلى الصالحية، فيكونوا في انتظار الجيش العثماني قبل أن يستريح من رحلته الشاقة في صحراء سيناء، وقبل أن يحصل على حاجته من الماء والمرعى.

وحين تجمعت فرق الجيش في الريدانية، اعترض الأمراء بزعامة جان بردي الغزالي على خطة التحرك إلى الصالحية، وأصروا على البقاء بالريدانية حتى يصل العثمانيون إليها، ولم يستطع طومان باي أن يقنعهم، فرضخ لهم مكرهًا، دون أن يفهم الحكمة في موقفهم ذاك.

وسرعان ما اكتشف السبب، فقد كان معظمهم يقيم في معسكر الجيش بالريدانية ضحوة النهار، فإذا جاء الليل عادوا إلى بيوتهم، ينقلون تحت ستر الظلام أمتعتهم وأموالهم وكنوزهم إلى المقابر والمساجد وأضرحة الأولياء وبيوت الفقراء.

استسلم طومان باي لرأي أمرائه، وبدأ يحصن الريدانية، واشترك مع جنوده ومماليكه في حفر خندق طويل على امتداد جبهة القتال، وصنع من التراب الذي تخلف عنه حائطًا مرتفعًا، ووقف خلفه الرماة بالبنادق، بينما أمر بوضع المدفعية الثقيلة فوق الجبل الأحمر، لتحمي

ظهر الجيش، وتَحُول بين العثمانيين وبين الالتفاف عليه.



أشكال من الخناجر التركية

اعترض جان بردي الغزالي على الخطة وعلى ترتيب القوات، وأخذ يقنع الأمراء بأن الجيش العثماني سيركز ثقله على الريدانية، وسيضربها بمدفعيته الثقيلة، وأنه لن يفكر في الالتفاف من وراء ظهر الجيش. واقترح عليهم أن تنقل المدفعية الثقيلة لتحتمي خلف الساتر الترابي، وتتبادل مكانها مع رماة البندق الرصاص.

نجح إلحاح الغزالي في نقل المدفعية من فوق الجبل، برغم معارضة طومان باي الذي قال:

- أخشى أن يحاصَر جيشنا بين القوات العثمانية من الأمام ومن الخلف!

لم يتنبه أحد من الأمراء لتحذير طومان باي، برغم أن الحوادث كانت تؤيد كل ما توقعه، فقد وصل الجيش العثماني إلى الصالحية مُجْهَدًا، يعاني من الجوع والعطش ونقص الزاد، وكانت الفرصة ساعتها مواتية للهجوم عليه وتبديد شمله قبل أن يستريح، ولكنه وجد المدينة خالية من كل وسائل الدفاع، ولم يجد فيها ما يكفيه من راحة، فتقدم إلى بلبيس ثم الخانكة، ولم تفعل القوات المملوكية التي كُلفت بالدفاع عن المدينتين شيئًا إلا إشعال النار في كل شون القمح والشعير على طول الطريق، حتى لا تقع في أيدي الأعداء.

استقر الجيش العثماني في الخانكة ليكمل راحته ويتزود بما يكفي

حاجته، وأرسل السلطان سليم جواسيسه ليجمعوا له الأخبار والأنصار، وكتب خاير بيك وخُشْقَدم والشقنجي رسائل لأصدقائهم وأنصارهم، يغرونهم بالانضمام إلى السلطان سليم، ويبالغون في وصف ما أسبغه عليهم من ألقاب، وما منحهم من عطايا ووظائف.

وأراد إبراهيم السمرقندي أن يقدم لسيده الجديد خدمة يتميز بها عن كل زملائه، فأخذ عددًا من الجنود العثمانيين، وتوجه إلى مضارب العربان يفاوضهم في الانضمام بجِمالهم وأسلحتهم لجيش السلطان سليم، وظل ينتقل من مكان لآخر، حتى استدرجه أحد العربان بعيدًا عن حراسه، وجزَّ رأسه، وانطلق مسرعًا على حصانه، حتى وصل إلى خيمة السلطان طومان باي في الريدانية، واستأذن عليه، وانحنى بين يديه، وسأله:





قمصان حربية مملوكية

- ماذا تعطي من يأتيك برأس السمرقندي؟

قال السلطان مندفعًا:

- ألف دينار.

وبهدوء أزاح البدوي عباءته، وقدم للسلطان رأس السمرقندي، وكان الدم يخضب شعر لحيته وشاربه، وأمر السلطان فعلقوه على باب زويلة.

وكان جواسيس خاير بيك أحسن حظًا من السمرقندي، فقد اتصلوا بجان بردي الغزالي، فزودهم بخطة السلطان

طومان باي كاملة، ورسم لهم أماكن المدافع، وأوضاع القوات، ونبههم للثغرات في خطة طومان باي.

وحين بدأت المعركة انقسمت القوات العثمانية إلى فرقتين: زحفت الأولى عن طريق الجبل الأحمر، وأخذت تنهال بمدافعها الثقيلة على ظهر الجيش المملوكي الذي لم يستطع أن يغير أوضاع مدافعه بسهولة، وتقدمت الفرقة العثمانية الثانية إلى الريدانية، فشاركت زميلتها في حصار الجيش المملوكي.

وحدث ما توقعه طومان باي! حصدت المدفعية العثمانية المماليك، وامتلأت الأرض بين سبيل علان وتربة الأمير يشبك بجثثهم. ومع أنهم



فرقة من الجيش العثماني أثناء القتال

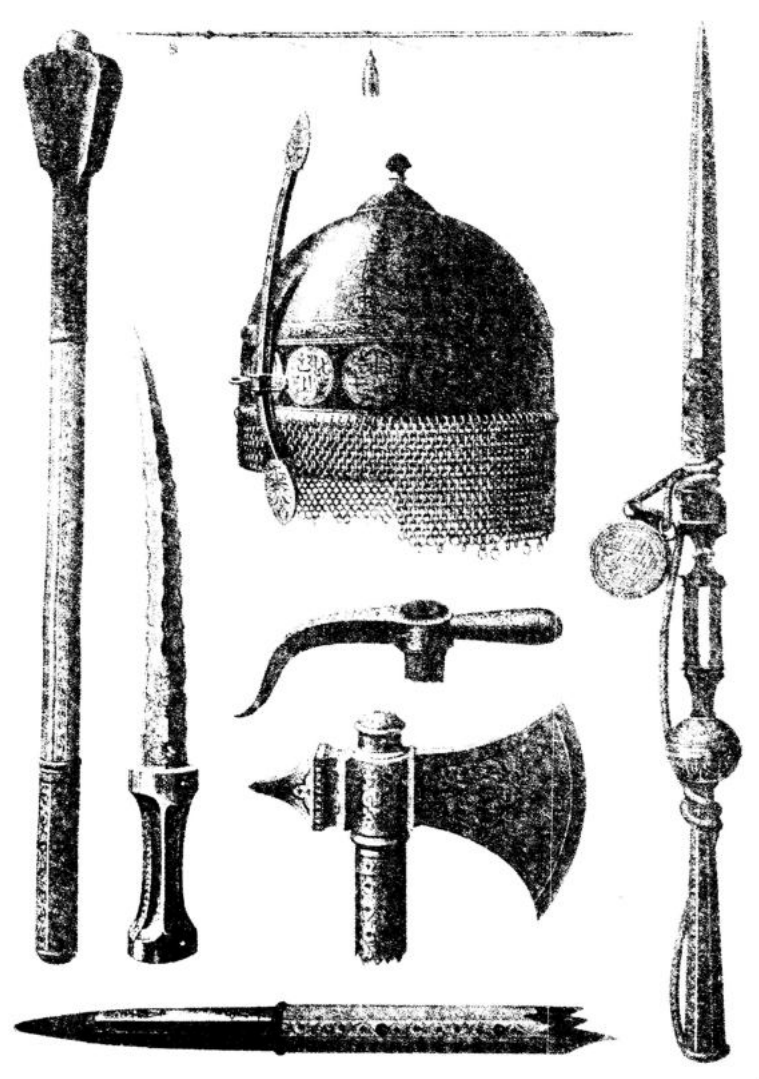
قتلوا عددًا ضخمًا من الجنود العثمانيين، وقتلوا رئيس الوزراء العثماني سنان باشا، إلا إن أملهم في الانتصار كان يتلاشى لحظة بعد أخرى، فالعدو كان يعرف كل شيء على أرضهم وفي عقولهم.

وأدرك طومان باي قرب نهاية المعركة، أنه لا أمل في الانتصار، فانسحب إلى منطقة طرة جنوب القاهرة، وترك خيامه للعثمانيين ينهبون كل ما كان فيها من قماش وسلاح وخيول وبارود.

تقدمت جحافل العثمانيين نحو القاهرة، وهم شاهرون سيوفهم، فاقتحموا سجن المقشرة، وأفرجوا عن جواسيسهم ورعاياهم المعتقلين، وانطلقوا إلى بيوت الأمراء فنهبوها، واستولوا على ما بالطواحين من بغال ودواب وجِمال، ونهبوا شون القمح في القاهرة وبولاق.

وفي اليوم التالي (٢٣ يناير/ كانون الثاني ١٥١٧م) دخل جيش السلطان سليم العثماني القاهرة، وفي مقدمته خاير بيك وخُشْقَدم والعجمي الشقنجي وكل من انضم إليه من مماليك حلب ودمشق والقاهرة، وخلفهم جحافل الجنود العثمانيين، ينهبون بيوت الناس، ويهجمون عليهم، ويسرقون البغال والخيول والقماش.

يومها، أنهى خطباء المساجد خطبتهم بهذا الدعاء: «وانصر اللهم السلطان ابن السلطان، ملك البرَّين والبحرين، وكاسر الجيشين، وسلطان العراقين، وخادم الحرمين الشريفين، الملك المظفر سليم شاه بن بايزيد، اللهم انصره نصرًا عزيزًا، وافتح له فتحًا مبينًا، يا مالك الدنيا والآخرة، يا رب العالمين».



أسلحة طومان باي

رؤوس شقراء

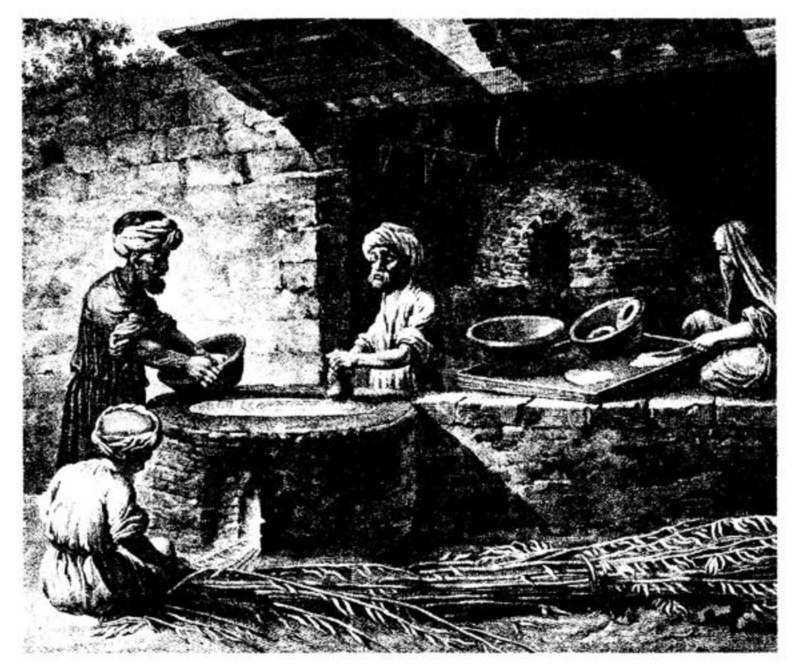
افترس الموت الجراكسة. ملأت جثثهم الشوارع والأزقة والدروب. اختلطت جثث الأمراء بجثث المماليك، وكلها بلا رؤوس. طاردهم جند ابن عثمان في كل شقوق القاهرة: في البيوت، والإسطبلات، وفي الغيطان والسواقي والشِّوَن. اقتحموا عليهم المقابر التي أخفوا فيها كنوزهم، فنهبوا الكنوز وجزوا الرؤوس، فلما كثرت، مدوا بين الصواري حبالًا ونشروا عليها الرؤوس.

تبدد الجيش المملوكي، مات كما مات قائده الأخير الأمير سودون الدواداري وسط الهزء والسخرية، فقد أسره العثمانيون وهو جريح مكسور الفخذ، وأمر السلطان سليم فأركبوه على حمار وألبسوه عمامة زرقاء، وطافوا به معسكرهم يقرعون الأجراس، ويضحكون ويهزأون، وانطلقوا متزاحمين ليمروا بقائد الجيش المهزوم وسط المدينة، ولكن الرجل وفر على نفسه المهانة فمات قبل أن يعبر به الحمار بوابة المعسكر.

واستقر السلطان سليم في جزيرة بولاق، فتوافد عليه كبار قادة الدولة المملوكية، يقدمون فروض الطاعة والولاء، فيمنحهم الخنكار

مناصب، ويوزع عليهم صكوك أمان. حتى الناصري محمد بن الغوري سلم نفسه لقاتل والده، فألبسه قفطانًا من مخمل أخضر مذهب، ووضع على رأسه عمامة عثمانية، وأعطاه ورقة بالأمان على نفسه.

ذهبت أيام العز، أصبحت المملوكية مصدر خطر لا فخر، ولم تعد عمائم أبناء البلد مذلة، تخلى المماليك عن شارات الإمارة وأزياء المُلك وأمارات السيادة، ألقوا بالتخفيفات الصغيرة والخطوط الحمر هربًا من مطاردة العثمانيين، ووضعوا على رؤوسهم العمائم كمعظم خلق الله من أهل مصر: النجارين، والحدادين، والزياتين، والنواتية، والرخامين، والنقاشين، و... و... و...



صناعة الكنافة

لم يقف في الميدان سوى هؤلاء، ومعهم الزعر والعُيَّاق والجعيدية وأوباش الناس ومن عليه دم، وما أكثرهم في الأسواق والموالد والمواكب وأيام الفتن. يبيعون أي شيء وكل شيء ولا شيء. يعملون أيامًا ويتصعلكون شهورًا. يدركون وجبة طعام وتفوتهم وجبات. كلمة من أمير غاضب تطيح برؤوسهم، وتمتمة من سلطان منحرف المزاج تعلقهم على باب زويلة، يوسطونهم ويجلسونهم على الخازوق وينشرون جلودهم أحيانًا. في زمن الغلاء والمجاعة والطاعون يظهرون بأسمالهم البالية، وأقدامهم الحافية، وملامحهم التي خطَّ الفقر والجوع عليها توقيعه، يقفون لموكب السلطان الذي يلمع الذهب على برادع خيوله وألجمة أحصنته، يهتفون: «الله يهلك من يقصد الغلاء للمسلمين».

يغضب السلطان. يُنكِّدون عليه سرحته، يخطفون الطعام الذي يحمله المماليك إلى مآدبه.

بلا دية يموت الواحد منهم، فليس وراءه عصبية تطالب بديته.

ماذا يستطيع هؤلاء أن يفعلوا وهم لم يشدوا يومًا قوسًا أو يرفعوا سيفًا؟

ها هم أولاء جميعًا يملأون شوارع المدينة، ضاعوا بين الغازي المنتصر، والغازي المهزوم الذي حرَّم عليهم صنعة السلاح، وها قد جاء الزمن الذي تخلى فيه المماليك عن صنعتهم التي لم يعرفوا غيرها، وتركوا المدينة هاربين، وقد ازدحمت بالزعر والعُيَّاق والصبيان والشطار والقتلة واللصوص، وكل من كان مختفيًا على قتل قتيل أو عليه دم. ظهروا جميعًا حين أمر طومان باي قبل معركة الريدانية بالنداء

عليهم بأن يظهروا وعليهم أمان الله تعالى، ولهم فوق هذا جامكية ودابة ورمح وسيف ليخرجوا مع التجريدة.

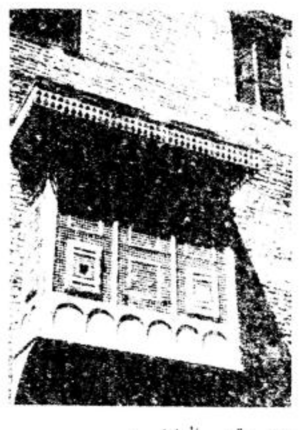


تدوير الخشب

لم يكن أحد في القاهرة يتوقع أن تكون ليلة الأربعاء ٢٨ يناير/كانون الثاني من سنة ١٥١٧م مختلفة عن الليالي القليلة التي سبقتها، فالهدوء عاد إلى المدينة، وكفَّ العثمانيون عن مطاردة الجراكسة بعد أن سدوا الدروب بجثثهم، والسلطان طومان باي قد هرب إلى حيث لا يعرف أحد.

النجارة

وفجأة، ووسط الظلام الدامس، انطلق مئات من نوتية بولاق، يرجمون المعسكر العثماني بالحجارة. وبعد قليل ازدحمت الشوارع المؤدية للمعسكر بآلاف من أهالي بولاق يحملون المقاليع والنبابيت والمشاعل وأدوات القتال، وأحاط الجميع بمعسكر السلطان سليم، ثم أطلقوا عليه جِمالًا تحمل أعشابًا مشتعلة، فاندفعت تنشر اللهب في الخيام والبارود والغلال. وفوجئ الجنود العثمانيون بالنيران تلتهم معسكرهم، فملأ صراخهم الفضاء، واندفعوا بغير نظام يحاولون الفرار من النار المشتعلة والانفجارات المتوالية.


مشربية من الخشب

وحين سمع أهالي بولاق نبأ ظهور السلطان طومان باي في قلب القاهرة، توافدوا على مقر قيادته بجامع شيخو، وانضموا إليه، واندفعوا يقيمون المتاريس على أبواب الحارات، وحفروا ثلاثة خنادق عميقة تحصنوا وراءها.

أصبحت القاهرة كلها ميدان قتال. حاربت الشوارع والأزقة والبيوت والحواري ومآذن المساجد ومزارات الأولياء، وجامع شيخو، وزاوية عماد الدين. نادى السلطان طومان باي في الناصرية، وقناطر السباع للزعر والعُيَّاق، بأن كل من قبض على عثماني يقطع رأسه ويحضره بين يديه. استولى الأهالي على رأس الجزيرة الوسطى، وسيطروا على كل ما يقع بينها وبين قنطرة باب البحر، ثم سيطروا على قنطرة قديدار. وعندما اشتد الضرب على القنطرة، قطع الأهالي السد، فسالت المياه وحالت دون تقدم الغزاة.

واجهت القوات العثمانية التي قادها الوزير يونس باشا مقاومة عنيفة، وبدأت تتساقط أمام عنف القتال وصعوبته، في شوارع ملتوية يعرف الزعر والعُيَّاق والجعيدية مداخلها ومخارجها، بينما لا يعرفون هم من أين تأتيهم الضربات.

وفي اليوم الثاني للقتال، وكان يوم جمعة، خطب أئمة المساجد في القاهرة المحررة الجمعة وختموها بالدعاء للسلطان الملك الأشرف أبو النصر طومان باي الثاني.



جنود عثمانيون يتدربون على المبارزة بالسيف على ظهور الجِمال

وازداد القتال ضراوة في اليوم الثالث، وتدهور موقف العثمانيين، وأرسل يونس باشا يطلب مددًا من السلطان سليم حتى يستطيع السيطرة على المدينة، فقاد السلطان بنفسه مددًا ضخمًا من قوات الينكجرية، واستطاع أن يتسلل من وراء ظهر المماليك، ونصب مدافعه الثقيلة فوق أسطح البنايات، فانهالت طلقاتها على متاريس الثوار فلم تصمد لها. وكثف العثمانيون هجومهم، فسقط جامع شيخو، وفر طومان باي ورفاقه، وأباح السلطان سليم لجنوده نهب المدينة، فلعبوا بالسيف في رقاب أهلها، وسدوا بجثثهم الشوارع من باب زويلة إلى ميدان الرميلة، ومن الصليبة إلى مصر القديمة، حتى بلغ عدد القتلى عشرة آلاف إنسان.

اندفعت قوات ابن عثمان تطهر المدينة من الثوار، فاقتحموا الجامع الأزهر وجامع ابن طولون، وهاجموا مدارس العلم ومزارات الأولياء، فقبضوا على ثمانمائة مملوك، كانوا قد اختفوا بها، أمر السلطان فضَربوا أعناقهم.

خمدت الثورة، بينما ظل الجلاد عدة أيام في معسكر بولاق، مشغولًا بعزل الرؤوس الجركسية الشقراء، عن رؤوس المصريين السمراء، وحين انتهى من التمييز بينهما، ألقى الرؤوس الشقراء في النيل، ونصب بين الصواري حِبالًا علَّق عليها الرؤوس السمراء!



الأزهر من الداخل

حدث يوم شم النسيم

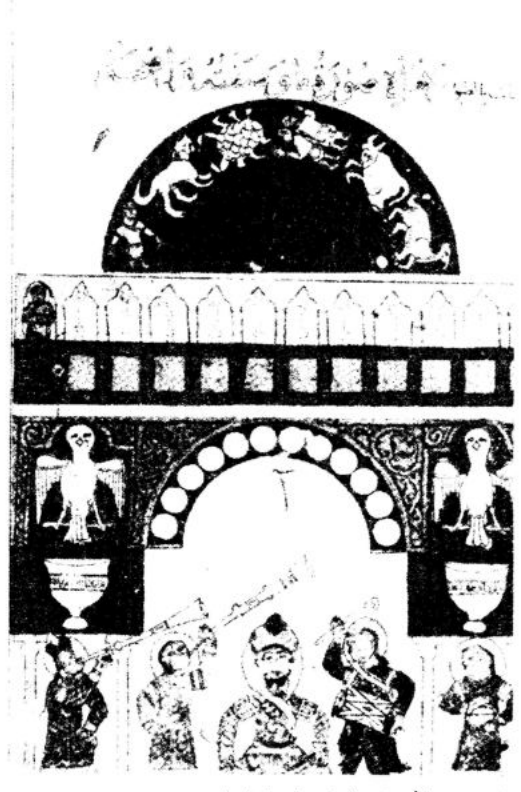
أخيرًا ظهر جان بردي الغزالي!

دخل القاهرة قادمًا من المعسكر العثماني بالخانكة، وعلى رأسه منديل أمان، فاكتشف الناس أين اختفى بعد معركة الريدانية، وحين سمعوا أنه توجه مباشرة إلى معسكر السلطان سليم، فهشَّ له، وبشَّ في وجهه، وسمح له بالجلوس في حضرته، تكشفت أمامهم ألغاز كثيرة!

وفيما تلا ذلك من أيام، لم يترك الخنكار سليم فرصة تمر دون أن يؤكد ثقته في الغزالي وعرفانه بجميله، فحين استقبله قَبل شفاعته في أسرى المماليك، وأذن له فصعد إلى القلعة وقابل الأسرى، وقادهم - وكانوا ٧٧٢ فردًا من مختلف الرتب - إلى المعسكر، فانحنوا بين يدي السلطان، وقبَّلوا الأرض بين قدميه، فأمَّنهم على أعمارهم وأموالهم، وعفا عنهم، ثم أمر فأعادوهم إلى القلعة، ليبقوا بها حتى تستقر الأحوال.

وأثبت الغزالي لسيده الجديد أنه رجل المهام الصعبة، فتطوع لتأديب عربان الشرقية، وكانوا يقطعون الطريق على الجنود العثمانيين فيقتلونهم ويستولون على خيولهم وجمالهم وسلاحهم، والعثمانيون عاجزون عن اللحاق بهم، لجهلهم بطرق البلاد ودروب الصحراء.

وكان السلطان طومان باي قد ظهر هو الآخر في البهنسا جنوب الجيزة، فجمع حوله فريقًا من المماليك والعربان والفلاحين، وأخذ يهاجم قوارب العثمانيين التي تعبر النيل، ولكن مناوشاته المتقطعة لم تفد بشيء. وفي ٢٥ مارس/ آذار ١٥١٧م، هاجمه السلطان سليم عند وِردان بالقرب من الجيزة، فهزمه للمرة الثالثة والأخيرة!



النفخ في الأبواق والدق على الطبول

وفي منتصف ليلة الجمعة ٢٧ مارس/ آذار سنة ١٥١٧م، جمع السلطان طومان باي من بقي من أمرائه وقُواده، وخاطبهم وهو يكتم دموعه، فقال:

- اعلموا يا أغوات أن دولتنا قد دالت، وآجالنا قد مالت، وما بقي لنا في هذه الديار نصيب!

لم يرد أحد، وغابت نظرات السلطان تتأمل أنوار القاهرة الخافتة تبدو عند حد الأفق، وأضاف بعد لحظة:

- لقد ثلمت سيوفنا، ولم يبقَ إلا أن أذهب إلى أعز أصحابي، حسن بن مرعي.

تساءل أحد الأمراء بقلق:

- أتظنه يجيرك؟

قال السلطان دهشًا:

- ولِمَ لا؟! لقد أطلقته من الحبس بعد أن حكم عليه الغوري بالسجن إلى الأبد، ووليته شياخة العربان، ودفعت عنه ما فُرض عليه من غرامات.

لم يعلق أحدهم. وحين طال الصمت، قاموا متثاقلين، واحتضن كلٌّ منهم الآخر مودعًا دون أن يتبادلوا كلمة، وانطلقوا عبر الظلام، كلٌّ إلى مكان.

لم يكن نور الفجر قد ظهر بعد، حين وصل السلطان طومان باي وعدد من أتباعه

سيف السلطان طومان باي

إلى قرية سخا، حيث يقيم صديقه حسن بن مرعي وسط مضارب قبائله المنتشرة. واستيقظ شيخ العربان فزعًا ليجد السلطان يستجير به بعد أن ضاع العرش وسقط التاج، فانحنى وقبَّل يده، وطلب منه أن يُشرفه بالإفطار على مائدته.

قال طومان بنفاد صبر:

- ما نحن فاضون للضيافة أو غيرها، فالعدو في إثرنا، وما جئت لك إلا لتنظر لنا محلًّا نحتمي فيه ثم ندبر أمرنا.

فكر حسن بن مرعي قليلًا، ثم ركب حصانه، وانطلق في صحبة السلطان، وحث الجميع خيولهم حتى يصلوا إلى هدفهم قبل أن تظهر الشمس في الأفق. ووصلوا أخيرًا إلى مكان تحيط به الرمال المتحركة من الجانبين، ويربطه بالبر مدخل ضيق يُسهِّل حمايته. وقال الشيخ حسن وهو يساعد صديقه طومان باي في النزول من فوق حصانه:

- هذا الوادي هو قلعتنا، ولن يدركك فيه عدو أيًّا كان!

دلف الرجال المنهوكون من الهزيمة وسفر الليل الطويل، وأقاموا خيمة على تل عالٍ تحيط به الأرض السبخة. وبعد أن اطمأن حسن بن مرعي على أحوالهم، استأذن من السلطان، ليعود إلى سخا، فيأتي بالأخبار وببعض الزاد وبالخدم والحراس، فأذن له، وقبَّل الرجل يده، وانطلق مع أول شعاع من أشعة الشمس.

وقف السلطان طومان باي على باب الخيمة، وقد سرح بصره في قطرات الندى المتساقطة على الرمال، وقال:

- هذا الوادي خير لنا من قلعتنا التي كنا بها ما لم يخُنا حسن بن مرعي.

تمتم الأمراء من داخل الخيمة:

- الله يُخوِّن الخائن.



عائلة عثمانية

ما كاد حسن يعود إلى سخا حتى فوجئ بأنباء كثيرة؛ اندفع ابن عمه شُكر يسوقها إليه، وهو في دهشة بالغة من غيابه، فقد طرقت حملة عسكرية عثمانية - بقيادة الوزير فرهاد باشا - باب شكر بعد الفجر بقليل، فأيقظوه، وسألوه عن حسن، فزعم لهم أنه خرج ليزور بعض مشايخ العربان في مكان قريب، وسألهم عن حاجتهم، فقال الوزير فرهاد:

- علمنا أن السلطان طومان باي قد اتجه إلى هذه النواحي، ونحن في إثره.

انتهى شكر من قصته، وصمت حسن، فقال له ابن عمه:

- علمت من أمك أنك خرجت مع السلطان طومان باي. فماذا أنت قائل للوزير؟

لم يرد حسن. وبعد لحظات قام فجأة وتقدم إلى حيث جلس الوزير، فانحنى وقبَّل يده، وسلَّم على خاير بيك وجان بردي الغزالي، ثم قال:

- ماذا تعطون لمن يسلمكم طومان باي؟

هزت المفاجأة الجميع، وصمت فرهاد باشا قليلًا، ثم قال:

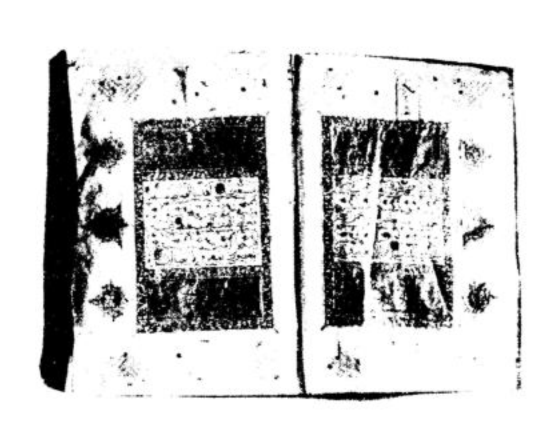
- أستطيع أن أعدك بأن تُمنح مضارب قبائلك إقطاعًا إلى أن تموت، وأن تكون مقدمًا عند السلطان على كل مشايخ العرب، فإن جعلت الأمر لمروءة سلطاننا، حصلت على أكثر مما تطلب.

قال الشيخ حسن بشهامة:

- عليَّ تسليمه، وأجعل الأمر بمروءتكم.

وقبل أن تغرب الشمس، كان حسن بن مرعي قد عاد إلى الوادي الحصين الذي ترك به صديقه طومان باي. وحين دخل عليه وفي صحبته جان بردي الغزالي وخاير بيك، تبادل الأربعة نظرات صامتة، كانت تحمل تاريخًا طويلًا جمع بينهم، في ثكنات القلعة، وفي حروب العربان، وفي احتفالات وفاء النيل، ويوم زفوا طومان باي. وقطع إياس باشا قائد الينكجرية الصمت، فتقدم من طومان باي، وانحنى له، وقال بأدب:

- الأمر أمر الله تعالى، فقم يا مولانا السلطان، اجعل يدك اليمنى فوق اليسرى، ولا تؤاخذنا في ذلك يا مولانا.



وتقدم الجنود، فأوثقوا يديه - شأن كل الأعيان - من الأمام، وأركبوه على بغلة، وقيدوه من تحت بطنها.

وحين استقبله السلطان سليم قال له:

- يا طومان، كم نهيناك عن القتال؟!

قال آخر سلاطين المماليك:

- لم يكن شيء مما جرى بأمري!

وأردف وهو يشير إلى الغزالي وخاير بيك:

- لو كان فيهما خير، لكان لنا!



شنق السلطان طومان باي على باب زويلة بالقاهرة

■ القاهرة

■ ٢٣ أبريل/ نيسان سنة ١٥١٧م

كان اليوم عيد شم النسيم، ومع ذلك فقد خلت الشوارع والمنتزهات من الناس، وغطت عفونة الجثث التي زحمت الشوارع على أريج الزهور التي تفتحت مع مطلع الربيع، فلم يخرج القاهريون إلى شواطئ النيل، ولم يمرحوا فوق سطح الخليج. وفجأة تنبه الناس إلى الشوارع، فإذا بموكب السلطان طومان باي قد خرج من معسكر العثمانيين، والسلطان على حصان، وقد قيدوه من الأمام، وربطوه إلى الحمار بسلاسل حديدية، وفي مقدمة الموكب أربعمائة من جنود الخنكار، وعبروا إلى بولاق، والموكب يزدحم بالناس كلما انتقل من شارع إلى آخر، وعلى طول الطريق كان السلطان يحيي الناس قائلاً السلام عليكم ورحمة الله.

ضاعت آخر الآمال في إنقاذ طومان باي، ونشب الصراع بين وزراء السلطان سليم، وبين الغزالي وخاير بيك. حاول الوزراء إقناع السلطان بأن استمالة طومان باي ليعمل مع العثمانيين، ويحكم باسمهم، أفضل من قتله، لكن الغزالي ثار، وقال للسلطان:

- إن الناس لم يُصدقوا أن طومان عجز وسلم نفسه، وإذا لم تقتله فسوف يستمر شغب العامة وتمرد العربان!

وأضاف خاير بيك:

- لن يطيعك الناس ما لم يروا بأعينهم هلاك طومان باي!

وهكذا فوجئ أهل القاهرة بموكب طومان باي يشقها، فوقفوا يودعون آخر سلاطين الجراكسة!

وحين وصلوا إلى باب زويلة، أنزلوه عن فرسه، وأرخوا له الحبال، ووقف العثمانيون حوله بسيوف مسلولة. أما هو فقد صعد إلى المشنقة في خطوات سريعة، ثم واجه الناس قائلًا:

- اقرأوا لي الفاتحة!

وبسط يديه، وقرأ الفاتحة، وقرأها معه الناس ودموعهم تسيل، وحين مسح وجهه بكفيه، نظر إلى فرقة التنفيذ وقال:

- اعملوا شغلكم!

ودخل رأس آخر سلاطين المماليك في الخيَّة!

منديل الأمان

انتهى الزمن السعيد! ضاعت الدولة التي بُنيت بالسيف والرمح وأجساد الموسطين والمكبلين والحنث بالقسم، ببيع الأبناء وخيانة الأصدقاء والتآمر على الأوطان! ضاع المماليك ولكن بعد أن أضاعوا العرب!

أربعون عامًا فقط - بعد يوم مرج دابق - كانت كافية لكي تمتد سنابك الخيول العثمانية فتدوس الوطن العربي كله، وتوسع حدود العثمانيين شرقًا حتى العراق التي سقطت عام ١٥٣٤م، والحسا التي احتلوها سنة ١٥٥٥م، وفي الجنوب حتى عدن (١٥٤٧م)، وفي الغرب احتلوا وهران وتلمسان (١٥٥٦م)، فلم يبقَ من الوطن العربي خارج حدودهم إلا المغرب الأقصى من جهة، وقلب الجزيرة العربية من جهة أخرى.

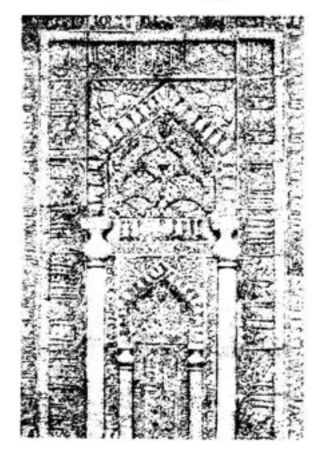
ثلاثة قرون ستمر بعد يوم مرج دابق، لا تشرق فيها الشمس على العرب الذين ازدهرت حضارتهم حين تفاعلوا مع العالم، ترجموا أدبه وفلسفته وعلمه، وصدَّروا إليه أدبهم وفلسفتهم وعلمهم. ثم جاء الظلام العثماني فعزلهم عن العالم.

وبينما كانت أوروبا منذ القرن الخامس عشر الهجري، تتحرك فتزدهر حضارتها بالعلم والمصنع والحرية، كان العرب يستقبلون كل عامين باشا عثمانيًّا جديدًا، جاء ليحكم هذا القُطر أو ذاك، تعاونه فرق من الجنود المرتزقة، ويشكلون مع من بقي من المماليك منسرًا من اللصوص والبلطجية.

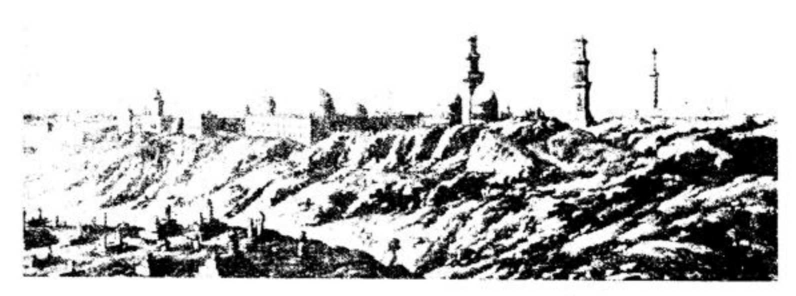
باشا يجيء، وآخر يذهب. لا تتعدى إقامته في القلعة نائبًا عن الخنكار عامًا أو عامين، ولا يسلم أمره لمن يليه إلا بعد أن يقدم حسابًا عن إدارته. فكل باشا يعرف مقدمًا أنه مضطر في النهاية إلى دفع ما سيقرر عليه بسبب هذا الحساب المغلوط، لذلك فهو ينهب كل ما يستطيع نهبه استعدادًا للطارئ المحتوم. وقد نهبوا كلهم، سلبوا وقتلوا وعذبوا، كما كان المماليك ينهبون ويقتلون ويعذبون.

زمن الغزوات مضى، ورجع المماليك يتامى كما بدأوا، بلا خيول أو سلاح أو قماش، بلا إسطبلات أو عبيد أو غلمان، عراة وشبه عراة، يسألون السوقة درهمًا يشترون به كبشة فول يأكلونها أو رغيف خبز يقتاتون به. فأين زمان كان الأمير إذا نزل قرية جمعوا كل ما يؤكل فيها، فطَعِم هو وحاشيته، ورجع بما بقي؟!

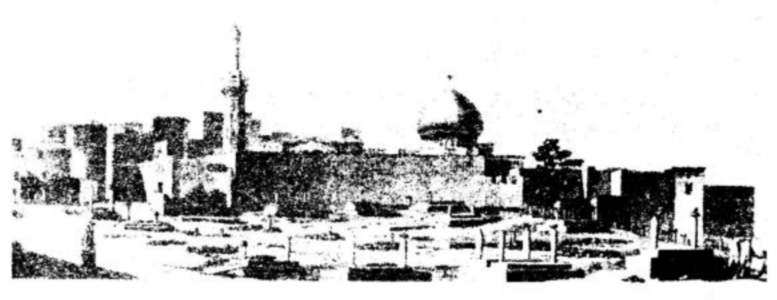
في الطرقات ساروا يبحثون عن سيد، فبلاط الخنكار سليم شاه مزدحم بالخونة والعبيد.



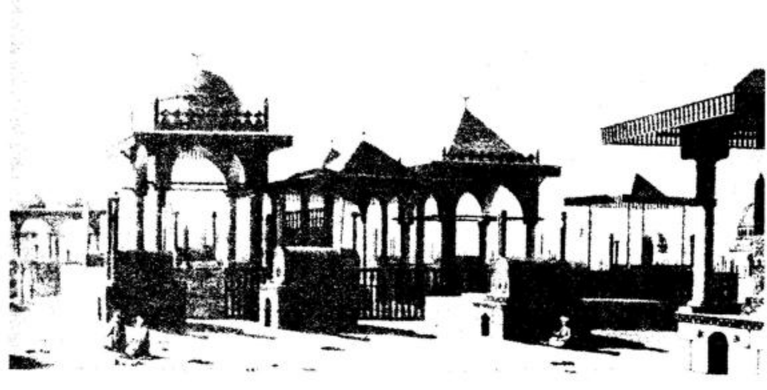
زخارف وكتابات على الخشب



مقابر في سفح جبل المقطم



مقابر الشعب



مقابر المماليك بالقاهرة

مواكبهم مرت أمام الزعر والعوام، بعضهم قال: «اللهم لا شماتة». آخرون قالوا: «سبحان من قهر الجبابرة بعز سلطانه». وقال الجميع: «الخائن يُخوِّنه الله».

ثلاثة كانوا يظنون أن زمانهم قد صفا، وأن سعدهم قد وفى. ولِمَ لا؟ ألم يسلموا الخنكار سليم الشام ومصر، ففتحوا له باب الوطن العربي، فضاعف به إمبراطوريته ضعفين ونصفًا في أعوام قليلة؟ فأي مكانة أقرب للخنكار من مكانتهم؟ وأي إنسان أعز لديه منهم؟ وأي مال يرد معروفهم عليه؟

لكن الأيام مضت ولا تبدو بارقة أمل، فلا مال ولا مكانة. ورث الخنكار كل ما جمعه السلاطين السابقون من الغرامات والمصادرات والضرائب والغنائم، وكل ما وجده في الحواصل والمقابر، وصادر حتى نساء الأمراء، فلم تسلم منه زوجة طومان باي. خانتها جاريتها الجركسية، وأبلغت عن مخابئ كنوزها، فصادروا منها ذهبًا ولؤلؤًا وجواهر مرصعة بأكثر من خمسين ألف دينار، ولم يأخذ خاير بيك شيئًا من ذلك كله، بل إن الخنكار عيَّن وزيره يونس باشا نائبًا له على مصر، ومعنى هذا أنه قد نسي وعوده لخاير بيك بأن يجعله نائبه على مصر. ومع أنه شاركه في كل معاركه على طول الطريق بين حلب والقاهرة، وكان دليله إلى دروب الصحراء ومداخل المدن وأماكن الذخيرة ومواقع العسكر، وظل سنده القوي حتى سكنت القاهرة المتمردة، فقد كاد يبطش به أكثر من مرة، حين ظن أنه ورطه في بلاد يصعب احتلالها. وهو لم يكف عن السخرية منه، فأجبره على أن يخلع زيه المملوكي ويرتدي العمامة المدورة والدلامة، ويقص ذقنه كما يفعل العثمانيون.

وحين دخل عليه بزيه الجديد كرر كلمته التي انتشرت بين العوام، وأصبحت نشيدًا على لسان السوقة: «عفارم خاين بيك!».

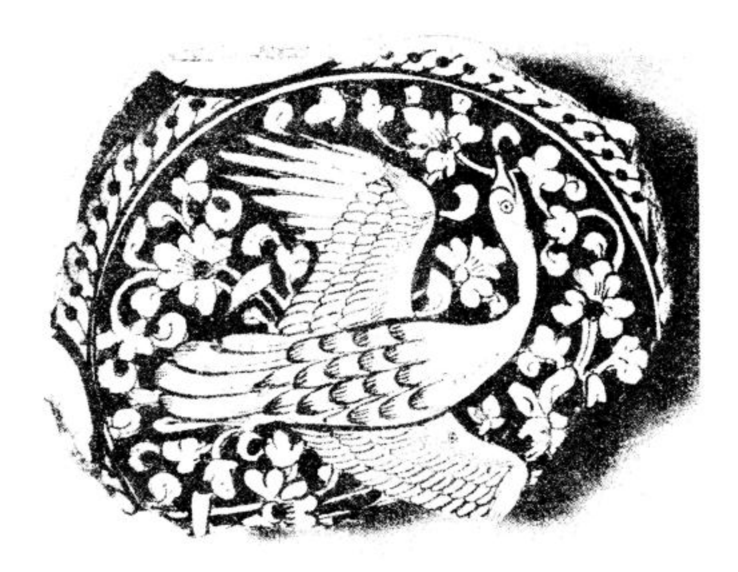
لم تعد ثمة فرصة للتراجع، فلتصبر يا «خاين بيك»، لعل الأوان يحين فينفذ الخنكار وعوده، ولتحمد الله على أنه لم يُطح برأسك، ولا تسألن عن منديل الأمان الذي منحه لك، فالخنكار بشهادة كل من عرفوه لا يحفظ أمانًا ولا يرعى عهدًا.

التزم «خاين بيك» والغزالي الصمت التام، وحمدا الله لأن الخنكار اكتفى بترحيل نسائهما إلى إستانبول، لتكنَّ رهائن عنده. ولم يجسر أحدهما على تذكيره بوعوده، فتلك هي الجريمة التي أودت بشريكهما الثالث حسن بن مرعي. فحين تجاسر وأشار في حضرة السلطان، أن فرهاد باشا قد وعده بمكافأته، غضب الخنكار سليم، وثار ثورة عنيفة، وطرده من مجلسه، فخرج كَسِيفًا، لكن حظه الحسن خدمه، فما إن غادر معسكر السلطان حتى أصدر أمرًا بالقبض عليه.

انطلق الشيخ حسن إلى مضارب قبائله، وقد عز عليه أن العثمانيين استهانوا به، وسخروا منه، فسلمهم صديقه دون ثمن، وفوق هذا أهانه سلطانهم، وأمر بالقبض عليه، وليس بعد السجن سوى الصلب أو الشنق. لذلك أشعل الحرب ضدهم، وانطلق يقطع طرق قوافلهم، فيصادر الأسلحة والخيول والمال والرسائل والمؤن. وأدرك الجميع أن الخائن الغاضب قرر أن يأخذ حقه بيده، وأن يتقاضى الثمن من الخنكار أضعافًا مضاعفة، وأن يُكبده فوق هذا خسائر جمة في أرواح رجاله الأعزاء، ويثير في عوام مصر وحتى في المماليك نوازع التمرد والشغب.

ولما لم يكن لدى الخنكار سليم شاه أكثر من مناديل الأمان، فقد أرسل واحدًا منها لحسن بن مرعي، مع قسم مغلظ بأن يعفو عنه ويرضيه. وابتلع شيخ العربان المتمرد الطُّعم، فما كاد يصل إلى القاهرة، وعلى رأسه منديل الأمان، حتى أحاطت القيود بمعصميه، وقاده العثمانيون إلى سجن القلعة.

ضاع حسن بن مرعي، نسيه الخنكار في جُب القلعة، فقد دهمته المشاغل، واندفع يستعد للرحيل، فالبريد القادم من إستانبول تفوح منه رائحة لا تسر، والحديث قد كثر عن تحركات فارسية يقوم بها الشاه المهزوم إسماعيل الصفوي على الحدود العثمانية، وإذن فليناد المنادي: إلى إستانبول. أما حسن بن مرعي فمن يذكره وسط كل هذا الزحام؟



زخارف مملوكية على جزء من طبق خزفي

لم يفرح أهل القاهرة بنبأ الرحيل سوى بعض يوم. ففي الليل، أصدر السلطان أوامر لعدد كبير من المصريين والمماليك بالاستعداد للرحيل معه. وطرق الجنود أبواب الناصري محمد بن الغوري فأعلنوه بالاستعداد للسفر مع السلطان هو وزوجته، ولم يعترض الرجل، كان يعرف منذ البداية أن السلطان سليم لن يتركه في مصر، حتى لا تغريه الظروف فيفكر في استرداد عرش أبيه.

وسرعان ما اتسعت القوائم، فشملت أمير المؤمنين المتوكل على الله، آخر خلفاء العباسيين في مصر، وعددًا من القضاة والأعيان والأمراء والمباشرين، وكل الذين عُرف عنهم التمرد على السلاطين أو الشغب على الحكام.

ساد الاضطراب المدينة، واختفى بعض الذين صدرت أوامر السلطان بترحيلهم، فهاجم الجنود البيوت والدكاكين للبحث عنهم، وفي الوقت نفسه طافت فرقة عثمانية خاصة بالبيوت والقصور، تنتقي من رخامها أفخمه وأثمنه وأندره، فتفُكه، وتنقله في صناديق من الخشب لتحمله المراكب إلى عاصمة آل عثمان.

وقبل أن يغادر السلطان القاهرة بيوم، أصدر أمرًا بعزل يونس باشا، وعيَّن خاير بيك نائبًا عنه في حكم مصر، وترك له حامية عثمانية من أربعة آلاف جندي، وعيَّن لكل ألف منهم قائدًا، وشكَّل مجلسًا من أمرائه لمعاونة النائب في إدارة البلاد.

غادر السلطان سليم القاهرة في أول سبتمبر/ أيلول ١٥١٧م، بعد أن قضى فيها ما يقرب من ثمانية أشهر، وخرج منها بألف جمل محملة بالفضة والنحاس والذهب والتُّحف والسلاح والصيني، ومن كل شيء

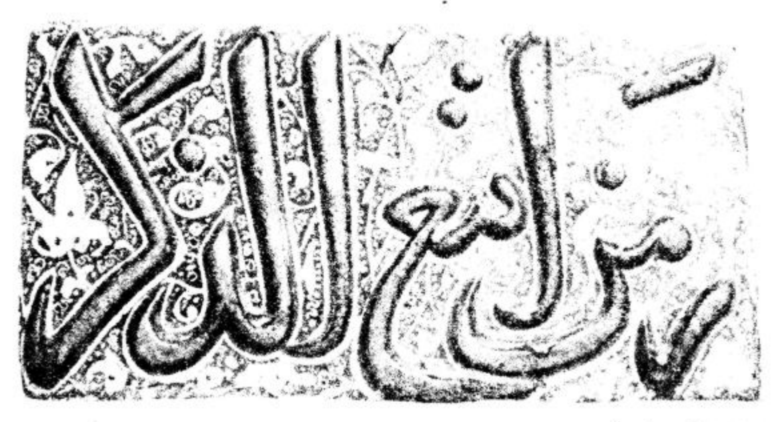
أحسنه: أمهر البنائين والنجارين والحدادين والحجارين والمبلطين ولاعبي الشطرنج، والمغنين، واللاعبين بخيال الظل، وحتى الزهور والرياحين.

شيء واحد نسيه الخنكار في سجن القلعة: خادمه حسن بن مرعي!

لم يرضَ حسن بن مرعي بمصيره، وظل يناور ويتحايل حتى حصل على مِبرد صغير من الحديد، برد به قيوده، ثم غافل حراسه، وتدلى بحبل من فوق سور القلعة وهرب تحت جنح الليل.

وحين عرف ملك الأمراء خاير بيك النبأ، خشي أن يشك الخنكار سليم بأنه ضالع في مؤامرة ضده، فيعود أدراجه ويطيح برأسه، فتحفز لمواجهة شريكه السابق، وقذف بكل ما لديه من قوات عثمانية لمطاردة الشقي الهارب.

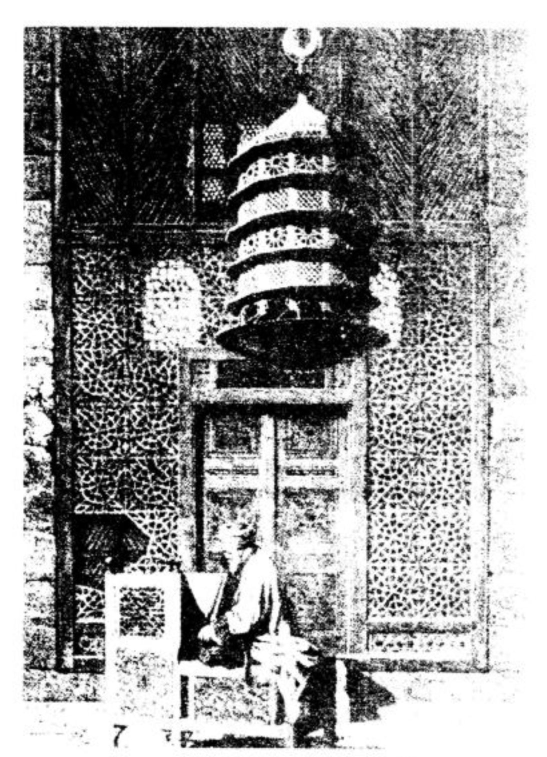
وأثبت حسن بن مرعي أنه خصم عنيد صعب المنال، فحيَّر أربعة آلاف فارس عثماني ببنادقهم ومدافعهم، وقادهم عبر مسالك الصحراء



كتابة قرآنية على الخزف

ومداخل السهول والوديان، ليلتف من خلفهم فيوقع بهم خسائر جمة، واستنجد قادة الفرق العثمانية بخاير بيك، فعزز فرق المطاردة ببقايا المماليك الجراكسة وببعض العربان الموالين له، ولكن ذلك كله لم ينتهِ بنتيجة.

لم يَصْفُ الزمان كما كان الخونة الثلاثة يظنون، ولم يأتِ السعد، رفع كلٌّ منهم السلاح في وجه الآخر، وبدا كأن وريد الدم الذي انقطع في مرج دابق يرفض أن يلتئم قبل أن يغرق في فيضانه من قطعوه!



قارئ يتلو القرآن في أحد المساجد المملوكية

رفع خاير بيك السلاح في وجه شريك الأمس حسن بن مرعي، لأنه رفض أن يخون بلا ثمن. وحين حصل الغزالي على منصب نائب دمشق وهو في الطريق إليها بصحبة السلطان، ظن أن أوان المسرات قد جاء، فما كاد يدخل دمشق حتى وجد ألا مفر أمامه من قمع تمرد ناصر الدين بن الحنش.

كانت هجمات ابن الحنش على أطراف دمشق قد كبدت الحامية العثمانية خسائر فادحة في الأرواح والمؤن والعتاد، وهزت مكانة المحتلين، وأجبرت الحاميات العثمانية على ألا تغادر المدن التي تحتلها. ولم يكن هناك مفر من مواجهته.

لم يسترح الغزالي لحظة واحدة، وانطلق على رأس قوات عثمانية ضخمة يطارد شيخ العربان العاصي، ولكن الرحلة لم تكن هينة، فقد أثبت ابن الحنش أن القبض على شعاع من أشعة الشمس أسهل من الإمساك به، وأكد أنه - كنظيره حسن بن مرعي - خصم عنيد لا سبيل لاكتشاف مكانه في الصحراء، أو بين ثنايا الجبل، أو وسط غوطة دمشق.

المملوك

وحين يئس الغزالي، اتبع أسلوب سيده، فأرسل منديل أمان لشيخ العربان العاصي، وصدَّق الرجل، فتقدم إلى دمشق بغير سلاح، وقبل أن يدخل من بابها قبض عليه رجال الغزالي، وأطاحوا برأسه، وطار به سفير خاص ليدرك السلطان سليم بالنبأ السعيد قبل أن يغادر حلب.

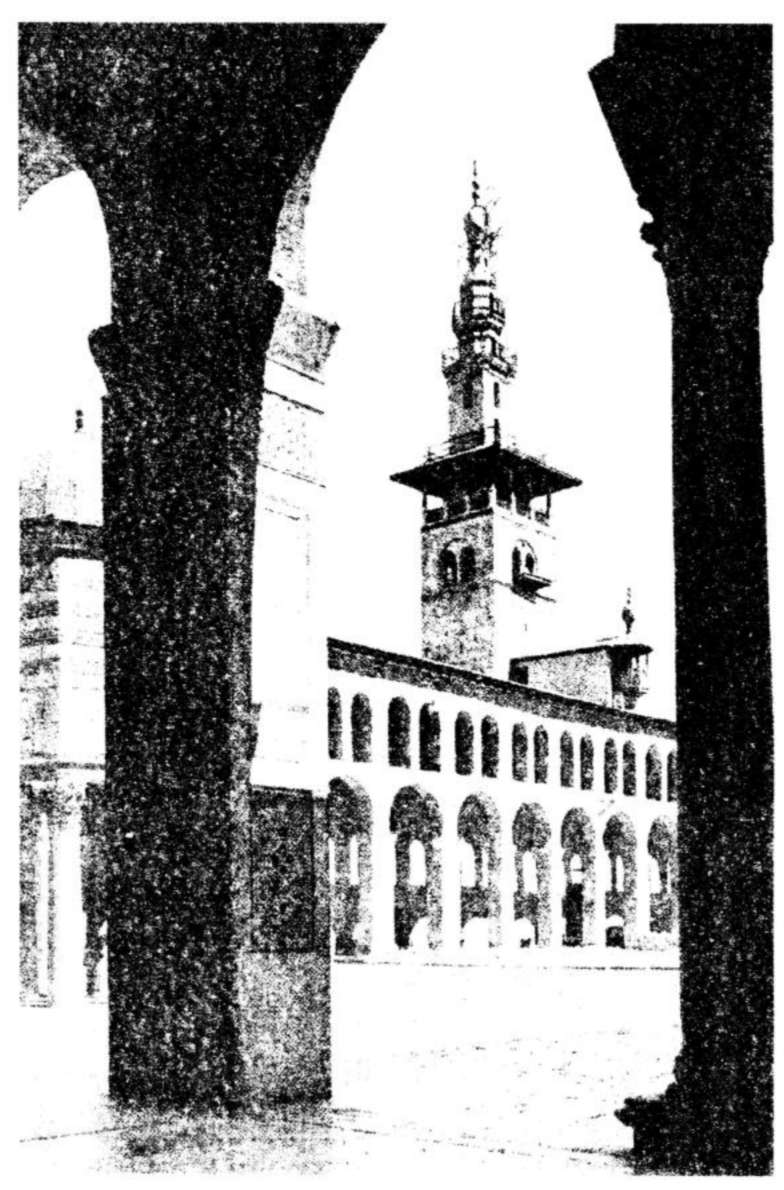


جندي من الحامية العثمانية في مصر

ونجحت نفس اللعبة مع حسن بن مرعي، مع فارق بسيط، فبعد أن منحه خاير بيك منديل الأمان، واستقبله في القلعة، وسهرا معًا وتسامرا، واستذكرا أيامهما القديمة، عاد ابن مرعي إلى مضارب قبائله موفور الكرامة مرفوع الرأس. وفي اليوم التالي، أرسل كاشف الغربية يدعو الشيخ حسن وابن عمه لمأدبة، تكريمًا لهما بمناسبة عفو ملك الأمراء عنهما، وحتى يناقش معهما مطالبهما. قَبِل الاثنان الدعوة، ودخل حسن إلى مدينة سنهور، وتحته الحصان الذي حمل السلطان طومان باي إلى مضاربه، وكأنه يقدم دليل خيانته التي جاء يتفاوض على ثمنها! ومُدت الموائد وعليها أشهى الأطعمة وأجود الأنبذة، وأكل الشيخان حتى امتلآ، وشربا حتى ثملا، وفجأة، اقتحم عليهما المأدبة عشرات من المماليك الجراكسة، فانهالوا عليهما بالسيوف، وقطعوا لحمهما جزلًا.

وفي يوم الأربعاء ١٤ مارس/ آذار ١٥١٩م، دخلت القاهرة فرس السلطان طومان باي وفي رقبتها علقوا رأس حسن بن مرعي، ورأس ابن عمه شكر، ووراءها موكب كبير من المماليك. وشق الموكب شوارع القاهرة، وسط زغاريد كانت تنطلق من بيت طومان باي وما حوله من بيوت.

قال الناس، وهم يرون الرأسين على باب زويلة: «الخائن يُخوِّنه الله!».



الجامع الأموي في دمشق

الغزالي وتابعه علي باي

مرت السنوات والشهور، والغزالي يقيم في دمشق، يحكمها كما كان يحكم حماة على عهد الغوري.

لم يزد مقامه بين نواب السلطان إلا درجة، ولم يختلف ما يقوم به عما تعود كل نائب أن يفعله: يجمع من أهل دمشق آلاف الدنانير كل عام، يستخرجها بالسياط والمقارع، وأحيانًا بالحرب يثيرها عليه أهل دمشق المشاغبون، وبعد كل هذا التعب تضيع في الهواء، وتتبدد بين أصابع الجند وأثمان الهدايا وحفلات استقبال سفراء السلطان، فلا يبقى منها إلا ستون ألف دينار، يدفعها جزية سنوية لخزينة الخنكار في إستانبول.

وحين كاد صدره يضيق بكل شيء، التقط طرف خيط يصله بالشاه إسماعيل الصفوي حاكم فارس، وعدو السلطان سليم اللدود. وبسهولة انغمس في لعبة الخيانة. كان قد تعود عليها واستمرأها، فقرر أن يغامر من جديد ليكسب كل شيء، أو يخسر كل شيء، وكتب لشاه فارس يقول:

إنني على استعداد لمحالفتك على طرد العثمانيين، فتعالَ بنفسك أو أرسل لي عسكرًا يساعدني على حربهم، وسوف تُفتح لك أبواب الشام.

رحب الشاه إسماعيل بالعرض، وكتب رسالة لنائبه في بغداد، يطلب فيها القيام بمساعدة سفير الغزالي، وتدبير المساعدات العسكرية المناسبة. وتتالت الرسائل بين دمشق وبغداد وأردبيل - التي اتخذها الصفوي عاصمة له بعد سقوط تبريز. وانتهت المباحثات باتفاق على تقديم مدد من اثني عشر ألف جندي فارسي للغزالي حين يعلن تمرده على السلطان العثماني.

بدأ الغزالي يجس نبض زملائه مماليك الشام، فلم يتحمسوا للمغامرة، لتفوق الحامية العثمانية عليهم في العدد والسلاح. وألح الغزالي عليهم أن يساعدوه في مشروعه، وأعلن لهم أنه سينشئ سلطنة جركسية ويعيد مجدهم القديم، ولكن الأمراء ظلوا يثيرون العقبات ويُعددون الصعاب، ثم اشترطوا أن يوافق نائب مصر خاير بيك على المشروع، ويعد بمساعدته، أو على الأقل يتعهد بعدم تنفيذ أوامر السلطان سليم بالتصدي لهم.

لم تكن العلاقات بين الغزالي وخاير في أحسن أحوالها آنذاك؛ إذ كان خاير بيك يشك في أن الغزالي يحرض مماليكه

مواطن عثماني

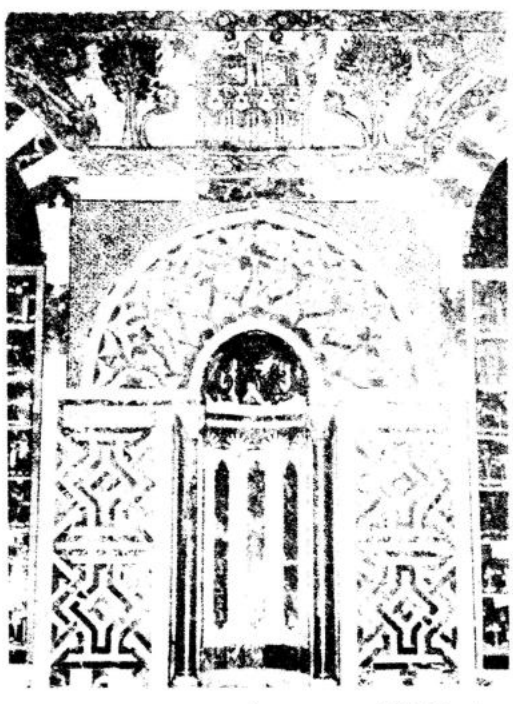
على ترك خدمته، ويغريهم بالعمل معه في الشام، لكن ذلك لم يكن سبب رفضه لمشروع الغزالي؛ فقد انزعج من المغامرة، وخشي أن تنتهي بتعليق رؤوسهم على الحبال بين الصواري، فرد على الغزالي محذرًا إياه من القيام بأي تمرد.

لم يكُف الغزالي عن متابعة التخطيط لمغامرته، وخدمته الظروف حين مات السلطان سليم الأول فجأة في عام ١٥٢٠م، وخلفه ابنه السلطان سليمان القانوني، وكان صبيًّا صغير السن، فكتب الغزالي رسالة أخرى لخاير مؤكدًا أن الوقت قد حان لتنفيذ المشروع، وأن العثمانيين قد فقدوا سلطانهم القوي الجبار، وتولى أمرهم غلام مشغول عن الملك بالفلسفة والشعر والقانون.

ضعف ملك الأمراء أمام إلحاح الغزالي وتغير الظروف، لكنه آثر أن يمسك العصا من المنتصف، فأعلن لسفير الغزالي أنه سوف يعلن التمرد إذا نجح مماليك الشام في انتزاع حلب من العثمانيين.

اكتفى الغزالي بذلك، وبدأ يعد خطته في تكتم شديد، فدعا خمسة آلاف من قادة وضباط وجنود الحامية العثمانية في دمشق إلى مأدبة فخمة، ومد لهم سماطًا طويلًا لم يسبق له مثيل، وجلس القادة والأعيان في أعلى السماط، وتوزع الباقون على مدرجاته، كلٌّ حسب رتبته ومقامه، وخلف كل ضيف وقف أحد مماليك الغزالي، يخدمه ويقدم له الطعام ويلبي كل إشارة منه.

ومر الخدم بالخمر، فشرب العثمانيون حتى ثملوا، ثم انهالوا على الطعام يزدردونه بنهم شديد، وفجأة أخرج المماليك سيوفهم من بين طيات الثياب، وتحول الخدم إلى محاربين، وبعد دقائق كانت كل



محراب تربة الظاهر بيبرس بدمشق

الرؤوس العسكرية العثمانية قد استقرت في الأطباق وبين بقايا الثريد والأرز والحساء.

ألقيت جثث ضحايا المأدبة في الصحراء، فأكلتهم الذئاب والوحوش، وتمتعت بما ملأوا به بطونهم، بينما اقتحم الغزالي قلعة دمشق وهزم حاميتها الصغيرة.

في اليوم التالي نصب جان بردي نفسه سلطانًا على الشام، وسمى نفسه «الملك الأشرف صاحب الفتوحات جان بردي الغزالي»، وأمر فزُينت له دمشق ثلاثة أيام، وأُوقدت له الشموع على الدكاكين، وقبَّل

له الأمراء الأرض، ودُعي له على منابر دمشق، وضُربت النقود باسمه، وضم إلى مملكته الجديدة طرابلس وحمص وحماة.

وانطلق «أبو الفتوحات» من دمشق يريد الاستيلاء على حلب، وكتب وهو في الطريق رسالة إلى ملك الأمراء خاير بيك يبشره فيها بالنصر الذي تحقق على يديه، ويذكر بأنه ماضٍ إلى حلب، فعليه أن يكون عند وعده ويمده بالمساعدة عندما يصله نبأ استيلائه عليها.

استقبل خاير بيك البشرى التي حملها سفير الغزالي ببرود، فقد كان مشغولًا أيامها لقمة رأسه، لأن السلطان الجديد سليمان القانوني لم يرسل فرمانًا يثبته في منصبه، وكانت الهواجس قد ملأت قلبه، فربط بين تمرد الغزالي وتأخر الفرمان، وشك في أن يكون نبأ علمه بالتمرد قد تسرب إلى البلاط العثماني، فنتج عنه هذا التأخر المريب. وحين وصلته رسالة الغزالي وجدها فرصة سانحة لإثبات ولائه، فقبض على رسول الغزالي وقتله، وبعث بما كان يحمل من رسائل له ولأمراء مصر إلى إستانبول.

لم يسرع كل ذلك بورود الفرمان، ولم ينتظر خاير بيك رد السلطان على رسائله، فأسرع يُعد معدات القتال، ويستعرض الجنود ليختار منهم حملة يقودها بنفسه، ليؤدب صديقَه القديم السلطان أبو الفتوحات، وكلما تأخر الفرمان زاد اضطرابًا وقلقًا.

وزاد الطين بلة أن أخذ الناس في القاهرة يروجون الشائعات، ويستنتجون بأن هناك اتفاقًا بينه وبين الغزالي، حتى إن مملوكًا عجوزًا يسمى «إياس» كان يسهر في مجلس لهو مع بعض ضباط الحامية العثمانية في القاهرة، فقال لهم:



مطرقة من النحاس كانت على باب إحدى المدارس بدمشق

- إن في نية خاير بيك أن يتسلطن في مصر كما فعل صديقه الغزالي.

واستدعى ملك الأمراء الرجل، وسأله في حضور الضباط العثمانيين:

- من أين لك بذلك الكلام الذي قلته عني؟

فقال المملوك العجوز بسذاجة:

- كل الناس يعرفون ذلك ويتحدثون فيه.

وغضب ملك الأمراء غضبًا عنيفًا، وأمر بشق بطن المملوك السفيه، وترك جثته دون دفن حتى تنهشها الكلاب.

وعندما وصل الفرمان أخيرًا، جاء معه أمر سلطاني لخاير بيك بألا يكلف خاطره ويخرج لمحاربة الخائن جان بردي الغزالي، لأن السلطان قد أوفد له قوة عثمانية ستقوم بهذا الواجب.

وبالفعل، احتلت القوات العثمانية حلب وحصنتها، فظل الغزالي يحاصرها ثلاثة أشهر، وحين بدأ الشتاء وتراكمت الثلوج اضطُر إلى الانسحاب عائدًا إلى قاعدته في دمشق، لكن القوات العثمانية أدركته عند قرية الدوير، بالقرب من دمشق، واشتبكت معه في معركة عنيفة، قَتلت خلالها عشرة آلاف من جنوده، وقضت على أي أمل له في النصر.

هرب الغزالي من المعركة بعد أن تشتت جيشه، فلم يبقَ معه سوى خازنداره وتابعه علي باي، وكان قد رباه وعلمه وألحقه بخدمته حتى أصبح أعز لديه من أبنائه، وعندما أصبحا في جوف الصحراء، خلع الاثنان الملابس المملوكية، وتنكرا في زي المتصوفين والدراويش الذين يعبدون الله في مغارات الصحراء.

وطال الطريق بالرجلين، حتى احتميا بأطلال قصر قديم، واستأذن علي باي من سيده لكي يعود بطعام من قرية قريبة، فأذن له، وحين عاد الخادم الأمين كان في صحبته كوكبة من الجنود العثمانيين.

أدرك الغزالي وغبار الخيول العثمانية يقترب من القصر الذي لجأ إليه، أن تابعه الأمين قد خانه، وجال بعينيه المذعورتين يحاول أن يعثر على منفذ يهرب منه، فلما لم يجد أخذ يثير الرمال، وتظاهر بأنه درويش من الهائمين في حب الذات الإلهية، وانطلق يتمتم بكلام غير مفهوم،

والينكجرية ينقلون أبصارهم بين الدرويش الأبله وبين علي باي، كأنهم يسألونه أين هو الغزالي الذي زعمت أنك تعرف مكانه!

وحين شعر علي باي بنظرات الوعيد تحيط به من كل جانب، أخرج سيفه فضرب رأس السلطان الغزالي، وقال:

- أنا أقطع رأسه وأذهب به إلى إياس باشا قائد الينكجرية، فهو يعرفه منذ كنا في مصر، فإذا كان درويشًا كما قال، فرأسي أنا عوض رأسه، وإن كان الغزالي، عينني أمير سنجق كما وعدني.

وأصبح علي باي أمير سنجق.



السلطان سليمان القانوني

الموت في طريق القلعة

امتد الأجل بملك الأمراء خاير بيك، فعاش ليكون آخر من يموت من خونة مرج دابق، وأكثر من يتعذب فيهم!

وطوال السنوات الخمس التي حكم خلالها مصر، لم يُفق من الخمر، ولم يكف ليلة عن شربها، ولم يسافر إلى نزهة أو يخرج في مهمة دون أن يضم موكبه أربعين بغلًا على الأقل تحمل النبيذ الفاخر القادم من جزيرة قبرص.

في الصباح كان ملك الأمراء يخرج من دور الحريم منتفخ الوجه، تحيط الهالات السوداء بعينيه، وآثار الخمر لم تغادر رأسه بعد، فيجلس على الدكة السلطانية، ويتقدم أصحاب القضايا بين يديه، فيحكم فيها وهو في نصف وعيه، فتجيء أحكامه فجة وظالمة وقاسية.

أحاطت به المشاكل من كل جانب، فلم يأتِ أوان الصفاء الذي حلم به، وقضى أيامه يفض مشاجرات الحاميات العثمانية مختلفة الأجناس، ويحل مشاكلهم التي لا تنتهي، فهم لا يعرفون نظامًا، ولا يطيعون أمرًا، ولا يخجلون من شيء، ويدوسون كل التقاليد العسكرية، حتى إنهم حولوا ثكناتهم في القلعة إلى مواخير، يخطفون النساء من

أسواق المدينة، ويصعدون بهن إليها، ويشربون فيها الخمر، ويخلعون أخشاب قصور القلعة ومرافقها يتدفأون بها في ليالي البرد.

وهم بعد هذا سفهاء وفيهم جلافة، لا يوقرون كبيرًا، ولا يعترفون بأمير. وحين طالبوه بأن يوزع عليهم الإقطاعات كما يوزعها على المماليك، استمهلهم حتى يستأذن سلطانهم، فهاجوا في وجهه، وقذفوا بأغطية رؤوسهم النحاسية تحت قدميه، وأغلظوا عليه في القول، وسبوه سبًّا بذيئًا، وهموا بقتله لولا أنه دخل الحرملك مسرعًا.

وكثر أذاهم في حق الناس: يهاجمون الأسواق، فيسرقون البضائع، ويعتدون على المارة، ويخطفون العمائم والطواقي، وينزعون أبواب المنازل وسقوفها ونوافذها، ويحملونها على جِمال أصحابها ويبيعونها في الأسواق.

يسمع ملك الأمراء ويسكر ويحتد، والأيام تمضي فتنكبه بأصدقاء الزمان الذي انقضى، ويعود من بقي من المماليك فيزدحمون على أبواب القلعة، وكانوا في البداية يتوسلون، ثم تجاسروا شيئًا فشيئًا فأصبحوا يطلبون، وأخيرًا أخذوا يهددون ويتوعدون.

نسوا أن الأيام قد دارت، والدول قد دالت، وتجمهروا يطلبون ما تأخر من مرتباتهم، فثار فيهم، وطردهم، وصاح في وجوههم:

- والله لولاي ما أبقى الخنكار منكم مملوكًا يلوح على وجه الأرض، فإني شفعت لكم، ولكنكم غدارون!

وبرغم ذلك عادوا، وأخذوا الدنانير، ولم يكفوه ألسنتهم، فأخذوا يسخرون من العثمانيين، بل ووصل الأمر أن بعضهم سب خُشْقَدم، كاشف أسيوط ومنفلوط وشاد الشِّوَن الذي كان أول من لجأ إلى

ابن عثمان من رجال الغوري، فقال له فخر الدين بن عوض كاتب المماليك:

- أنت كنت سببًا لوقوع الفتنة بين أستاذنا وبين ابن عثمان!

وثار خُشْقَدم لكرامته، ولم يسترح حتى ضحى ملك الأمراء بصديقه ابن عوض، وسمح بشنقه بسبب تطاوله على الصديق المدلل للعثمانيين.

لازم النكد ملك الأمراء حتى في جلسات الخمر. أراد يومًا أن يرفه عن نفسه بعد عناء العمل، فخرج في رحلة ترفيهية إلى ضواحي القاهرة، واصطحب معه كبار رجال دولته وقادة الفرق العسكرية العثمانية، وأمضى الجميع الوقت في مرح ولهو، يصطادون، ويغنون. وفي نهاية اليوم، كانت الخمر قد دارت برؤوس الجميع، فأخذوا يتبادلون المزاح، وقال القائد العثماني فائق بيك مازحًا:

- الجراكسة خائنون!

ضحك البعض، ولم يهتم آخرون، ولكن الكلمة استفزت - على غير توقُّع - والي القاهرة المملوكي الأمير كمشيغا، فثار في وجه القائد العثماني وقال له:

- الله يعلم من خان منا! أرسلتم لنا مناديل الأمان وغدرتم بنا، فمن هو الخائن؟

حط الصمت على الجميع، ثم اشتبكوا في حوار عنيف، ورفع فائق بيك خنجره وهاجم كمشيغا، فتوقى الضربة وتلقاها في قفطانه، واستل سيفه وانقض به على القائد العثماني، فكاد يطيح بعنقه، واستعاد بقية الأمراء رشدهم، فاندفعوا يفرقون بين المتصارعين!

أقسم ملك الأمراء بعد هذه الحادثة ألا يشرب الخمر أبدًا، لكنه لم يكن ممن يبرون بقسمهم، فعاد إلى الخمر يشربها، ويتشاجر مع زوجته وهو سكران، ويتصايحان، ويسمع المماليك صياحهما، ويردده الرواة على المقاهي، ويتسامر به الناس في منادر البيوت.



زي نسائي للخروج (مصري) في أواخر العصر المملوكي

وهكذا، عجز ملك الأمراء أن يكون مرهوبًا كسيده الخنكار، فلم يشبهه إلا في شيء واحد، هو التعطش لسفك الدماء، فكان مثله أهوج، أسهل كلمة على لسانه هي أوامر القتل.

عرضوا عليه يومًا فلاحًا سرق ثورًا، فأمر بأن يقطعوا أنفه وأذنيه، ويضعوه على ظهر الثور ويطوفوا به القاهرة، وفي نهاية المطاف يُخوزقونه.

ودخل أحد مؤذني المساجد الفقراء حقلًا، فقطع بعض ثمار الخيار ليأكلها، فضبطه الحراس وصعدوا به إلى السلطان، فأمر بشنقه، فطافوا به في شوارع القاهرة والقفة التي جمع فيها الخيار تتدلى من عنقه، وشنقوه عند زقاق الكحل.

وتعود الناس أن يسمعوا عن قسوة ملك الأمراء، دون أن يدهشوا لها، حتى الأطفال الصغار تعودوا على قصص القتل وسفك الدماء.

حدث أن اجتمع عدد منهم يلعبون تحت ضوء القمر في باحة أمام حارتهم، فألَّفوا مسرحية، ومثَّل أحدهم دور ملك الأمراء خاير بيك، وقام آخر بدور والي القاهرة، وخطف طفل عمامة آخر، فقبض الوالي على اللص وأحضره بين يدي ملك الأمراء، فأمر بأن يُخوزقوه، فدق له الأطفال عصا وأجلسوه عليها حتى مات!

كان القتل قد هان في مصر حتى على الصغار!

وحين سقط ملك الأمراء أخيرًا فريسة لثلاثة أمراض، كان الشلل أحدها، اعتكف عن الخروج، وثقل عليه المرض، فأمر بتوزيع الصدقات على أطفال الكتاتيب، وعلى فقهائها، ليقرأوا له الفاتحة ويدعوا له بالشفاء. لكن المرض تزايد عليه، وبدأ يدخل في غيبوبة

تطول، وفي لحظات إفاقته كانت أوامره تتتالى، فأعتق جميع جواريه وعبيده ومماليكه، ووزع ألف دينار وعشرة آلاف إردب قمح على مجاوري الجامع الأزهر، ومجاوري القرافات والمزارات والزوايا، وأمر بإطلاق كل المسجونين رجالًا ونساء. ولم يرَ الناس في أيام ملك الأمراء خاير بيك أيامًا أحسن من تلك الأيام.

وعندما شعر بأن أنفاسه أصبحت معدودة، أرسل إلى أحد الأمراء العثمانيين، فسلمه خاتم الملك، وأعطاه بيانًا بالأموال التي في الخزائن... ومات!

دفنوا ملك الأمراء خاير بيك في مدفن فخم، بناه لنفسه، فزخرفه وأبدع في نقوشه، واختار له مكانًا يقع في طريق القلعة، ليمر به الأمراء والأغوات والعامة وكل من تدفعه الحاجة إلى قصر الملك، فيقرأوا الفاتحة على روحه، ويطلبوا له المغفرة في صعودهم وفي هبوطهم.

لكن أحدًا لم يفعل ذلك!

ففي الليلة الأولى لدفن خاير بيك، سمع بعض أهل الصحراء صراخًا مرعبًا يشق ظلام الليل ويتصاعد من مدفن ملك الأمراء، وظل الصراخ يتكرر ليلة بعد أخرى، ويردد الفضاء صداه، وتحمله الريح إلى الوحوش الضالة في الصحراء فتجري خائفة إلى مخابئها.

تجنب الناس الطريق الذي يتخلل ظلامَه الكثيف الأنينُ والرعب والنشيج، وشقوا لأنفسهم طريقًا آخر، ويومًا بعد يوم أصبحت مقبرة خاير بيك وحيدة ضائعة عند حد الأفق!



ملاحق

أعلام

السلطان بايزيد الثاني (١٤٤٧-١٥١٢م)

- أحد سلاطين الإمبراطورية العثمانية. تولى العرش عام ١٤٨١م.
- في عهده ساءت العلاقات بين المماليك والعثمانيين، بسبب لجوء أخيه ومنافسه على العرش الأمير جم إلى مصر، وحماية السلطان قايتباي له.
- نشبت الحرب بينه وبين المماليك في السنوات ١٤٨٣م، و١٤٨٥م، و١٤٨٩م، وانتهت بالصلح.
- في أواخر أيام حياته نشب الخلاف بين أبنائه على العرش، حتى استولى ابنه سليم عليه.

السلطان طومان باي الثاني (١٤٧٣-١٥١٧م)

- آخر سلاطين دولة المماليك الجراكسة.
- تذكر بعض مراجع العهد العثماني أنه ابن أخي الغوري.

■ كان الساعد الأيمن لعمه طوال فترة حكمه. وقام بدور بارز في تثبيت أركان دولته، حتى إن الغوري فكر في تزويجه ابنته.

■ تولى الحكم - بعد مقتل عمه - على غير رضاه، وصمد في مواجهة العثمانيين، ودخل ضدهم ثلاث معارك.

■ أول سلطان مملوكي يُشنق في ميدان عام.

السلطان قايتباي الكبير (١٤١٦-١٤٩٦م)

■ واحد من أبرز سلاطين دولة المماليك الجراكسة.

■ حكم السلطنة العربية المملوكية بين ١٤٦٨-١٤٩٦م، وهي مدة لم يحكمها أحد من سلاطين المماليك.

■ وصفه المؤرخ ابن إياس بأنه كان «وافر العقل، سديد الرأي، عارفًا بأحوال المملكة، موصوفًا بالشجاعة، عارفًا بأحوال الفروسية».

■ واجه المتاعب التي تعرضت لها الحدود الشمالية للسلطنة، والتي ترتبت على نشوء قوة جديدة هي قوة العثمانيين التي برزت بعد استيلائهم على القسطنطينية عام ١٤٥٣م.

■ حدثت في عهده عدَّة أوبئة، وفي عام ١٤٩٢م أباد الطاعون ثلث المماليك.

■ ترك عدة منشآت، منها المساجد والوكالات والمدارس والأسبلة في القاهرة ودمشق والقدس وغيرها.

■ ساءت صحته في عام ١٤٩٦م، فتنازل عن السلطنة لابنه، ثم تُوفِّي في اليوم التالي مباشرة.

الشاه إسماعيل الصفوي (١٤٨٧-١٥٢٤م)

- شاه الفرس، ومنشئ الدولة الشيعية في إيران.
- بين عامَي ١٥٠٣-١٥٠٨م شن حروبه التي انتهت بتوحيد كل الدويلات التي كانت قد أنشئت على أرض فارس وغرب إيران والعراق.
- بدأ يطبق العقيدة الشيعية على الأقطار التي ضمها إلى مملكته. وعندما أسس العثمانيون دولتهم السُّنية، بدأ الصراع عند حدود الدولتين، وانتهى بأن هزمه السلطان سليم عام ١٥١٥م في معركة جالديران.
- فر إلى داخل بلاده، ومات وهو في السابعة والثلاثين.

جان بردي الغزالي (-١٥٢١م)

- أمير مملوكي لعب دورًا مهمًّا في المرحلة الأخيرة من حياة دولة المماليك.
- كان من مماليك الأشرف قايتباي، وسُمي «الغزالي» نسبة إلى قرية منية غزال المصرية التي كان يشرف عليها.
- ظل يترقى في المناصب الإدارية، وفي عهد السلطان الغوري أصبح حاجبًا لحجاب حلب ونائبًا لصفد ثم حماة.
- أغراه صديقه خاير بيك بالعمل مع العثمانيين، فساعدهم على هزيمة الحملة التي قادها لتحرير غزة، وتواطأ معهم في معركة الريدانية، وكافأه السلطان سليم بتعيينه نائبًا لدمشق.

■ تمرَّد على الحكم العثماني بعد وفاة السلطان سليم، وأعلن نفسه سلطانًا على الشام باسم «السلطان أبو الفتوحات»، وانتهى التمرد بقتله.

خاير بن ملباي (-١٥٢٢م)

■ أول أمير مملوكي حكم مصر تحت ظل السيادة العثمانية.

■ أحد خمسة إخوة ولدوا في بلدة صمصوم ببلاد الكرج، ومنحهم أبوهم هدية للسلطان قايتباي.

■ تولى أخوه الأكبر قانصوه البرجي منصب نائب الشام، وتذكر بعض كتب التاريخ أنه مات مسمومًا بأمر من الغوري، وأن هذا كان السبب في خيانته.

■ حكم مصر خمس سنوات نائبًا عن السلطان العثماني، وحمل لقب «ملك الأمراء».

فاسكو دا جاما (١٤٦٠-١٥٢٤م)

■ بحار برتغالي اكتشف الطريق البحري بين أوروبا والهند.

■ اختاره ملك البرتغال «جون الثاني» ليكمل ما قام به سلفه «بارثلميو دياز»، فخرج في أسطول من أربعة مراكب واكتشف طريق «رأس الرجاء الصالح».

■ كافأه ملك البرتغال بلقب «أميرال البحار الهندية»، ومنحه حق الاستيراد من الهند، فضلًا عن معاش سنوي كبير وإقطاع من الأرض.

- تقاعد في عام ١٥٠٣م ليصبح مستشارًا لملك البرتغال لشؤون البحرية الهندية.
- في عام ١٥٢٤م أصبح نائبًا لملك البرتغال في حكم الهند، وتُوفِّي في السنة نفسها.

قانصوه الغوري (١٤٤٠-١٥١٦م)

- تولى الحكم بعد فترة من الاضطراب فصلت بين وفاة أستاذه قايتباي وجلوسه على العرش عام ١٥٠١م، وكان في نحو الستين من عمره.
- أقام حيًّا خاصًّا باسمه هو «الغورية»، لا يزال باقيًا إلى الآن في القاهرة. شيد فيه مسجدًا ومدرسة، وعُني بطريق الحج، فأقام به كثيرًا من الاستراحات والآبار.
- تعرضت السلطنة المملوكية في عصره للفتن والحروب، وتميزت سياسته المالية بالقسوة في جباية الضرائب، ليواجه المشاكل التي ترتبت على تحول طريق التجارة عن أرض السلطنة وإفلاس خزائنها.
- قُتل في معركة مرج دابق، ولا يُعرف له قبر إلى اليوم.

تواريخ

١٤٨٣م

يقع أول صِدام مسلح بين المماليك والعثمانيين بسبب إيواء السلطان المملوكي قايتباي للأمير جم شقيق السلطان العثماني بايزيد الثاني ومنافسه على العرش.

١٤٩٥م

يُعقد الصلح بين المماليك والعثمانيين، ويتوفَّى السلطان قايتباي، ويبدأ الصراع بين أمراء المماليك على العرش، فيصعد إليه أربعة سلاطين في خمس سنوات.

١٤٩٧م

يكتشف الرحالة البرتغالي «فاسكو دا جاما» طريق «رأس الرجاء الصالح» الذي يربط المحيط الأطلسي بالمحيط الهندي، ويمكِّن الأوروبيين من الحصول على السلع الشرقية دون الحاجة للمرور في أراضي السلطنة العربية المملوكية.

١٥٠١م

يتولى قانصوه الغوري عرش السلطنة العربية المملوكية، ويقضي السنوات الأولى من حكمه في مواجهة المؤامرات على عرشه.

١٥٠٢م

ينشب الصراع بين سفن الأسطول البرتغالي وسفن الأسطول المملوكي، ويضع «دا جاما» جزءًا من أسطوله عند مدخل البحر الأحمر لحصار السفن المملوكية، ومنعها من نقل البضائع من الهند.

١٥٠٦م

يستولي البرتغاليون على جزيرة سوقطرة في مدخل البحر الأحمر عند القرن الأفريقي، ويتحكمون في الطريق المباشر بين مصر والهند.

١٥٠٩م

تتصاعد الصِّدامات بين البرتغاليين والمماليك لفك الحصار المضروب على المنطقة، والذي انتهى بإغلاق البحار العربية. ويحطم البرتغاليون الأسطول المصري في موقعة ديو.

١٥١١م

يواصل البرتغاليون الاستيلاء على القواعد التجارية الأخرى التي تتحكم في تجارة الشرق الأقصى، فيحتلون ميناء ملقة في الجنوب الشرقي من آسيا، وفي العام التالي (١٥١٢م)، يحتلون ميناء هرمز على رأس الخليج العربي.

١٥١٢م

يتولى السلطان سليم الأول العرش العثماني، وينشب الخلاف بينه وبين أخيه ومنافسه الأمير أحمد. يلجأ الأمير أحمد إلى المماليك، ولكن السلطان الغوري يعامله بتحفظ، فيلجأ إلى الشاه إسماعيل الصفوي شاه فارس.

١٥١٥م

يبدأ السلطان سليم في تنفيذ سياسة الاتجاه إلى الشرق، فيحارب شاه فارس إسماعيل الصفوي، ويهزمه في معركة جالديران، ثم يستدير فيهاجم إمارة ذي القادر المشمولة بحماية المماليك ويضمها إلى دولته.

١٥١٦م

بعد أربعة أشهر من الاستعداد، يتحرك السلطان الغوري لمواجهة الخطر العثماني، وتنتهي معركة مرج دابق بمقتل الغوري، ويستولي العثمانيون على حلب ودمشق وغزة والقدس، ويضمون الشام كله، ويتعاون معهم عدد من أمراء الغوري وأركان دولته.

١٥١٧م

يصل السلطان سليم إلى مصر، ويستولي على القاهرة، ويهزم طومان باي الثاني - خليفة الغوري - في معركة الريدانية (٢١ يناير/ كانون الثاني)، ثم معركة بولاق (٢٨ يناير/ كانون الثاني)، وبعد هزيمته في المرة الثالثة، يلجأ طومان باي إلى صديقه حسن بن مرعي، فيسلمه

إلى السلطان سليم، ويُعدم على باب زويلة (١٣ أبريل/ نيسان). ويغادر سليم مصر بعد أن عيَّن خاير بيك أميرًا عليها، وجان بردي الغزالي أميرًا على الشام، مكافأة لهما على الخيانة.

١٥١٩م

يُقتل كاشف البهنسا والفيوم، الخائن حسن بن مرعي.

١٥٢٠م

يموت السلطان سليم، ويتمرد جان بردي الغزالي نائب الشام، فيسلم تابعُه رأسَه للعثمانيين.

١٥٢٢م

يُتوفَّى خاير بيك أول أمير مملوكي يحكم مصر في ظل العثمانيين.

مراجع

اسم الكتاب: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان

المؤلف: شمس الدين محمد بن طولون

الناشر: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

عدد الصفحات: ٤٠٠ صفحة - قطع كبير

مؤلف هذا الكتاب شمس الدين بن طولون، دمشقي، ولد عام ١٤٧٦م بالصالحية على سفح جبل قاسيون بدمشق، وتُوفِّي بها في عام ١٥٤٦م.

ويعتبر هذا الكتاب مكملًا لكتاب ابن إياس «بدائع الزهور في وقائع الدهور»، إذ يتناول أخبار الشام، وخاصة دمشق، في الفترة بين سنتَي ١٤٨٠-١٥٢٠م، فالكتابان لمؤرِّخين عاشا الأحداث في تلك الفترة الحاسمة من تاريخ البلاد العربية، وعاصر كلٌّ منهما الدولة التي تجمع بين القاهرة ودمشق، وهي دولة المماليك.

ومع أن ابن طولون لم يسهب في الحديث عن أحوال الشام كما أسهب ابن إياس في أخبار القاهرة، إلا إنهما معًا شاهدا العيان الوحيدان اللذان تركا شهادتهما عن تلك المرحلة.

اسم الكتاب: الأشرف قانصوه الغوري

المؤلف: الدكتور محمود رزق سليم

الناشر: سلسلة أعلام العرب - القاهرة

عدد الصفحات: ٢٠٠ صفحة - قطع متوسط

يعتبر مؤلف هذا الكتاب أن الفترة التي اعتلى فيها قانصوه الغوري عرش السلطنة، كانت باتجاهاتها الداخلية وبحروبها الخارجية مثلاً من أمثلة الحفاظ على العروبة ووطنها.

ويدرس الكتاب شخصية الغوري، ويحلل أعماله وتصرفاته، وينبه لحقيقة تدعو للدهشة وهي أن الغوري كان الوحيد بين سلاطين المماليك الذي استُشهد في وسط المعركة وهو يدافع عن السلطنة!

اسم الكتاب: الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته

المؤلف: الدكتور أحمد فؤاد متولي

الناشر: دار النهضة العربية - القاهرة

عدد الصفحات: ٤١٢ صفحة - قطع كبير

تحتوي دور الوثائق بتركيا على كثير من الوثائق التي تتعلق بتاريخ الوطن العربي منذ دخل العثمانيون المنطقة عام ١٥١٧م، إلى أن انتهت سيادتهم الاسمية عليها عام ١٩٢٢م. وقد تمكن مؤلف هذا الكتاب أثناء وجوده في أنقرة وإستانبول من جمع وتصوير كل الوثائق والنصوص المخطوطة التي تتحدث عن فتح العثمانيين للشام ومصر، واستعان بها في تأليفه. وقد كشفت هذه الوثائق عن حقائق كثيرة تتعلق

بظروف الغزو العثماني، وخاصة علاقة العثمانيين بالخونة الذين سلموهم الشام ثم مصر، ففتحوا لهم طريق ضم الوطن العربي كله إلى إمبراطوريتهم.

اسم الكتاب: على باب زويلة

المؤلف: محمد سعيد العريان

الناشر: دار المعارف بمصر

عدد الصفحات: ٣٦٤ صفحة - قطع متوسط

قصة تاريخية تتناول حياة السلطان طومان باي الثاني، آخر سلاطين المماليك، منذ ميلاده حتى شَنْقه على باب زويلة، وتتعرض خلال ذلك للحياة السياسية والاجتماعية في المجتمع المملوكي. وقد وصف الدكتور طه حسين الكتاب بأنه «كتاب رائع بأدق معاني الكلمة وأوسعها وأصدقها في وقت واحد».

وقد تخصص مؤلفه في كتابة هذا النوع من القَصص التاريخي، الذي ينتقي بعض حوادث التاريخ، ويضيف إليها ما يتطلبه فن القَصص من حوادث خيالية تكمل رسم الشخصيات، وتحفظ إيقاع التشويق، وهو نوع من الكتابة الأدبية يُعرف بـ«الأدب التاريخي»، تمييزًا له عن «التاريخ» الذي يحتفظ بالحقائق التاريخية كما هي.

اسم الكتاب: بدائع الزهور في وقائع الدهور

المؤلف: محمد بن أحمد بن إياس الحنفي

الناشر: فرانز شتانير - فيسادن (ألمانيا الغربية)

عدد الصفحات: خمسة أجزاء (٦٠٠ صفحة قطع كبير للجزء الواحد)

مؤلف هذا الكتاب هو المؤرخ المعروف ابن إياس، وهو أهم المراجع عن المرحلة الأخيرة من حكم المماليك، التي انتهت بالفتح العثماني لمصر والشام.

وقد وُلد ابن إياس عام ١٤٤٨م، وعاش - على الأرجح - ثمانين عامًا، وهو ينتمي إلى أسرة من الأتراك المماليك. ترقى جده في سلك الإمارة، وتولى نيابة طرابلس ثم حلب ثم دمشق، واحتفظ والده بصِلات وثيقة بالأمراء وأصحاب المناصب الرفيعة، وتولى أخوه منصب رئيس المدفعية «الزردكاش».

وكان ابن إياس في العشرين من عمره حين بدأ تدوين تاريخه، فترك صورة متكاملة للحياة الاجتماعية والسياسية والحربية في الدولة العربية المملوكية، وشرح أخلاق الناس وعاداتهم، وتتبع سِير العلماء والأمراء والوزراء، وأنباء المجرمين، وحوادث الفتن والثورات، وأحوال الأسواق، وأسعار السلع. وجاءت المجلدات الثلاثة الأخيرة من كتابه «بدائع الزهور» رؤية شاهد عيان لتاريخ مصر والأقطار العربية الأخرى، في فترة مهمة من تاريخها بدأت عام ١٤٦٨م، وانتهت بوفاة خاير بيك أول من حكم مصر تحت الراية العثمانية عام ١٥٢٢م.

وكان ابن إياس ينتمي إلى طائفة «أولاد الناس»، وهم نوع من الرديف للجيش المملوكي، يقومون بالخدمة العسكرية عندما يأمر السلطان،

ويتقاضون راتبًا سنويًّا يصل إلى ألف دينار، أو يُقطعون أرضًا تغل المبلغ نفسه، لذلك وجه معظم نقده لفساد الإدارة المالية، وتغيُّر قيمة العملات، وعدم ثبات المرتبات والإقطاعات.

وقد طُبع كتاب ابن إياس لأول مرة في المطبعة الأميرية بمصر، ثم أعادت جمعية المستشرقين الألمانية نشره في سلسلة تصدرها باسم «النشرات الإسلامية».

مصطلحات

الاستادار

وظيفة يشرف شاغلها على كل شؤون بيوت السلطان، من المطابخ والحاشية والغلمان، وهو المسؤول عن تدبير احتياجات كل من يعمل في تلك البيوت.

الأمراء المقدمون

أعلى مراتب الأمراء في عصر المماليك، وهي مرتبة يكون في خدمة صاحبها مائة مملوك، وهو في نفس الوقت مقدم على ألف جندي من أجناد الحلقة وقت الحرب.

الأوقاف

أراضٍ وعقارات أوصى أصحابها قبل وفاتهم بأن ينفق من ريعها على المؤسسات الدينية والخيرية، كالمساجد وطلاب العلم، وكان نُظارها من رجال الدين يتقاضون مكافآت على قيامهم بإدارتها.

التوسيط

طريقة من طرق تنفيذ الإعدام، وتتم بأن يضرب السياف بقوة منطقة الوسط في جسم الإنسان، فينشطر إلى قسمين.

الحرافيش والزُّعر

صفة ترد في مراجع العصر المملوكي للدلالة على العاطلين عن العمل. ولأن معظم مؤرخي هذا العصر كانوا يمتون بصلة ما للطبقة الحاكمة، فقد تعودوا إطلاق هذا المصطلح على الفئات الشعبية العربية في القاهرة ودمشق وغيرها من مدن السلطنة المملوكية.

الخَوزَقة

وسيلة من وسائل التعذيب التي شاعت في العصر المملوكي، للحصول على الأقوال أو للانتقام، وبمقتضاها كان المكلف بالتعذيب يُدخل عصا من الحديد المدبب في شرج المتهم، ويظل يدق عليها ببطء حتى تنفذ من الفم، وكان بقاء المتهم حيًّا حتى يظهر رأس الخازوق من الناحية الأخرى دليلًا على قيام السجان بوظيفته خير قيام.

الخراج

الضرائب العقارية المفروضة على الأرض الزراعية، وكانت قيمتها تتفاوت وفقًا لدرجة خصب الأرض من ناحية، وزيادة المحصول أو نقصانه من ناحية أخرى.

الخليفة

عندما استولى التتار على بغداد سنة ١٢٥٨م نقل السلطان المملوكي الظاهر بيبرس الخلافة إلى مصر، ليجعل منها سندًا للسلطنة المملوكية. ومنذ ذلك التاريخ أصبح منصب الخليفة منصبًا شكليًّا يُحرك سلاطينُ المماليك شاغلَه كما يشاءون، ويقوم بدور واحد، هو إعطاء كل سلطان جديد تفويضًا شرعيًّا بالحكم.

الخوانق

جمع كلمة «خانقاه»، وهو بيت ينقطع فيه الصوفية للعبادة وذكر الله. وكان كل خانقاه وحدة قائمة بذاتها، بداخلها عدد معين من الخلوات خُصصت كلٌّ منها لأحد الصوفية.

الخوند

لقب كان يُطلق على زوجات السلاطين.

الدوادار

المعنى الحرفي لاسم هذه الوظيفة هو «حامل دواة السلطان»، وهو موظف كبير، يقوم بدور رئيس ديوان السلطان، يعرض عليه الرسائل، ويقدم إليه المنشورات للتوقيع عليها.

الشّوَن

المكان الذي تُخزن فيه السلع وخاصة الحبوب.

القباب

القبة سطح محدب ذو شكل نصف كروي تقريبًا، يقام على مبنى مربع أو مثمن أو دائري، وتبنى كليًّا أو جزئيًّا من الحجر، وتغطى من الخارج بالرصاص أو النحاس. وقد استخدمت في المساجد والمدارس والأضرحة الإسلامية، كما استخدمت أحيانًا كمكان للاستراحة والنزهة. وقبة الأمير يشبك بن مهدي بناها عام ١٤٧٩م، وكتب عليها اسم سيده قايتباي، وهي تُعرف الآن باسم «القبة الفداوية»، وقد أنشئ حولها - بمدينة القاهرة - حي يقع شمالي العاصمة المصرية.

القضاة الأربعة

كانت الدولة المملوكية - في غير الأحوال السياسية - تطبق الشريعة الإسلامية، كقوانين للتعامل، ويختص بالنظر في ذلك أربعة قضاة، يمثل كل واحد منهم مذهبًا من مذاهب الفقه الإسلامي المعروفة، وهي المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي. وكان المتقاضون يلجأون للقاضي الذي يتبعون مذهبه.

المحتسب

كان المحتسب في العصر المملوكي مسؤولًا عن الآداب العامة ونظام الأسواق ومراعاة الأمانة في المعاملات التجارية وآداب الطريق. وكان يمر هو أو نوابه بطرقات المدينة وأسواقها لمراقبة الموازين والمكاييل والمقاييس، والتفتيش على نظافة الحوانيت، وسلامة ما يقدمه الباعة للجمهور، هذا فضلًا عن مراقبة الخانات والفنادق والحمَّامات.

المعممون

مَن يرتدون العمامات، وهم العرب من أهل البلاد، تمييزًا لهم عن المماليك الذين كانت لهم أغطية رأس مميزة. وكان وصف المعممين مقصورًا على من يتولون مناصب رفيعة من أهل البلاد، وكان مقصورًا على أنواع خاصة من الوظائف.

المكاحل

أحد أسلحة الحرب، أقرب إلى المدافع في جيوش اليوم، لكنها كانت تُستخدم لإلقاء النفط.

الوالي

أحد أمراء المماليك، يقوم بدور مشابه لما يقوم به اليوم محافظ أي مدينة أو إقليم، يشرف على المدينة ويصونها، ويحمي أهلها من المفسدين واللصوص.

الوزير

كان الوزير في دولة المماليك ينفذ تعليمات السلطان، فيشرف على شؤون الدولة المالية مع آخرين.

أجناد الحلقة

محترفو الجندية من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم، وهم أقرب فئات المماليك إلى الجيوش النظامية في العصور الحديثة، وكانوا يتقاضون مرتباتهم من ديوان الجيش.

أمير السلاح

المشرف على مخازن السلاح، ومهمته توزيع السلاح على المماليك.

تكفيت

التكفيت في الصناعة الحرفية هو التطعيم، وكان البرونز أو النحاس يُطعَّم بالذهب والفضة في سوق خاصة بالقاهرة عُرفت بـ«سوق الكفتيين».

ثكنات المماليك

الأماكن المخصصة لتربية المماليك وتدريبهم على السلاح في قلعة الجبل، وكانت أشبه بمعسكرات الجيوش الحديثة. وتقام طبقة بعد أخرى، وتضم كل طبقة المماليك المجلوبين من بلد واحد.

حاجب الحجاب

موظف كبير ينظر في مخاصمات الأجناد، وما ينشأ من خلاف بينهم حول الإقطاعات.

ختم صحيح البخاري

صحيح البخاري، أحد الكتب التي جمع فيها مؤلفها أحاديث الرسول الصحيحة. وكان المتبع في العصر المملوكي أن يُبتدأ في قراءته في أول أيام شهر شعبان، وتستمر حتى السابع والعشرين من رمضان، حيث يحتفل السلطان بذلك احتفالًا كبيرًا في القلعة.

رسالة الفتوح

الرسالة التي تعوَّد السلطان أن يرسلها إلى أصدقائه وحلفائه وأتباعه يبشرهم فيها بالنصر الذي تحقق على يديه.

شاد

المفتش، فيقال «شاد الدواوين»؛ أي الذي يفتش على الدواوين.

عفارم

كلمة تركية بمعنى أحسنت.

كُشَّاف

جمع «كاشف»، وهو حاكم الإقليم.

مناظر اللوق

حدائق ضخمة كان الأمراء والسلاطين ينشئونها لتكون مكانًا للنزهة، وكانوا يتفننون في هندستها وزخرفتها بالزهور ومجاري المياه والطرق، وكانت مناظر اللوق تقع في المنطقة التي تحمل اسم «باب اللوق» بوسط القاهرة المعاصرة.

نواب السلطنة

ينوب النائب عن السلطان في الوحدة الإدارية التي يتولى أمرها، ويعتبر ممثلًا له. وكان على نواب الشام أن يرجعوا إلى السلطان في المسائل التي لا يستطيعون الانفراد بالبت فيها.

«لم يكن واحد من الرجال الذين ملأوا فضاء مرج دابق في تلك الليلة الصيفية الحارَّة يعرف على وجه التحديد كيف ستنتهي الأمور. كل ما كانوا يعرفونه أن الحرب قد أصبحت أمرًا مقررًا، وأنها قد تنشب في أي لحظة، وأن إقامتهم في هذا المرج الواسع لن تطول.

أما كيف تتوزع بينهم الحظوظ: مَن منهم سوف يُؤخذ أسيرًا؟ ومن منهم سوف يسقط شهيدًا في المعركة؟ وهل ينتصر الجيش الذي يقوده سلطانهم الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري، أم ينتصر جيش عدوهم السلطان المظفر سليم خان بن بايزيد العثماني؟ فذلك كله لم يكن واحد منهم يعرف شيئًا عنه».



هكذا يبدأ الكاتب الكبير صلاح عيسى كتابه الممتع عن الفتح العثماني لمصر والشام. وكما عوَّدنا في مؤلفاته التاريخية: «رجال ريا وسكينة»، و«حكايات من دفتر الوطن»، و«هوامش المقريزي: حكايات من مصر»، فالتاريخ هنا ليس تاريخ الحُكام، بل تاريخ الشعوب في تعاملهم مع حياتهم وفي مواجهتهم للأخطار التي تتهددها.


ISBN 978-977-6743-36-6





